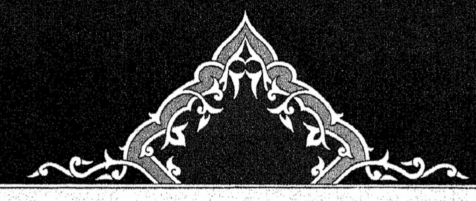




رحلات الإمام السورية

1908 - 1920

الشيخ محمد رشيد رضا

صاحب المنار

حررها وقدم لها: زهير أحمد ظاظا







رحلتان إلى سورية



رحلتان إلى سوريّة (١٩٠٨ - ١٩٢٠) / أدب رحلات
الشيخ محمّد رشيد رضا (صاحب المنار) / مؤلّف ، [حرّرها وقدّم لها : زهير أحمد ظاظا]
الطبعة الأولى ، ٢٠٠١





دار السويدي للنشر والتوزيع
أبو ظبي ، ص. ب : ٤٤٤٨٠
الإمارات العربيّة المتّحدة ،
هاتف : ٦٣٢٢٠٧٩ ، فاكس : ٦٣١٢٨٦٦

المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي :
بيروت ، ساقية الجنزير ، بناية برج الكارلتون ،
ص.ب : ٥٤٦٠-١١ ، العنوان البرقي : موكيّالي ،
هاتفاكس : ٧٥١٤٣٨ / ٨٠٧٩٠١

التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
عمّان ، ص.ب : ٩١٥٧ ، هاتف ٥٦٠٥٤٣٢ ، هاتفاكس : ٥٦٨٥٥٠١
E-mail : mkayyali@nets.com.jo

التنفيذ والإشراف الفنّي :
سكتشر ®
الخطوط وتصميم الغلاف :
منير الشعراني / مصر
الصفّ الضوئي :
القرية الإلكترونيّة / أبو ظبي + مطبعة الجامعة الأردنيّة / عمّان
التنفيذ الطباعيّ :
سيكو للطباعة والنشر / بيروت ، لبنان

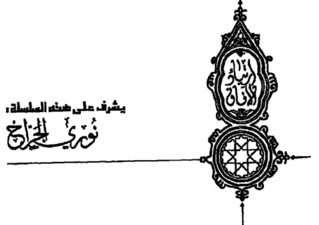


1908 - 1920

الشيخ محمّد رشيد رضا

صاحب المنار

حرّرها وقدّم لها: زهير أحمد ظاظا


ارتياد الآفاق
يشرف على هذه السلسلة:
نوري الجراح

«قلت مرة لعبد الرحمن أفندي الكواكبي (رحمه الله) لو تيسر لنا أن نجعل بعض محبي الإصلاح المعتصمين بالكتاب والسنة شيوخاً للطريق لأمكن لنا بذلك هداية العامة بسهولة ولكن هؤلاء المصلحين قليلون ولا يكاد أحد منهم يرضى بأن يكون شيخاً لطريقة من الطرق . فقال إننا قد جربنا ما ذكرت فأقنعنا رجلاً من الصالحين المستنيرين في حلب بأن يكون من شيوخ الطريق فيرجع العامة عن بدعهم وخرافاتهم ويهديهم إلى طريق الدين السويّ فقبل بعد إباء ونفور فلما رأى إقبال العامة عليه واعتقادهم صلاحه وبركته فتن بذلك وجاراهم في اعتقادهم فكانوا سبباً لضلاله بدلاً من أن يكون سبباً لهدايتهم وخسرناه خسارة لا مطمع في رجوعها» .

من متن الرحلة ، صفحة (37)

«علمت أن أمين صندوق البلاط الملكي (محمود الحلبي) سرق دفتر يومية البلاط وأن فيه قيوداً لما كان يبذله لإعانة العصابات وأمثال ذلك من النفقات الجنونية . وأن صفوة باشا العوا ناظر الخزينة الخاصة أراد أن يحقق وبدأ باستنطاق من هنالك ليلة الجمعة السابقة التي سرق فيها الدفتر (أي 2 يوليو) فحال إحسان بك الجابري رئيس الأمناء دون استمرار التحقيق وفرّ الجاني ولم يبحث عنه أحد ، ولا يختلف اثنان في أنه أعطى الدفتر للفرنسيين وقد سرق مثل هذا الدفتر قبل الآن عندما كان صفوة باشا في مكة المكرمة كما أخبرني هو نفسه» .

من متن الرحلة ، صفحة (201)



تَهْدُفُ هذه السّلسلةُ بَعْثَ واحدٍ من أعرقِ ألوانِ الكتابةِ في ثقافتنا العربية ، من خلال تقديم كلاسيكيّاتِ أدبِ الرِّحلةِ ، إلى جانب الكشف عن نصوصٍ مجهولةٍ لكتاب ورحّالة عربٍ ومسلمينَ جابوا العالم ودوّنوا يوميّاتهم وانطباعاتهم ، ونقلوا صوراً لما شاهدوهُ وخَبِروهُ في أقاليمه ، قريبةً وبعيدةً ، لاسيما في القَرنين الماضِيين اللذين شهدا ولادة الاهتمام بالتجربة الغربية لدى النُّخب العربية المثقفة ، ومحاولة التعرّف على المجتمعات والنّاس في الغرب ، والواقع أنه لا يمكن عزل هذا الاهتمام العربي بالآخر عن ظاهرةِ الاستشراق والمستشرقين الذين ملؤوا دروبَ الشّرقِ ، ورسموا له صوراً ستملأ مجلدات لا تُحصى عدداً ، خصوصاً في اللغات الإنكليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية ، وذلك من موقعهم القوي على خارطة العالم والعلم ، ومن منطلق المستأثر بالأشياء ، والمتهيىء لترويج صور عن «شرق ألف ليلة وليلة» تغذّي أذهان الغربيين ومخيّلاتهم ، وتُمهّدُ الرأي العام ، تالياً ، للغزو الفكري والعسكري لهذا الشرق . ولعل حملة نابليون على مصر ، بكل تداعياتها العسكرية والفكرية في ثقافتنا العربية ، هي النموذجُ الأتمُّ لذلك . فقد دخلت المطبعة العربية إلى مصر مقطورة وراء عربة المدفع الفرنسي

لتؤسس للظاهرة الاستعمارية بوجهيها العسكري والفكري .

على أن الظّاهرة الغربية في قراءة الآخر وتأويله ، كانت دافعاً ومحرضاً بالنسبة إلى النخب العربية المثقفة التي وجدت نفسها في مواجهة صور غربيّة لمجتمعاتها جديدة عليها ، وهو ما استفز فيها العصب الحضاري ، لتجد نفسها تملك ، بدورها ، الدوافعَ والأسبابَ لتشدّ الرحال نحو الآخر ، بحثاً واستكشافاً ، وتعود ومعها ما تنقله وتعرضه وتقوله في حضارته ، ونمط عيشه وأوضاعه ، ضاربة بذلك الأمثال للناس ، ولينبعث في المجتمعات العربية ، وللمرة الأولى ، صراع فكري حاد تُسْتَقْطَبُ إليه القوى الحيّةُ في المجتمع بين مؤيد للغرب موالٍ له ومتحمّسٍ لأفكاره وصياغاته ، وبين معادٍ للغرب ، رافض له ، ومستعدٍّ لمقاتلته .

وإذا كان أدب الرحلة الغربي قد تمكن من تنميط الشرق والشرقيين ، عَبْرَ رسمِ صور دنيا لهم ، بواسطة مخيِّلةٍ جائعةٍ إلى السِّحري والأيروسيّ والعجائبيّ ، فإن أدب الرحلة العربي إلى الغرب والعالم ، كما سيتّضحُ من خلال نصوص هذه السلسة ، ركّز ، أساساً ، على تتبع ملامح النهضة العلميّة والصناعيّة ، وتطوّر العمران ، ومظاهر العصرنة ممثلة في التطور الحادث في نمط العيش والبناء والاجتماع والحقوق . لقد انصرف الرّحالة العرب إلى تكحيل عيونهم بصور النهضة الحديثة في تلك المجتمعات ، مدفوعين ، غالباً ، بشغف البحث عن الجديد ، وبالرغبة العميقة الجارفة لا في الاستكشاف فقط ، من باب الفضول المعرفي ، وإنما ، أساساً ، من بابِ طَلَبِ العلم ، واستلهام التجارب ، ومحاولة الأخذ بمعطيات التطور الحديث ، واقتفاء أثر الآخر للخروج من حالةِ الشّلل الحضاريّ التي وجد العرب أنفسهم فريسة لها .

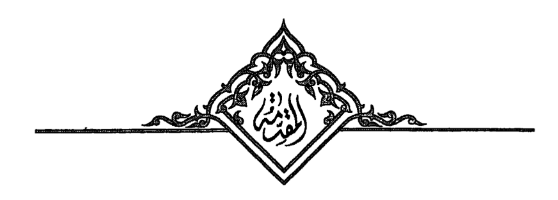
هنا ، على هذا المنقلب ، نجُد أحد المصادر الأساسية المؤسِّسة للنظرة الشرقية المندهشة بالغرب وحضارته ، وهي نظرة المتطلّع إلى المدنيّة وحداثتها من

موقعه الأدنى على هامش الحضارة الحديثة ، المتحسِّر على ماضيه التليد ، والتَّائق إلى العودة إلى قلب الفاعلية الحضارية .

إن أحد أهداف هذه السّلسلة من كتب الرحلات العربية إلى العالم ، هو الكشف عن طبيعة الوعي بالآخر الذي تشكَّل عن طريق الرحلة ، والأفكار التي تسرَّبت عبر سطور الرَّحالة ، والانتباهات التي ميَّزت نظرتهم إلى الدول والناس والأفكار . فأدب الرحلة ، على هذا الصعيد ، يشكِّل ثروةً معرفيَّةً كبيرةً ، ومخزناً للقصص والظواهر والأفكار ، فضلاً عن كونه مادة سرديّة مشوّقة تحتوي على الطريف والغريب والمُدهش مما التقطته عيون تتجوّل وأنفسٌ تنفعل بما ترى ، ووعي يلمُّ بالأشياء ويحلِّلها ويراقب الظواهرَ ويتفكَّرُ بها .

أخيراً ، لابد من الإشارة إلى أن هذه السّلسلة التي قد تبلغُ المائة كتابٍ من شأنها أن تؤسس ، وللمرة الأولى ، لمكتبة عربية مستقلّة مؤلّفة من نصوص ثريَّة تكشف عن همّة العربيِّ في ارتيادِ الآفاق ، واستعداده للمغامرة من بابِ نَيل المعرفةِ مقرونةً بالمُتعةِ ، وهي إلى هذا وذاك تغطي المعمور في أربع جهات الأرض وفي قارّاته الخمس ، وتجمع إلى نشدان معرفة الآخر وعالَمه ، البحث عن مكونات الذات الحضارية للعرب والمسلمين من خلال تلك الرحلات التي قام بها الأدباء والمفكرون والمتصوفة والحجاج والعلماء ، وغيرهم من الرَّحالة العرب في أرجاء ديارهم العربية والإسلامية .

محمد أحمد خليفة السويدي



المقدمة

في سيرته الذاتية التي كتبها بقلمه ونشرها في كتابه «المنار والأزهر» يقص علينا الشيخ محمد رشيد رضا خبر هجرته إلى مصر ملتحقاً بالإمام محمد عبده الذي كان قد زار بلاد الشام ووطد علاقته بالكثير من رجالاتها ومنهم محمد رشيد رضا فيقول : «ولما أردت السفر كتمت الخبر حتى لا يبلغ رجال الحكومة في طرابلس ، فأعطيت كل ما أريد حمله من متاع لفرح أنطون الأديب المشهور للاتفاق على أن نسافر معاً في باخرة واحدة . ولم أكاشف بهذا السفر إلا ناظر النفوس صديقي الشيخ صالح الرافعي والأمير شكيب أرسلان وعبد القادر أفندي القباني صاحب جريدة «ثمرات الفنون» أقدم الجرائد الإسلامية في سورية وكان صديق الأستاذ الإمام . ورافقني الأستاذ صالح الرافعي ناظر النفوس وليس معنا شيء يدلُّ على إرادتي السفر ، ولما تساءل رجال البوليس عني قيل لهم : هذا ضيف طرابلسي عند ناظر النفوس . ولما استقرت قدمي في الباخرة تنفست الصعداء وحمدت الله تعالى أن منَّ علي بالخروج من تلك البلاد وأنجاني من ذلك الوباء» .

وقصة هجرة رضا إلى مصر تمت إثر تعطيل «العروة الوثقى» عندما كرَّ محمد عبده راجعاً إلى بيروت ، وفي أثناء عودته هذه اتصل به محمد رشيد

رضا خلال وجوده في طرابلس واتفق معه على الالتحاق به في مصر . فلما سُمح لمحمد عبده بدخول مصر سنة 1306هـ 1888م راح الشيخ محمد رشيد رضا يعدّ العدة للسفر ، ولكن لم يتسنَّ له ذلك حتى سنة 1315هـ 1898م

وفي 16 آذار من السنة نفسها الموافق ل 22 شوال أصدر رضا أول أعداد «المنار» وكانت المجلة في سنتها الأولى أسبوعية ثم جعلها في سنتها الثانية شهرية . ثم أصبحت بداية السنة الهجرية بداية لسنتها منذ سنتها الخامسة عام 1902 - واعتباراً من السنة 1915 تقلص عدد صفحات «المنار» من 960 صفحة في السنة إلى 800 صفحة بحيث أصبحت سنتها عشرة أعداد - .

ولما أعلن الدستور العثماني سنة 1327هـ 1908 ميلادية زار بلاد الشام وكتب عن زيارته رحلتَه الأولى المنشورةَ في هذا الكتاب نقلاً عن مجلة «المنار» . ولما كان في دمشق يبث آراءه في مسجدها الكبير اعترضه في حديثه الشيخ صالح التونسي وعبد القادر الخطيب ، فكانت فتنة طارت أخبارها في الآفاق .

قال رشيد رضا : «فلما بلغتُ بعلبكَّ وحمصَ كان فيما سمعتُه أنه قام رجل في الجامع الأموي فأنكر القرآن ، وقال آخرون : إنه سب الأنبياء .

ثم عاد إلى مصر ، وشرع في الدعوة إلى مشروعه الأكبر الذي قال فيه : «وهذا هو المشروع الأعظم الذي هو المقصد الأول لي من الرحلة إلى الآستانة بل من الحياة كلها» .

- المنار المجلد 13 ص 748-852 عام 1910 -

كان ذلك مشروع تأسيس «دار الدعوة والإرشاد» ، وفي سبيله رحل إلى الآستانة في رمضان عام 1910 كما سنذكر لاحقاً .

وفور عودته من الأستانة شارك في تأسيس «جمعية الجامعة العربية» ، وقام هو بصياغة القسَم الإسلامي والقسَم القومي لها وفي عام 1913 قام برحلته إلى الهند ، فاستُقبل فيها استقبال الملوك ، وعرج أثناء رحلته هذه على مسقط والكويت والعراق ، ونشر وقائع رحلته في «المنار» المجلد 16 سنة 1913 .

وكانت الثورة العربية ، فرحل إلى الحجاز والتقى بالشريف حسين ، وجعل المنار منبراً لبث الدعوة إلى مبايعته - انظر المجلد 19 ص 256 و265 و435 و495 .

وخلفه على تحرير «المنار» أثناء رحلته الحجازية شقيقه صالح رضا ، ونشر وقائع رحلته الحجازية في المنار المجلد 19 سنة 1916- 1917 والمجلد 20 سنة 1917- 1918 .

واغتنم تلك الرحلة لأداء فريضة الحج ، وشهد وقائع إعلان الحكومة العربية الجديدة يوم الخميس السابع من ذي الحجة عام 1334 وألقى خطبة التهنئة يوم العيد ، وحظي بالدخول إلى الكعبة يوم الجمعة 15 ذي الحجة ، وكان اصطحب لأداء فريضة الحج والدته وشقيقته . وبعد عودته إلى مصر أعلنت الهدنة بين دول الأحلاف والدولة الألمانية .

قال : ومنّى نفسه كل من له أهل في سورية وكل من يهتم بشؤونها الاقتصادية والسياسية أن يسافر إليها في أول فرصة . فكانت رحلته الثانية إلى بلاد الشام في ختام سنة 1337هـ الموافق 12 (سبتمبر) أيلول سنة 1919 . قال : «واتفق أن أعلن كلٌّ من دولتي إنكلترا وفرنسة عقب وصولي إلى الشام أنهما اتفقتا نهائياً على تنفيذ معاهدة (سايكس - بيكو) . . . . وجاءني في يوم الإثنين 11 محرم 17 أكتوبر 1919 شرطي بيروتي وقال لي : إذا كنت تحب أن تقابل القومسير السامي (مسيو جورج بيكو) فهو مستعد لمقابلتك . . . فذهبت وقابلته ومكثت معه من الساعة الحادية عشرة إلى ما بعد الظهر ، ودار الحديث بيننا في ثلاث مسائل - انظر تفاصيل ذلك في صفحات الرحلة - .

بعد هذا ذهبت إلى دمشق إجابة لطلب الأمير فيصل ، ثم عدت إلى بيروت في أول مارس سنة 1920 لإقناع وجهاء بيروت المنتخبين للمؤتمر السوري بالذهاب إلى دمشق لحضور جلسة المؤتمر التاريخية التي تعلن استقلال سورية ، وفي 4 مارس جاءني كتاب من مسيو مرسيه لوي يقول فيه بعد رسوم الخطاب : إن سعادة الجنرال غورو قد عين لكم 5 آذار الساعة 6 إفرنجي مساء ميعاداً لاستقبالكم في السراي - انظر تفاصيل ذلك الموعد في صفحات الرحلة -

وقُدِّر لرشيد رضا أن يكون المؤرخ اليومي لوقائع دخول غورو إلى دمشق وإقصاء فيصل عنها وما جرى بين ذلك من أحداث كما تراها مفصلة في الرحلة ، كان خلالها يتصرف كمسؤول أول عن مستقبل بلاد الشام ، يقترح على فيصل تعيين الوزراء ويقصده الوزراء للاستشارة في أحلك الظروف .

ولما نشب الخلاف بين أعضاء المؤتمر وبين الملك فيصل وبدرت من الملك فيصل كلمةٌ انتقص فيها من قدر رجال المؤتمر فكان فيما قال : أنا الذي أوجدته – أي المؤتمر – ردَّ عليه رشيد رضا بقوله : بل هو الذي أوجدك ، فقد كنت قائداً من قواد الحلفاء تحت قيادة الجنرال أللنبي فجعلك ملكاً لسوريا .

ولما طلب الملك فيصل من الوزارة إعداد جيش لمؤازرة أبيه ؛ فيما إذا نشبت الحرب بينه وبين ابن سعود ؛ استشارت الوزارة رشيد رضا في ذلك فأبى ، وترتب على ذلك رفض الوزارة لطلب الملك ، وكان قول رشيد رضا للوزارة : لو واتيتموه في ذلك لعجزتم عن التنفيذ .

وذلك كله لم يمنعه من الثناء على تواضع الملك فيصل وخصاله الحميدة وأخلاقه المتحضرة التي اكتسبها من معاشرة الأوربيين .

كان وزير الدفاع يوسف العظمة ووزير الخارجية الدكتور عبد الرحمن الشهبندر لا يصدران إلا عن رأي رشيد رضا لأنه هو الذي رشحهما لوزارة الأتاسي .

ويعترف رشيد رضا بأنه كان السبب في مقتل يوسف العظمة فيقول : «ولا بد لي من كتابة كلمة في هذه الخلاصة التاريخية بشأن يوسف بك العظمة ، الذي كنت معجباً بما أوتي من الذكاء والنظام ، والهمة والنشاط ، والوطنية وحسن السلوك ؛ منذ عرفته معتمداً للحكومة العربية في بيروت ، إلى أن عين وزيراً للحربية باقتراحي وسعيي مع بعض الإخوان ، استبد يوسف بالعمل في وزارة الحربية ، وكان يكتم أعماله حتى عن رئيس الوزارة ، بل يعمي الأمر إلا على الملك فيما أظن .

ولما اشتدت الأزمة سألته هل هو مستعد للدفاع؟ قال : نعم إذا وافق الملك ، وإذا خالفناه نخشى أن يلجأ إلى الأجانب ، ولما عين ياسين باشا الهاشمي قائداً لموقع العاصمة عقب الإنذار أظهر للوزارة ما فيها من النقص ، أي على خلاف ما كان يقول ، ثم إنه وافق الوزارة على قرار التسليم بما طلب غورو .

بعد هذا كله رأيته في بيت الملك مع الوزارة ، فكلمته وحده كلاماً شديداً ، وذكرته ببعض كلامه ، فقال ووجهه ممتقع كوجه الميت : إنني مذنب وأتحمل تبعة عملي ، وكدت البارحة أنتحر من الغم فلا تزد علي .

ولما خرج إلى الدفاع بمن بقي معه من بقايا جيشه ، تزين ولبس ملابسه الرسمية

ووطن نفسه على الموت ، فكان شرفه الذي امتاز به أنه لم يقبل أن يعيش ذليلاً ، بل أراد أن يكفّر بدمه عن ذنب التقصير المبني على الثقة والغرور .

كان فشل هذه المدافعة بخان ميسلون أمراً جلياً ، لا يجهله مثله ولا مثلي ممن لا يعلم من الحرب شيئاً ، لذلك رغب إليّ الكثيرون أن أخطب في المتطوعين وفي بعض المساجد في الحثّ على الدفاع فامتنعت ، كما أبيت مراراً أن أخطب في الاحتفالات السياسية ، وقلت لبعض الخواص : إنني لا أغش أحداً ، ولا أستطيع أن أقول في هذا المقام ما أعتقد ، لأنه يضر الآن ولا ينفع ، وقد نصحت للعاملين في كل شيء في وقته فلم يفد ، على أن ما اندفعت إليه الأمة من أمر الدفاع شريف ولابد منه . - «المنار» المجلد 35 ص 760 -

بعد ذلك وجد رشيد رضا نفسه غارقاً في السياسة السورية وأحس بعمق المسؤولية ، وبحثاً عن مخرج لتجنب الانهيار الكامل راح يفتش بين شتى التيارات السياسية عن مخرج للأزمة السورية فشارك في تأسيس حزب الاتحاد السوري ورضي أن يكون فيه نائباً للرئيس وأن يكون الرئيس مسيحياً وهو الأمير ميشيل لطف الله .

وقررت لجنة حزب الاتحاد أن تدعو الجمعيات والأحزاب السورية إلى عقد مؤتمر سوري عام في جنيف مركز عصبة الأمم في 10 حزيران - يونيو - 1922 ثم أرجئ إلى أواخر شهر أغسطس ، وتقرر أن يكون رشيد رضا في صحبة الأمير ميشيل ، فكانت الرحلة الأوربية التي كتب رشيد رضا وقائعها ونشرها في «المنار»المجلد 23 عام 1922 ، وقد آثرنا نشرهذه الرحلة منفصلة إلى جانب الرحلات الأوروبية على ورغم ارتباطها الوثيق بالمسألة السورية .

تألف الوفد السوري من مختلف التيارات السياسية العربية على النحو التالي:

رئيس اللجنة المركزية لحزب الاتحاد السوري ومندوبها الأمير ميشيل لطف الله / رئيس

رئيس المؤتمر السوري العام في دمشق . ونائب رئيس الاتحاد السوري ومندوبه .
السيد رشيد رضا/ نائب رئيس

مبعوث سابق - رئيس الجمعية الإسلامية المسيحية في نابلس (فلسطين) مندوب المؤتمر الفلسطيني الممثل للأهالي المسلمين والمسيحيين .
الحاج توفيق حماد/ نائب رئيس

مبعوث سورية سابقاً - مندوب حزب الاستقلال العربي .
الأمير شكيب أرسلان سكرتير عام
عضو مجلس لبنان الإداري وسكرتير سابق لسلطان تركيا .

عضو /سليمان كنعان
مندوب حزب الاستقلال العربي ، حلب .

عضو /إحسان الجابري
عضو في الوفد العربي الفلسطيني ومندوبه - مستشار رئيس الوزارة في دمشق سابقاً - مفتش ملكي في السلطة العثمانية سابقاً .

عضو / أمين التميمي
رئيس اللجنة الفلسطينية بمصر ومندوبها .

عضو /وهبي العيسي
مندوب الوفد العربي الفلسطيني وسكرتيره وأحد أعضائه .

عضو / شبلي الجمل
مندوب حزب الاستقلال العربي .

عضو / رياض الصلح
مندوب حزب الاستقلال العربي .

عضو / نجيب شقير
مندوب الجمعية السورية الوطنية في بوسطن .

عضو / صلاح عز الدين
مندوب الحزب الوطني العربي في الأرجنتين .

عضو / طعان العماد
مندوب حزب تحرير سورية في نيويورك .

عضو / جورج سالم
مندوب حزب استقلال سورية ووحدتها في سانتياغو تشيلي .

عضو / توفيق اليازجي

بعد عودة رشيد رضا من أوربة إلى مصر ؛ لم تعد المسألة السورية من أولويات اهتماماته ، وقد زامن ذلك سقوط الخلافة العثمانية ، ونشوء دولة جديدة في نجد ، قلبت موازين الأحداث ، وزجت برشيد رضا في أتون ذلك الواقع ، الذي لم يسلم منه

واحد من أعيان الأمة ، وهو في كل ذلك يتابع إصداره لمجلة «المنار» إلى أن توفاه الله تعالى مساء يوم الخميس 23 جمادى الأولى سنة 1354 الموافق ل 22 أغسطس 1935 ورقد في مثواه الأخير إلى جوار قبر أستاذه ومعلمه الأستاذ الإمام محمد عبده .

وكان سبب موته المباشر تلك التنقلات المرهقة التي قضاها في مراسم استقبال الأمير سعود أثناء زيارته لمصر - لما كان يمني به نفسه من الاستفادة من تلك الدولة الفتية ومكانتها في العالم الإسلامي - حيث لم يرحم نفسه من استنزاف طاقته وهو المصاب بارتفاع ضغط الدم .

وبينما هو عائد من آخر لقاء مع الملك سعود لفظ أنفاسه الأخيرة وهو في السيارة التي كانت تقله في طريق السويس إلى القاهرة ، وكان معه فيها رفيقه إبراهيم أدهم بك!! - زوج حماة الأمير فيصل - وهو تركي لا يحسن العربية وزكي أفندي محمد ثنيان شقيق حرم سمو الأمير وهو شاب يافع - «المنار» مجلد 35 ص 160 -

توقفت «المنار» عن الصدور إثر فجيعتها بعاهلها مدة تزيد على ثلاث سنوات حيث تقدم لشرائها بعد ذلك المرشد العام للإخوان المسلمين حسن البنا .

ونعت «المنار» الشيخ محمد رشيد رضا مؤسسها وحامل لوائها طوال أربعين عاماً إثر وفاته مساء يوم الخميس 32 جمادى الأولى 1354 الموافق ل22 أغسطس 1935

واسمه الكامل محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن منلا علي خليفة القلموني البغدادي الأصل ، الحسيني النسب ، بالكلمات التالية :

«إمام أئمَّة المفسرين ، المتقدمين منهم والمتأخرين غير منازَع وأحذق الأئمة المحققين ، السابقين منهم واللاحقين غير مدافَع زعيم أهل السنة العالمين العاملين وأنفذهم بصيرةً وأرسخهم عقيدةً وألدُّ خصوم البدعة وأبطشُهم يداً وأثبُتهم على قتالها قدماً علَم الهداية الخفَّاق وصوتها الرنَّان في الآفاق المتفاني في تحرير الشعوب الإسلامية ، ليس من البدع والخرافات والأوهام والضلالات فحَسْبُ بل منها ومن أغلال الاستعباد وقيود الاستبداد أخلصُ المخلصين للإسلام والمسلمين وعمدةُ الداعين إلى هَدْي الرسول الأمين» ولد الشيخ محمد رشيد رضا في جمادى الأولى سنة 1282 الموافق أكتوبر سنة 1865 في قرية القلمون على شاطئ البحر الأبيض

المتوسط من جبل لبنان ، والتي تبعد عن مدينة طرابلس الشام زهاء ثلاثة أميال .

في هذا الكتاب سيقيّض للقاريء أن يقف على أثر تاريخي سياسي لرحالة من طراز مختلف عني بتسجيل ما يدور في المكان السوري من وقائع تتصل بحال الأمة في فترة تعتبر الأخطر إطلاقاً في تاريخ المنطقة العربية في القرن العشرين .

زهير ظاظا

الرّحلة الأولى

بيروت



وافيت بيروت في السادس والعشرين من شهر شعبان وقد صحا الجمهور من نشوة الفرح بالدستور ، وثابوا إلى التفكير والتأمل بعد تلك الرياضة في روض الوجدان والشعور ، وكان مما يحمد عليه أهل بيروت ويذكرون به أنهم قد انتقلوا من خمول الاستبداد ، إلى نشوة السرور بالحرية ، ومن هذه النشوة إلى السكون والروية ، ولم يكن منهم غلوّ مذموم كما يحصل عادة في مثل هذا الانتقال بمقتضى قاعدة (رد الفعل) وقد اشتهر ما كان من تحوّل الضغائن والأحقاد بين المسلمين والنصارى منهم إلى المسالمة والوداد ، وكان المسلمون هم البادئين بهذا الخير ، كما كانوا في الغالب يبدءون وكما يقال بالشر .

ولقد رأيت فضلاء المسلمين في هذه الأيام مهتمين بأمرين عظيمين ، أحدهما مشترك بين جميع العثمانيين وهو ما تفكر فيه جمعية (الجامعة العثمانية) من إنشاء مدارس لتعليم جميع الطوائف وتربيتهم على الوحدة الوطنية أو نحو ذلك من الأعمال . ولا بد أن يكون فضلاء النصارى متفقين معهم على ذلك وإنما أسندت الاهتمام به إلى المسلمين عن علم وجعلت مشاركة النصارى لهم من قبيل الاستنباط العقلي لأنني لم أجتمع بأحد من علماء هؤلاء وفضلائهم فأعرف بالاختبار ما

يهتمون به من الأعمال في عصر الدستور إذ كان أهل العلم والفضل من المسلمين هم الذين استقبلوني في البحر وأكرموا مثواي في البر . وما كانت إقامتي بينهم إلا ثلاثة أيام ضاقت عن ردّ الزيارة لجميع الزائرين منهم ، ولو طال لتصديت للقاء أهل الرأي من غيرهم .

والأمر الثاني مما يهتم به المسلمون خاص بهم وهو ما توجهت إليه همة (الجمعية العلمية) من إحياء المدارس التي أسستها من قبل جمعية المقاصد الخيرية وكانت تدير نظامها شعبة المعارف التي قضى عليها الاستبداد فجعل هذه المدارس أثراً بعد عين . ولا أذكر ما سمعته من الآراء في إيجاد المال لهذه المدارس واختيار كتب التعليم لها بعد النظر فيما بين الأيدي منها وجلب مثله من مصر وإنما أرجو أن أكتب بعد قليل من الزمن من أخبار أعمال هذه الجمعية ما يحقق أفضل الآراء وأنفعها .

رأيت مسلمي بيروت مستعدين لقبول كل إصلاح ديني ومدني ورأيت فيهم نفراً من أهل الغيرة الملية والميل للأعمال التي تنهض بالأمة وترقي شأن البلاد وقد أحببت أن يكون لي حظ من معرفتهم وسعي في جمع صفوة أهل الإخلاص منهم ومكاشفتهم بما أراه من أصول الإصلاح وقد سرني من حديث من اجتمعت به منهم أنني رأيت التفاوت بينهم غير بعيد ، والخلاف بين طبقاتهم غير شديد ، والتنافس بين أهل الظهور لم يهبط إلى دركة الحسد ، ومقاومة الجامدين للإصلاح لم ترتق إلى درجة المقاومة .

والسبب في ذلك على ما ظهر لي أن أذكياء النابتة الذين يحبون الإصلاح لم يتربوا تربية أوربية تبعدهم من الدين وتشوه مدنية سلفهم في أعينهم وتحبب إليهم الانسلاخ من كل قديم ، وتزين لهم الافتتان بكل جديد ، كما فتن كثير من المتفرنجين في الأستانة ومصر وتونس ، ولم يتوسعوا في علم الكلام والفقه فيجعلوهما من فنون العربية كل المطلوب لارتقاء المسلمين ، ولم يحرموا منهما حرمان من يعادي الشيء لجهله به ، - وأن المشتغلين بالعلوم الدينية والفنون العربية لا يوجد كثير من المتقنين لها والبارعين فيها الذين يخشى أن يكونوا زعماء قادرين على تأليف العصبيات لمقاومة الإصلاح كما هو شأن رجال الدين الجامدين في كثير من بلاد المسلمين .

ونتيجة هذا أن قلة اشتغال مسلمي بيروت بالكتب الإسلامية المتداولة وعدم

افتتانهم بالتفرنج قد جعل نفوسهم مستعدة للإصلاح الذي لا يرتقي المسلمون بدونه وهو الجمع بين هداية الكتاب والسنة وبين العلوم والمعارف العصرية بغير معارضة قوية .

رأيت من النابتة العصرية من يقول يجب علينا أن نعمل بمعزل عن الشيوخ الجامدين ولا نبالي بهم رضوا أم سخطوا ، ومن يقول لا بد من مقاومتهم والقضاء على نفوذهم ، ومن يتوسط فيقول بوجوب مسالمتهم ومداراتهم والاستعانة بمن لان جانبه منهم ، والمرجح عندي أن العاملين في بيروت لا يجدون مقاومة يعتدُّ بها ، وأحوج ما يحتاجون إليه المال والزعيم الذي تجتمع عليه القلوب ومتى وجد أصحاب الهمم من الرجال ، سهل عليهم إيجاد المال ، والزعيم إنما يشترط لإتقان العمل وكماله فلا يتعذر على أهل الغيرة الابتداء مع فقده . ومتى تكونت الأعضاء تكوناً طبيعياً ثبت لها رأس طبيعي .

أما حكومة بيروت فهي سائرة في طريق النظام بهمة واليها ناظم باشا وحزمه ودرايته ولكن هذا الوالي لم يأت بعمل ما في ملحقات الولاية كما يعلم من الكلام الآتي عن طرابلس ولولا قرب عهده بالمجيء إلى الولاية لقلنا أن حسن حال الأهالي هو الذي حسَّن حال الحكومة في مدينة بيروت فهو لا يدل على فضله ولا يقوي الرجاء في إصلاح حال الولاية بحسن إدارته ولكنه لقرب عهده لما يتمكن من تنظيم إدارة داره فلا مجال للومه .

طرابلس الشام



وافيت هذه البلدة وقد أهوت شمس يوم الجمعة (وهو التاسع والعشرون من شعبان) إلى الغروب والناس يرقبون غروبها ورؤية هلال رمضان بعده فأقبلوا يستهلون فبدا الهلال لعين واحد منهم فحكم القاضي بشهادته وأصبح الناس من ليلتهم صائمين .

مكثت في دار صديقي الصدّيق الشيخ محمد كامل الرافعي أسبوعا كاملا استقبل وفود الزائرين المهنئين من العلماء وعمال الحكومة والوجهاء ورجال الجمعيات

الثلاث : جمعية الاتحاد والترقي وجمعية الجامعة العثمانية والجمعية العلمية . وقد ظهر لي مما دار بيني وبين صفوة الناس من الطبقات العليا والوسطى أن استعداد مسلمي طرابلس للإصلاح الديني والمدني دون استعداد مسلمي بيروت .

ذلك بأن مسلمي طرابلس أكثر من أهل بيروت اشتغالاً بدرس كتب الفنون العربية الإسلامية التي وضعت منذ القرون الوسطى بعد انحطاط مدنية المسلمين وضعفهم في العلوم وهي مما يضعف الاستعداد لأنه يشغل الفطرة ولا يكملها فيكون عائقاً لها عما سواه كما أشرنا إليه في الكلام عن استعداد أهل بيروت وربما نوضحه في فرصة أخرى ، على أن أهل طرابلس قد قل اشتغالهم في السنين الأخيرة لحكم الاستبداد ، التي اضطهد بها العلم وكتبه أشد الاضطهاد ، هذا سبب معنوي من أسباب ضعف استعداد أهل طرابلس وسيعده أكثرهم غريباً أو باطلاً بالبداهة محتجين بأن من كان أوسع علماً في فن أو علم ما كان أقوى استعداداً لغيره ، ولا محل هنا لدحض هذه الحجة أو إبطال هذه الشبهة . وثم سبب آخر وهو الفراغ والبطالة في طائفة كبيرة منهم وعدم المنافسة والارتقاء في العمل عند أكثر العاملين .

ومن الأسباب في ذلك قلة احتكاك أهل طرابلس بمن هم أرقى منهم في العلوم والأعمال من الأجانب والعثمانيين فإن طرابلس أصبحت كأنها بمعزل عن العالم المدني ، لا يهاجر إليها المرتقون في العلوم إذ لا مدارس ولا تعليم فيها ولا المرتقون في الأعمال التجارية أو الصناعية أو الزراعية إذ لا رجاء لأحد في الكسب منها .

ومنها ما هو أثر طبيعي لما قبله من عدم وجود الجرائد اليومية فيها وعدم وصولها الجرائد إليها من بيروت لأنها غير متصلة بها بسكة حديدية فالمقيم فيها لا يعرف شيئاً يعتد به من أحوال العالم .

من أجل هذا وذاك كانت حكومة طرابلس شراً من حكومة بيروت في وقت الاستبداد ، ولم تنل نصيباً من الإصلاح في زمن الدستور وقد كان إفسادها الماضي وضعفها الحاضر علة لكثرة الأشقياء فيها المستعينين بها على السلب والنهب والنيل من أعراض الناس ودمائهم فإن لهؤلاء الأشقياء زعماء يشترون ذمة كبراء الحكام ويشاركونهم بما يتمتعون به من أموال الناس وأعراضهم ويرضخون لأفراد الشرطة والزبانية بدريهمات يستعبدونهم بها فإذا رفعت على أحدهم قضية كفاه أمرها رجال

الحاكم فإذا جاء البلد حاكم جديد وحاول أن يقرر الأمن ويقيم ميزان العدل وأنفذ الشرطة إلى بعض هؤلاء الأشقياء المتهمين بالقتل والضرب أو السلب والنهب عادت إليه الشرطة قائلة أنهم قد فروا هاربين فلا يعلم مكانهم وإنما يكونون هم الذين لقنوها ما تقول .

حادثة الاعتداء علي وسببها



ما كنت لأذكر هذه الحادثة في المنار، لو لم تشتهر في الأقطار، ويظلم بها أهل طرابلس على الإطلاق ، حتى وجب علي أن أبرئ المظلومين ، وأبين سبب تقصير المقصرين .

حقيقة الحادثة أنني دخلت طرابلس باحتفال عظيم لم يسبق له نظير فيها فقد استقبلني عند الباخرة في البحر من أهل العلم والوجاهة ووفود من الجمعيات الثلاث : جمعية الاتحاد والترقي والجمعية العلمية وجمعية الجامعة العثمانية ، وكان في الانتظار على رصيف الجمرك في الميناء جماهير من جميع الطبقات وجوقة موسيقى أرسلتها جمعية الاتحاد والترقي فلما أقبل عليهم الزورق يحملنا مرفوعاً عليه العلم العثماني (أعزه الله تعالى) صدحت الموسيقى وبعد السلام على كثير من المستقبلين ذهبنا إلى موقف الترام الذي بين الميناء والبلد فإذا بمركبة كبيرة من مركبات الترام معدة لنا من قبل جمعية الاتحاد والترقي فتبوأناها مع خواص أعضاء الجمعيات وجوقة الموسيقى في مقدمتها والناس من حولها يطلقون البارود . فوقفت في نافذة من نوافذ المركبة وشكرت للقوم أريحيتهم وسارت المركبة حتى إذا ما بلغت الموقف من البلد استقبلنا فيه جمهور آخر وسرنا حتى إذا كنا بالقرب من الدار التي نؤمها في أشهر شوارع البلد وأسواقها فاجأنا شقي من أولئك الأشقياء الذين أشرنا إليهم اسمه (كامل المقدم) فقال : أين هذا الذي تسلمون عليه؟ فعرفني بالقرينة فضربني بعصا في يده وقعت على جانب رأسي ثم رفعها ثانية وأهوى بها فتلقاها الشيخ محمد كامل الرافعي وكان عن يساري في مقدمة الناس . فأخرج الشقي مسدّساً وأطلق منه رصاصة واحدة اعتقدت أنه يريد قتلي واعتقد الجمهور ذلك فيما

يظهر فإنهم أرجعوني وأحدقوا بي وأرادوا إدخالي لأحد البيوت المجاورة لذلك المكان . وتقدم إليه أكثر من واحد منهم فطردوه ثم استأنفنا السير إلى دار الرافعي وكانت قريبة منا وهنالك أخبرني القوم بالمعتدي وأنه (ابن عبد الرحمن أفندي المقدم) الذي كان يجلني وأنا طالب علم أشد الإجلال على ما كان عليه رحمه الله من كبرياء حتى أنه كان يستقبلني ويشيعني عند الباب .

ذلك أنه كان قد اعتدى على إخوتي من قبل بإيعاز عصبة من تلك العصب التي أشرنا إليها (والشر داعية الشر) فالظاهر أن تلك العصبة ثقل عليها أن يعتز من اعتدت عليهم بأخ لهم لأنها تحب أن يكون شرها دائماً لا ينقطع . وقد رأيت جميع الناس من جميع الطبقات يعتقدون ذلك ولولا هذا الاعتقاد لأظهروا استياءهم ولقامت قيامتهم على هذا الشيخ البالي من حكومتهم على عدم ثقتهم بها بل لاستنهضوا همة حكومة الولاية إلى معاقبة ذلك المعتدي الذي عدوا جريمته إهانة لهم كلهم أي إهانة لأهل البلد لأنه أساء إلى المئات من فضلائهم بالتعدي على الضيف الذي يحدقون به تعظيماً له وتكريماً ، وقد سمعت من الناس وعنهم ما جزمت به وأيقنت بأن الاستياء العام كان شديداً وأن بعض أهل الجرأة جهروا لزعماء عصبة ذلك الشقي وله بسوء هذا العمل ومقت الناس لهم لأجله وحدثني بعض الكبراء والمتوسطين أن أولئك الزعماء أقسموا جهد أيمانهم بأن هذا الأمر لم يكن بإيعاز منهم وأنهم وبخوا الشقي الفاعل وكادوا يطلقون عليه الرصاص!! ولكنهم مع هذا يهددون من دعتهم الحكومة للشهادة ليكتموها أو يحرفوها ويخفون الشقي عن عين الحكومة ويطلبون المصالحة قبل القبض عليه!!!

هذا هو السبب في سكوت جمهور أهل طرابلس وإغضائهم على القذى ولو وثقوا بحكومتهم وأمنوا بقوتها شر تلك العصبة لأظهروا سخطهم لها وللناس قولاً وكتابة فهم معذورون في سكوتهم . على أن فيهم من تحمس ليذهب بوفد إلى الولاية ليخاطبوا الوالي في الأمر فلم أرض بذلك ، ومن شجعانهم من تمنى لو كان حاضراً لينتقم من المعتدي عند الاعتداء .

أقول هذا جواباً لأولئك الفضلاء الأخيار الذين كتبوا إلينا من بيروت ولبنان والشام ومصر يقولون اترك (فيحاء الأشقياء) تنعى من بنى أول حجر فيها وارحل إلينا

حيث تلقى من الكرامة كيت وكيت ، ويقولون لو كنا معك لعلمنا أهل طرابلس كيف يوجد من عارفي قدرك من يفديك بدمه .

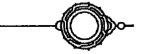
وكتب إليّ صديقي رفيق بك العظم ينصح لي بأن أقضي بقية إجازتي في بيروت ودمشق وحمص وحماه . وقد تحمس أهل النجدة من بيروت وائتمروا بينهم ليرسلوا وفداً منهم يحضرني من طرابلس وعصبة من الشجعان لينتقموا لي من المعتدين بالقوة إذا كانت الحكومة عاجزة عن ذلك أو متهاونة فيه وكتب إليّ أكثر من واحد يستشيرني أو يستأمرني بذلك وقد تطوع نحو خمسين رجلاً من فدائية بيروت (الأبضايات) بذلك فكتبت إلى بضعهم أنه لا حاجة إلى ذلك وأنني في طرابلس عزيز كريم .

أراد ذلك الشقي أن يحط من قدري غلواً في الانتقام من إخوتي ، فكان عدوانه مزيداً في كرامتي ، وإهانة له ولعصبة الأشرار ، في القرى والأمصار والأقطار ، بل إهانة لأهل بلده الأخيار منم والفجار ، فقد طار البرق بالحادثة منذ تلك الليلة إلى بيروت ونشر الخبر في جرائدها فعلم به الناس في سوريا ولبنان ومصر فطفقوا يذمون طرابلس وأهلها قولاً وكتابة وقد نقل ذلك إليها كثير ممن كان من أهلها في بيروت . وتلك سنة الله : رجل يهين أمة ، ورجل يشرف أمة . كما أطروني برسائل البرق والبريد وتحدثوا بخدمتي الصغيرة للإسلام وللدولة والملة فكبروها تكبيراً بمثل البرقية التي وردت إلي من شيخين من أشهر أهل العلم والأدب في مضر ونصها (نهنئ العلم والدين بنجاة ركنهما الركين) ومثل البرقية التي وردت من فاضلين من أشهر أهل بيروت علماً وأدباً ونصها (الهناء لكم ولنا وللمسلمين بسلامتكم التي تهمنا جميعا) وهنالك برقيات كثيرة بهذا المعنى من بلاد كثيرة منها برقية بإمضاء بضعة عشر رجلا وهم خيرة أهل بيروت ولا تسل عن رسائل البريد ، وما فيها من الإطراء والتنديد .

وليست الرسائل الواردة بما ذكر كلها من المسلمين بل منها جاء من فضلاء النصارى فكانت الحماسة فيها أشد ، ولسان الإطراء والقدح أحد ، كرسالة صديقنا نقولا أفندي شحاده من زحلة التي يتمثل فيها بقول السيد المسيح عليه السلام الذي معناه أنه لا يهان نبي إلا في قومه وبلده ، ورسالة صديقنا رئيف أفندي شدودي من

جونيه الذي تمنى فيها كما تمنى كثير من أهل بيروت لو كان معي وقت الحادثة فيري أهل طرابلس كيف يفديني بدمه (حماه الله) فأشكر لجميع أولئك المهنئين أريحيتهم وفضلهم وأكرر لهم الاعتذار عن أهل طرابلس في المنار كما اعتذرت عنهم فيما كتبته إلى الكثير من المهنئين ، وأصرح لهم بأنهم لم يقصروا في الحفاوة بل بالغوا وأغرقوا حتى كنت أخجل مما أسمعه من شيوخ العلم وكبار الوجهاء ، من جمل الثناء والإطراء ، مثل : بيضت وجوهنا بيض الله وجهك ، (شرفت بعملك سوريا والعرب) أحييت بخدمتك العلم والدين ، عملت للدولة وكيت وكيت . حتى قال لي أحد العلماء إن هذا المجد الذي نلته لم ينله أحد من أهل طرابلس فيها . وقال لي أحد أدباء النصارى إن الناس يستقبلونكم أيها الأحرار كما يستقبلون الفاتحين ، لا كما يستقبلون الأعزاء الغائبين . وإنني أشهد قراء المنار على نفسي بأنني لا أستحق هذا الثناء والإطراء ولا بعضه ، وأنني ذكرت منه ما ذكرت وأنا في خجل شديد ولولا قصد تبرئة أهل وطني الذي ربيت فيه مما جناه عليهم ذلك الشقي المسكين لما ذكرت ما ذكرت من الإشارة إليه . وسأذكر في رسالة أخرى ما كان من اهتمام دولة الوالي بالحادثة وما كان من أثر ذلك .

ومن آيات رضى أهل طرابلس عن هذا العاجز دعوة الكثيرين من أهل الرأي والمكانة منهم إياه لترشيح نفسه لمجلس المبعوثين وتصريحهم في الملأ بأنه أجدرهم بذلك . ولكنني لم أترك ما عندي من اليقين بعجزي لحسن ظنهم بي ولذلك كنت أعتذر لكل داع بما أرى أنه يقبله مني .



طلاب العلم الاستقلالي بطرابلس

وقد سرني في طرابلس سروراً عظيماً أن رأيت فيها فئة من طلاب العلوم الدينية يرغبون عن التقليد ويذمونه ، ويميلون إلى الاستقلال في العلم وينتحلونه ، ويعترفون بأن حياة الدين إنما تكون بالرجوع إلى الكتاب العزيز والسنة الصحيحة ، وترك ما عداهما من الآراء الكثيرة ، رأيت هؤلاء وذاكرتهم بعد أن كتبت ما تقدم من المقابلة بين أهل طرابلس وأهل بيروت ولم أر مثلهم من الطلاب في بيروت ولكنني أظن أنه

يوجد فيهم من هم على هذه الشاكلة وربما كان عددهم أقل لأن الطلاب في طرابلس أكثر .

وقد رغّبت من لقيت من هؤلاء الطلاب في العلوم الرياضية والطبيعية والفلسفية العصرية ، فألفيت آذانا واعية وقلوباً راغبة وأذهاناً مستعدة ، ولكن وسائل العلم غير متيسرة لهم الآن وربما لا يتيسر السعي له إلا بعد حين من الزمن . ولهذا لم أرجع بعد لقيّ هؤلاء النجباء عن رأيي في ترجيح استعداد مسلمي بيروت للعمل على استعداد مسلمي طرابلس وإن كان الكلام عن هؤلاء الطلاب نوع من الاستدراك على ما تقدم .

الجمعيات في طرابلس



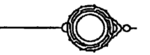
ألف أهل طرابلس ثلاث جمعيات غير فرع جمعية الاتحاد والترقي كما فعل أهل بيروت . الأولى جمعية الجامعة العثمانية ولها ناد يجتمع فيه أعضاؤها وهم الآن يفكرون في عمل مالي يكون لهم منه ريع يمكنهم من الخدمة النافعة للبلاد التي توثق بها عرى الجامعة العثمانية وما أظن أن ذلك ميسور لها الآن ففائدتها محصورة في اجتماع أعضائها في ناديها فنقترح عليهم أن يطالعوا فيها الكتب النافعة التي تغذي العقول وترقي الأفكار والآداب ككتب التربية والأخلاق والمجلات العلمية ، وأن يتمرنوا فيه على الخطابة في السياسة والآداب وشؤون الاجتماع والعمران ، وأن يكون لهم في كل شهر مناظرة في مسألة علمية أو سياسية أو اجتماعية ، فبذلك تكون جمعيتهم نافعة منذ اليوم ، فإن تيسر لهم بعد ذلك جلب المال وإنفاقه على عمل من الأعمال ، كانوا به أبصر ، وعليه أقدر .

والثانية الجمعية العلمية ورأيت بعض أعضائها يتحدثون بجعل تعليم الفنون العربية والعلوم الشرعية بطريقة منتظمة في مدرسة كبيرة يتخرج فيها المستعدون للتدريس والقضاء الشرعي والمحاماة . ويقول آخرون منهم إن إنشاء هذه المدرسة لا يكون إلا بمال كثير ، وهو عسير علينا غير يسير ، على أنهم لو وجهوا همتهم إلى جمع المال لتيسر لهم جمع مقدار يكفيهم لاستئجار دار يعلمون فيها ، وأكثر الشيوخ لا يسألون على التعليم أجراً ، والطلاب هم الذين يشترون الكتب لأنفسهم ، وليس من

مقاصد الجمعية تعليم العلوم الطبيعية التي يتوقف تعليمها على الآلات والمعلمين بالأجور فتحتاج إلى المال الكثير ، ولكن أعضاء الجمعية مختلفون في الأمر وهو غير عظيم ، فبعضهم يشعر بهمة في نفسه تصغر له الكبير ، فيرميه الآخرون بالغرور والتغرير ، ولعلهم يشرعون في التعليم بالطرق المستحدثة والكتب المختارة ولو في المساجد إلى أن يتيسر لهم ولغيرهم من المسلمين تحويل معظم الأوقاف الخيرية للتربية والتعليم ، وعسى أن لا يكون ذلك بعيداً .

وأما الجمعية الثالثة فقد أطلق عليها اسم الجمعية الخيرية ، والذي يفهمه القراء من هذا الاسم أنها جمعية تجمع الأموال لإعانة الفقراء والعجزة ، ولكن الذي وصل إلينا من خبرها أنها شركة مالية أسسها بعض الأغنياء لأجل استغلال أموالهم بالأعمال الكبيرة التي يرجى ربحها ، وسمعت كثيرين من أعضاء الجمعيات الأخرى يطلقون على مؤسسي هذه الجمعية أو الشركة لفظ (حزب التقهقر) ويقولون أن أكثرهم من الذين عزلوا بعد إعلان الدسور لخيانتهم وفسادهم في الحكومة الماضية أو استقالوا لعلمهم بأنهم لا بد أن يعزلوا إن لم يبادروا بالاستقالة . ويقولون أنهم أعداء الدستور ويطعنون دائماً بجمعية الاتحاد والترقي ويكابرون أنفسهم فيدعون أنها لم تعمل عملاً . وقد ذكر لي اسم ثلاثة منهم لم أسمع من أحد منهم شيئاً مما يحكونه عنهم ، ولكنني سمعت من شابين من حملة الأقلام كلاماً صريحاً وتهكماً شديداً في ذلك ، وقيل لي أن هذين الشابين من أعضاء هذه الجمعية أو أنصارها وربما كانا لسان الجمعية الناطق وقلمها الكاتب .

وفي هذا المقام أشكو مما سمعت في طرابلس من طعن الناس بعضهم ببعض حتى في المحافل والأندية العامة ، وأرجو أن يفتح الله لهم في أيام الدستور من الأعمال ، ما يشغلهم عما يضر ولا ينفع من الأقوال .



العمران في طرابلس

رأيت داخل طرابلس على ما تركتها عليه منذ إحدى عشرة سنة كأنه لم يتبدل ولم يتحول فيها شيء ، حتى خيل لي أن ما رأيته في الدكاكين ومخازن التجار هو

الذي تركته فيها بعينه ، وقلما رأيت أحداً ممن أعرفهم انتقل من دكانه سواء كان مالكاً أم مستأجراً . وأما ضواحي البلد فقد تجدد فيها دور وقصور كثيرة على عدم نموّ الثروة الطبيعية . فالزراعة لا تزال على حالها وعليها مدار معيشة السواد الأعظم . والصناعة كذلك على حالها في طرابلس منها ما يعد مصدراً لارتقاء ثروتها ، ولم تتصل بها سكك حديدية ترتقي بها تجارتها فأكثر الذين أثروا فيها هم من عمال الحكومة أكلة أموال الناس بالباطل .

شعائر الدين

لعل أهل طرابلس أشد أهل سوريا محافظة على شعائر الدين من صلاة وصيام ، وأبعدهم عن الجهر بالمعاصي ، وحسبك من هذا أن صاحب قهوة أحضر في هذه الأيام بعض النساء الراقصات ليروج بها قهوته فقامت قيامة أهل العلم من المسلمين عليه ، وتعصب لهم الجمهور حتى ألزموا الحكومة بمنعه من ذلك .

القلمون



مكثت في طرابلس أسبوعاً زارني في أثنائه أكثر أهل القلمون وأخذوا يستعجلونني بالخروج إليها فلما كان يوم الموعد الذي ضربته لهم انقسم أهلها شطرين أحدهما جاء طرابلس لأجل أن يكون معي وأكثر أفراده من الشبان والكهول ، والآخر خرج لاستقبالنا مسافة ربع الطريق وثلثه ونصفه بين القلمون وطرابلس وأكثره من الشيوخ والنساء والأطفال والمسافة كلها ساعة ونصف .

كان عدد كثير من الشبان يحملون السلاح فطفقوا منذ خرجنا من طرابلس يطلقون بنادقهم ومسدساتهم في الهواء فرغبت إليهم أن يكفوا عن ذلك فامتثلوا حتى إذا ما وصلنا إلى الموضع المعروف بأبي حلقة ألفينا فيه نفراً من شبان طرابلس فحيونا بإطلاق البارود والرصاص في الهواء فأجابهم من معنا بمثل تحيتهم بل أحسن منها فلم أنكر عليهم ذلك لعلمي بأن العرف يقضي بتسجيل العار عليهم إذا لم يفعلوا . وكذلك فعلوا عندما أشرفوا من رابية (ظهر الرويسات) على القلمون لإيذان من بقي فيها بقدومنا وعندما وصلنا إلى دارنا أيضاً لأنه من قبيل سلام المفارقة . وقد ذكرت

هذا لأنه من العادات التي لم أكن أعرفها من قبل وسيأتي ذكر شيء آخر في معناه .

وكان من حفاوة أهل القلمون بي أن حمل بعض نسائها مجامر العود الهندي وغيره من البخور أمامي من طرابلس إلى القلمون وكان فيمن خرج للقاء ممن بقي فيها من يحمل المجامر أيضاً . وقد راعني وأثر في نفسي رؤية الأولاد الصغار من بنين وبنات في الخامسة والسادسة فما فوق يتعسفون الطريق ويتسلقون الروابي بين الأشواك والحجارة ، تبعوا في ذلك آباءهم وأمهاتهم وإخوتهم وأخواتهم وكان النساء يغنين ويزغردن ولهن في ذلك أغاني مناسبة للمقام ، وهذه العادة قديمة عند نساء البادية والقرى والبلاد التي لم يتسع نطاق الحضارة فيها . وقد ورد في هذا الباب أن النساء استقبلن رسول الله صلى الله عليه وسلم عند قدومه إلى المدينة وهن يضربن بالدفوف وينشدن الأناشيد ومنها قولهن :

طلع البدر علينا
من ثنيّات الوداع
وجب الشكر علينا
ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا
جئت بالأمر المطاع

وكان فيمن خرج للقائنا مسافة نصف ساعة شيوخ وعجائز في عشر التسعين وعشر المائة من السنّ وهم صائمون وصحتهم جيدة بل مشى إلى طرابلس أكثر من واحد من هؤلاء المعمرين . وأهل القلمون يعمرون لاعتدالهم في معيشتهم ورياضتهم الدائمة بالعمل في الأرض مع جودة الهواء والماء فالخمر لا تدخل القلمون ولا يشربها أحد من أهلها والفاحشة غير معروفة فيها ولله الحمد والمنة ، وهاتان الكبيرتان هما أفتك بصحة الناس من كل ما يأتيه الناس .

سألت رجلا من هؤلاء الشيوخ (هو الحاج علي طوط) عن سنه فقال : أربع وتسعون سنة[1] وهو يواظب على صلاة الفجر في المسجد غلساً وربما يجيئه قبل طلوع

---

(1) في الأصل (أربع وسبعون سنة) والتصويب من (الوراق) استناداً لكلام رشيد رضا بعد سطور

الفجر حتى في أوقات المطر والبرد كهذه الأيام . ويمشي عدة ساعات في النهار وهو صائم . وسألت رجلاً آخر (هو السيد عبد القادر علي) عن سنه فقال لا أدري ولكنه ذكر لي حكايات منها أنه كان ملّاحا في البحر فجاءه مرة علي طوط ليعمل معه عمل البحر فلم يقبله لأنه صغير لا يستطيع أن يحرك الجذاف . فالظاهر من هذا أنه يكبره بزهاء خمس عشرة سنة فهو قد ناهز العشرة الأولى بعد المائة أو جاوزها ولا يزال يصوم ويعمل في أرضه بالعزق وشيبه غير تام . فليعتبر بهذا بعض الشبان والكهول المتفرنجين في مصر وغيرها الذين يزين لهم الترف والتهاون بالدين ترك الصيام محافظة على الصحة!! ولو عقلوا لعلموا أن البطنة هي التي تفسد عليهم صحتهم حتى أن أكثرهم ليتناول الأدوية والعقاقير والمياه المعدنية لأجل إصلاح المعدة والمعي وتسهيل الهضم وهم في سن الشباب فماذا تراهم يفعلون إن شاخوا؟ على أنه قلما يشيخ منهم أحد!

ومما يفيد ذكره في هذا الباب : باب الاعتبار بحال الناس في الدين أن أهل القلمون كانوا بهدي بيتنا أبعد مسلمي بلادنا عن البدع كما أنهم أبعدهم عن المعاصي . ولما انتهى دور الإرشاد فيهم إليّ رأيت عندهم من البدع أنهم يوقدون السرج والشموع عند قبرين أحدهما قبر السيد محمد القصيباتي الحسني المشهور في المقبرة القديمة وهو أحد أجدادهم وأجدادنا من جهة الأمهات وثانيهما قبر بني حديثاً عند عليقة على شاطئ البحر كانوا يربطون بهذه العليقة خرقاً صغيرة يقتطعونها من ثيابهم الخلقة يسمونها آثاراً لأجل شفاء المرضى ، وكل هذا وذاك معروف في جميع البلاد . فما زالت أنهاهم وأعظهم حتى تركوا البدعتين نساء ورجالاً وصار من يزور القبور منهم يكتفي بالسلام عل الموتى والدعاء لهم والتفكر في الموت والآخرة كما هو المأثور .

وكان أكثر النساء من غير أسرتنا تاركات للصلاة وجاهلات بأحكامها وأحكام الطهارة وآداب الزوجية فجعلت لهنّ مكاناً أعظهن وأعلمهن به كما أعلم الرجال في المسجد فصلحت حالهن في زمن قريب وكن أسرع امتثالاً من الرجال . وكذلك كان يوجد رجال يتركون الصلاة ولا يحضرون الدرس في المسجد فكنت اختلف إليهم في بيوتهم وأذكر أنه استعصى واحد من البلداء الخاملين فأمرت الشبان فسحبوه سحباً ولكنه لم يواظب وأعيانا أمره فاكتفيت منه بوعد مكذوب . وكان فيها رجال يسرقون

الثمرات كثيراً وغيرها من المتاع قليلاً ، فندر ذلك ندوراً ، كأن لم يكن شيئاً مذكوراً ، وكان عمدتي في وعظهم وتعليمهم كتاب إحياء العلوم وكتاب الزواجر وشرح المنهاج فصار فيهم متفقهون في دينهم يستحضرون ما لا يستحضره كثير من العلماء المدرسين وكلهم من الفعلة والفلاحين والصيادين .

على هذا تركت القلمون عندما سافرت إلى مصر ولذلك قال أزهد الزاهدين ، وبقية السلف الصالحين ، العالم الأصولي السائح المعتبر الشيخ عبد الباقي الأفغاني رحمه الله تعالى : لو بقي رشيد في بلده يعلم الناس ويرشدهم لكان خيراً له من الذهاب إلى مصر حيث لا يستطيع أن ينفع كما ينفع هنا . قال هذا عندما ذُكر سفري له وهو لا يعلم أن قصدي بالسفر التصدي لإرشاد أعظم ، وتعليم أعم وأشمل .

ولما عدت إليها في هذه الأيام علمت أنه قد فتن كثير من أهلها فتركوا الصلاة واتصل بعضهم بالذين اعتدوا على بيتنا من أشقياء طرابلس فأغراهم هؤلاء بقطع الأشجار وشهادة الزور وإضاعة الحقوق وكادوا يجذبونهم إلى الخمر والفحشاء والقيادة . أغروهم بالمال وغروهم بأنهم يحمونهم من الحكومة وإن سلبوا ونهبوا وضربوا وقتلوا ، فسلسوا لهم وساعدوهم على نهب بيتنا ، وتقطيع الأشجار من بعض بساتيننا وكرومنا ، ونحمد الله أن كان هؤلاء المغرورون قليلين ، وإن كان أكثر الأهالي لهم ولمضليهم من الكارهين ، ونحمده أن جعل الشر أضعف من الخير .

عدت إلى هؤلاء الناس وهم قومي الذين أغار عليهم ما لا أغار على سواهم وكنت أظن أن ما لي من مثال الهداية والدين في نفوسهم قد صغر وتضاءل في هذه الفترة فإذا هو قد كبر وعظم حتى صار خيالياً مقروناً بشيء من الخرافات فقد كان الرجال والنساء والأطفال يفدون على دارنا ليلاً ونهاراً ومعهم الضعفاء والمرضى والمخدجون يلتمسون الشفاء مني باللمس والرُّقى وكتابة النشرات وما يعبرون عنه بالحرز والحجاب على أن في رجالهم من يعرف رأيي في ذلك فكنت أتلطف في بيان الحق لهم بقدر ما يسمح به المقام ويليق بحال المخاطب وأحثهم على المداراة الصحية والتداوي ومراجعة الأطباء عند الحاجة وقد سبق للمنار البحث في هذه المسائل والجمع بين الأحاديث الواردة في الرقى كحديث إقرار الذين رقوا الملدوغ بسورة الفاتحة وحديث وصف الذين يدخلون الجنة بغير حساب بأنهم لا يسترقون على أن إقناع

النساء بلباب الحق في هذه المسائل عسير ، ولا يتم ولو مع الإرشاد في زمن قصير ، ونسأل الله تعالى أن لا يجعلنا فتنة لأنفسنا ، ولا لمن يحسن الظن بنا .

قلت مرة لعبد الرحمن أفندي الكواكبي (رحمه الله) لو تيسر لنا أن نجعل بعض محبي الإصلاح المعتصمين بالكتاب والسنة شيوخاً للطريق لأمكن لنا بذلك هداية العامة بسهولة ولكن هؤلاء المصلحين قليلون ولا يكاد أحد منهم يرضى بأن يكون شيخاً لطريقة من الطرق . فقال إننا قد جربنا ما ذكرت فأقنعنا رجلاً من الصالحين المستنيرين في حلب بأن يكون من شيوخ الطريق فيرجع العامة عن بدعهم وخرافاتهم ويهديهم إلى طريق الدين السويّ فقبل بعد إباء ونفور فلما رأى إقبال العامة عليه واعتقادهم صلاحه وبركته فتن بذلك وجاراهم في اعتقادهم فكانوا سبباً لضلاله بدلاً من أن يكون سبباً لهدايتهم وخسرناه خسارة لا مطمع في رجوعها (راجع تفسير قوله تعالى [ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا] الآيات في الجزء الثاني من تفسير القرآن الحكيم أو في المنار)

عقدت في القلمون عدة مجالس للوعظ والتذكير قل من تخلف عنها من حاضري القرية فتاب الناس توبة يغلب على ظني أن أكثرهم صادق فيها ولا أخشى من الإصرار على الفساد إلا على نفر قليل من الموالين لبعض الأشقياء الغرباء الذين أشرت إليهم فيما سبق من القول . وقد ألفت لهم جمعية عنوانها قوله تعالى [وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان] وجعلت لها صلة بجمعية التعاون التي سعيت بتأسيسها في طرابلس .

دده وسائر الكورة



بدأت الوفود تفد من الكورة على القلمون للسلام علينا منذ اليوم الثاني من وصولنا إليها كرئيس دير البلمند ووجهاء البلاد من المسلمين والنصارى وقد نزل معظم أهل (دده) - وهي على قمة الجبل بإزاء القلمون على الساحل - بعد العشاء وهم يطلقون البارود من بنادقهم والرصاص من مسدساتهم ويهزجون بالأغاني فتلقاهم شبان القلمون في خارجها وأدخلوهم باحتفال يناسب ما هم فيه وقد قيل لي

أن من الرسوم المعتادة في ذلك أنه لو لم يخرج شبان القلمون للقائهم لما دخلوها لأن ذلك يعدّ من الإهانة في عرفهم . وعند وصولهم إلى دارنا تحلقوا أمامها وطفقوا يهزجون ويطلقون العيارات النارية إلى قريب من نصف الليل ثم انصرفوا مشيعين مشكورين وكان زعيمهم في هذا الاحتفال الأمير علي عبد الرحمن الأيوبي .

وجميع الأناشيد التي هزجوا بها مناسبة لمقتضى الحال ولعل أكثرها ارتجالي فإنه في الترحيب بالقادم (صاحب هذه المجلة) وفيها إطراء له بالأعمال السياسية والعلمية وقد ذكر بعض القوّالين المسلمين فيما أنشده عبارة معناها : لولاك يا فلان لما ارتفع شأن الإسلام فأجابه رفيق له من النصارى بعبارة معناها إنه ليس لكم وحدكم وأنه قد طبع لنا الإنجيل يعني بذلك إنجيل برنابا!! وقد أضحكتني هذه العبارة وأضحكت كل من سمع بها من العارفين بإنجيل برنابا . فحبذا هذه السذاجة مع هذا الاتفاق بين المسلمين والنصارى الذي حمدت عليه أهل دده حمداً جميلاً .

دمشق الشام



عدت في 23 رمضان إلى بيروت وفاء بوعدي لأصدقائي وللوالي فأقمت فيها أربعة أيام كنت ألقي في كل يوم منها درساً دينياً بعد العصر في أحد المساجد ، وفي اليوم الأخير استبدلت بالدرس خطبة سياسية في حظيرة الموقع العسكري إجابة لطلب الكثيرين .

وفي صبيحة الخميس 27 منه ركبت القطار الحديدي إلى دمشق الشام وهو قطار رديء الدرجة الأولى منه دون الدرجة الثانية من القطار الذي بين رياق وحمص ؛ فبلغ بنا محطة دمشق قبيل المغرب فإذا بانتظارنا صديقنا الكريم عثمان بك العظم وجمهور ممن نعرف ومن لم نعرف من المحبين العلماء والوجهاء ، نخص منهم بالذكر أعلم علماء الشام الأستاذ الأكبر بركة الوقت بقية السلف الصالح الشيخ عبد الرزاق البيطار والأستاذ العامل المجد الذي يقتل وقته كله في التدريس والتصنيف وتصحيح الكتب النافعة الشيخ جمال الدين القاسمي أدام الله النفع بعلمهما وعملهما .

نزلنا في دار عثمان بك فأقبل للسلام علينا فيها كثير من الوجهاء ، فرأينا من

أدبهم وحسن محاضرتهم ما ينطبق على ما هو مشهور عنهم ، وسمعنا منهم مذ الليلة الأولى أخباراً سيئة عن جمعية الإخاء العربي التي أسست في الأستانة قال بعضهم : إنها أسست بإيعاز من السلطان لتكون عضداً له وعوناً على جمعية الاتحاد والترقي ، وقال آخرون : إنها (ضد الترك) وقالوا : إن ندره بك المطران جاء الشام ليدعو إلى هذه الجمعية ، وهو يذم الترك ويدعو الناس إلى العصبية الجنسية العربية وينفر من جمعية الاتحاد والترقي . وذكروا أن سيرة بعض أعضاء هذه الجمعية غير محمودة وأن بعض أفرادها يحتقرون وجهاء البلد ويفطرون في رمضان جهراً وأن هذا مما يمهد السبيل لندره المطران ويجعل دسائسه مقبولة عند كثيرين .

هذا مخلص ما سمعته من أكثر من واحد وكنت أبين لهم ولغيرهم أن تنفير العرب من الترك مفسدة من أضر المفاسد وأننا في أشد الحاجة إلى الاتحاد بالترك والإخلاص لهم لأن مصلحتنا في ذلك ، على أننا أحوج إليهم منهم إلينا فمن يسعى إلى التفرقة بيننا وبينهم فهو عدو لنا ولهم فإن كان سعيه لهواه فهو شر الشياطين وإن كان سعيه لغيره فهو شر الأجراء الخائبين ولا عجب في صدور ذلك من بني المطران المفسدين .

نعم يجب على العرب أن لا ينسوا في اتحادهم بالترك أنفسهم ويتكلموا على غيرهم بل يجب عليهم مباراة إخوانهم في التربية التي تقتضيها حال العصر وتحصيل العلوم والفنون التي عليها مدار العمران ليكونوا يداً واحدة في إحياء الدولة وليقدروا على ترقية شأن بلادهم واستخراج خيراتها العظيمة ثم ليكونوا أهلا لإدارتها بأنفسهم إذا غلب في المستقبل حزب صباح الدين أفندي ابن أخت السلطان على غيره من الأحزاب التي ينتظر أن تتكون في الدولة وهو أي رأي صباح الدين أن تكون كل ولاية من ولايات الدولة مستقلة في إدارتها الداخلية ويعبر عن ذلك بعدم المركزية (Décentralisation) ويرى بعض علماء السياسة أنه لا بد في المستقبل من استقلال كل جنس بنفسه ويروى هذا الرأي عن نابليون وإذا صح هذا في المستقبل البعيد وكان الجنس العربي غير أهل للإدارة التي تقتضيها حال مدنية ذلك العصر الذي سيكون أرقى من عصرنا هذا –وإن قرب– وغير أهل لمشاركة سائر الأمم في السياسة العامة والحقوق المتبادلة بين الأجناس على أصول المساواة فكيف تكون حاله يومئذ؟

ألا نكون (لا قدر الله) تحت وصاية غيرنا من الأجناس المرتقية في العلوم والأعمال؟ ومن هو الجنس الذي يتولى هذه الوصاية؟ وكيف تكون سيرته فيها؟ يجب علينا أن نفكر في حالنا الحاضرة وفي مستقبلنا القريب ومستقبلنا البعيد وأن نعلم أن حسن المستقبل متوقف على ما قبله والنهاية أثر البداية ويجب أن يكون الأساس الذي نبني عليه في حاضرنا ومستقبلنا الإخلاص لدولتنا والاتحاد بالترك وسائر العناصر العثمانية ما دامت هذه العناصر متحدة مخلصة لها وأن نكون الآن من أشد الأعوان لجمعية الاتحاد والترقي على بث روح الدستور في جميع الطبقات ورقباء على الحكومة في سيرها وأعمالها حتى ترسخ فيها الديموقراطية وتسير بعد اجتماع المبعوثان على الأصول الدستورية .

هذا ما كنت أبثه من الأفكار في مثل هذا المقام واستطرد منه إلى بيان وجوب العناية بتأسيس المدارس لنشر التعليم الأهلي في جميع طبقات الأهالي وأن ذلك يتوقف على تأسيس الجمعيات الخيرية في كل لواء من ألوية كل ولاية لأجل تعليم أولاد الفقراء بغير أجرة وتعليم أولاد الأغنياء بالأجرة . ثم أنوه بالتعليم العالي والرحلة إلى حيث توجد إلى أن يوجد في كل ولاية مدارس عالية يستغنى بها عن الرحلة . وهذا ما كنت أقوله في كل بلد .

ومما سرني بدمشق وأهلها سروراً عظيماً حياة كثير من الصناعات فيها . وكيف لا ينشرح صدري لذلك وقد رأيت ذلك الجامع الفخم الذي كان هو الأثر العظيم في هذه العاصمة لأول دولة عربية تأسست فيها فدمره عصر الظلم والاستبداد بالنار فأعاده أهل دمشق إلى ما كان عليه لا ينقصه إلا ما كان فيه أولاً من زينة الفسيفساء التي يعجز عنها حتى الإفرنج من أهل هذا العصر ، ثم إنني رأيت معظم أثاث البيوت ورياشها من صنع أهل البلد حتى في بيوت الكبراء كبيت عبد الرحمن باشا اليوسف أمير الحج الذي هو أوسع أهل دمشق ثروة وأعلاهم جاهاً ومنزلةً فقد تأملت أثاث بعض الحجرات ورياشها في داره فلم يقع نظري على شيء فيها من غير صنع الشام إلا السجاجيد العجمية حتى أن القناديل الكهربائية النحاسية التي فيها هي من صنع الشام فلنا أن نفتخر بصناعات الشام في النسج والحفر والبناء والنجارة وغير ذلك وأن نجتهد في توسيع دائرتها بالطرق الحديثة .

رغب إليّ بعض الفضلاء أن أقرأ درساً في الجامع الأموي كما فعلت في بيروت وطرابلس فأجبتهم إلى ذلك لرميهم فيه عن قوس عقيدتي وموافقتهم لرغبتي واستحسنت أن يكون ذلك بعد صلاة الجمعة فقيل إن هذا هو الوقت الذي يختم فيه المدرسون الرسميون دروسهم فيرونك فيه مزاحماً لهم ثقيل عليهم فالأولى أن يكون درسك بعد العصر ، فوافقتهم على ذلك . وقد صلينا الجمعة في الجامع الأموي ورجونا أن نسمع فيه خطبة تناسب في حسنها المعنوي ما في ذلك الجامع من الحسن الحسي ولكن خاب رجاؤنا فسمعنا ما ملته أسماعنا من عهد الحداثة وهو مدح رمضان وتغرير العامة بحديث العتق فيه الذي بينا في المنار من قبل ما قيل في وضعه . وشهدنا بعد الصلاة دروس المدرسين فجلسنا زهاء ثلث ساعة في درس الكزبرى الذي حضره الوالي والمشير حسب العادة المتبعة وخلق كثير . ووقفنا هنيهة على درس الشيخ بدر الدين فإذا هو رجل يسرد الأحاديث الشريفة بأسانيدها بالضبط الصحيح ويورد في معناها كل ما قاله بعض العلماء في شرحها أو جله وينتقل من المسألة إلى ما يناسبها من غير تلعثم ولا مكث .

درسنا الأول في الأموي

ثم خرجنا من المسجدوعدنا اليه في وقت العصر وبعد صلاة الفريضة تلا بعض القراء آيات من الكتاب العزيز فجعلتها موضوع الدرس واستطردت منها إلى غيرها من الآيات الواردة في صفات المؤمنين وما وعدهم الله تعالى به في الدنيا والآخرة مع تنبيه الأذهان إلى عرض أنفسنا في هذا العصر على هذه الآيات لنعلم هل هي منطبقة علينا أم لا . . . وذكرت ما يطلب من المسلمين في هذا العصر ليحافظوا على دينهم الذي يرشدهم إلى ما فيه سعادة الدارين ويعدهم بذلك جزاء على نصره والقيام بحقوقه وكون ذلك يتوقف في هذا العصر على العلوم والفنون التي يرتقي بها الاجتماع البشري وتعتز بها الأمة ويرفع شأن الدولة ألا وهي العلوم والفنون الرياضية والطبيعية والاقتصادية . ومما قلته وكررته : إنني أرفع صوتي قائلاً أننا لا تقوم لنا قائمة إلا بالأخذ بهذه العلوم والفنون التي يتوقف عليها امتثال قوله تعالى [وأعدوا لهم ما

استطعتم من قوة] فإننا نستطيع أن ننشئ المدرعات البحرية ونعمل المدافع والبنادق وقذائف الديناميت لأجل حماية حقيقتنا وتعزيز دولتنا ، وأن نعمل السكك الحديدية وغيرها من الأمور التي ترقي مدنيتنا وتحفظ ثروتنا ، وكل ذلك يتوقف على العلوم الرياضية والطبيعية التي لا حياة لأمة في هذا العصر بدونها ، إن علماءنا السابقين الذين كانوا يذمون العلوم الطبيعية وينهون عنها لم يكونوا يَعنون بها إلا تلك النظريات اليونانية التي تبحث في الإلهيات بحثاً يخالف أصول الدين وقواعده ، والعلوم الطبيعية في هذا العصر مباينة لتلك النظريات وناقضة لها لأن أساسها التجربة والاختبار والعمل فمن فروعها علم الكهرباء الذي ترون من آثاره النور الذي يتألق في مسجدكم هذا ليلاً ، والمركبات التي تجري في شوارعكم وأسواقكم ، ومنه علم البخار الذي تسير به قطارات السكة الحجازية من بلدكم إلى مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم . فهل يمكن أن يكون هذا العلم معارضاً للدين؟ كلا إنه لا يضر الدين وأهله ولكن يمكن أن يستخدم لحفظ الدين ورفعة شأن أهله فكل من يصدُّ المسلمين عنه فهو إما صديق جاهل بحقيقة هذا العلم وفائدته وإما عدو غاش للمسلمين .

ثم بينت لهم أن الإسلام على جمعه بين مصالح الدنيا والآخرة دين يسر لا عسر ولا حرج فيه وأنه يمكن للمسلمين أن يجمعوا بينه وبين جميع العلوم والفنون العصرية التي نوهت بفائدتها إذا أحسنوا التربية الدينية وأصلحوا طرق التعليم وأن ذلك إنما يكون بإنشاء المدارس الأهلية ، وهذه المدارس لا يقوم بها حق القيام إلا الجمعيات فالذي يجب أن يبدأ به أهل بلادنا في هذا العصر هو تأسيس الجمعيات التي تنشر التعليم في جميع طبقات الأمة وذكرت لهم موقع دمشق ومكانها من جزيرة العرب وما ينبغي من السعي في جعلها ينبوعاً للمعارف والمدنية فيها ثم قلت في آخر الدرس أنه يمكنني أن أبين لكم في مجلس آخر كيف يمكن الجمع بين الإسلام تربية وتعليماً وبين تحصيل العلوم العصرية الكثيرة التي تقوى بها الأمة وتعتز الدولة إن شئتم فأظهر الرغبة في ذلك الجمهور . وقد حضر الدرس عدد كثير من الناس يبلغ المئات على ما قدره بعض الحاضرين . ومنهم العلماء الرسميون الذين أقبلوا عليَّ بعد الدرس بالتحية والثناء وإظهار الإعجاب بالدرس والدعاء بان ينفع الله بي وبه ، والوجهاء كأحمد باشا ومحمد باشا العظم وعلي باشا الأمير وعبد الرحمن باشا

اليوسف وشكروني على ما أبديته وألحوا علي بأن أعيده في اليوم الثاني .

درسنا الثاني في الأموي والحادثة المشهورة



تحدث الناس في الدرس الأول في ليلتهم تلك وأنه على غير ما يعهدون في الموضوع وهو الجمع بين مصالح الدنيا والآخرة والاستناد على آي القرآن ، وفي الأداء وهو أسلوب الخطابة ، فرغب الناس بعضهم بعضاً في حضور الدرس الثاني فلم نكد نصلي العصر في اليوم الثاني وننفتل إلا وقد تحلق الناس في مكان الدرس الأول (تحت القبة) وصار يلزُّ ويزحم بعضهم بعضاً فلما اتسعت مساحة القاعدين طفق الناس يتحلقون حولهم وقوفاً ثم ازدحموا فصاروا كالقاعدين على غير نظام حتى صاروا يقدرون بالألوف فرأى بعض المهتمين بأمر الدرس أنه لا يمكن إسماعهم إلا بالقعود على شيء مرتفع فأحضروا الكرسي الذي يقرأ عليه خطباء المسجد قصة المولد ونحوها في المواسم المحدثة في الإسلام فصعدت إليه وشرعت في الدرس بعد ذكر الله والثناء عليه والصلاة والسلام على البشير النذير جزاه الله عنا أفضل ما جازى نبياً عن أمته .

كان موضوع الدرس تعريف الدين وكونه هادياً إلى ما فيه سعادة الدنيا والآخرة وكون الإسلام عاماً لجميع البشر موافق لمصالحهم في كل زمان ومكان وبيان إمكان الجمع بين هدايته وبين جميع العلوم والفنون التي عليها مدار العمران في هذا العصر إذا صلحت طريقة التربية والتعليم .

قلت إن القاعدة التي ينبغي لنا أن نبني عليها أساس اهتدائنا بالإسلام هي قول الإمام مالك بن أنس رضي لله عنه (لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها) فيجب علينا أن نرجع إلى سيرة الصدر الأول فننظر كيف تلقى الصحابة عليهم الرضوان دينهم عن النبي عليه الصلاة والسلام وكيف كانت سيرتهم في العمل به وكيف تلقى عنهم التابعون فنهتدي بهديهم في ذلك

ثم بينت أن ما جاء به الإسلام ينقسم إلى ثلاثة أقسام : قسم العقائد وقسم الأخلاق والآداب وقسم الأعمال من العبادات والمعاملات ، وشرعت في بيان طريقة

التعليم التي ينبغي سلوكها لإحياء الإسلام في زمن قليل لا تحتاج فيه إلى مدارسة هذه الكتب الكثيرة في الكلام والفقه وغيرها التي لا يتفق تحصيلها في عشرات من السنين إلا للعدد القليل من المنقطعين لتحصيلها وهؤلاء المنقطعون عشر معشار الأمة .
فإذا كان الدين لا يؤخذ إلا من هذه الكتب التي اختارها علماؤنا للتعليم العام في هذه القرون الأخيرة فكيف السبيل إلى تعليم الدين لجميع المسلمين؟ وههنا قلت كم عدد مسلمي هذا البلد؟ فقال بعضهم مائتا ألف أو يزيدون فقلت هل يوجد فيهم ألفا عالم فهم كتب الكلام وكتب الفقه المتداولة؟ قيل ولا ألف . فقلت إذا كان هذا مبلغ تعلم الدين في مدينة تعد من أعظم أمصار الإسلام في الأرض فكيف يكون حال مسلمي القرى وأهل البوادي ومثل مسلمي الصين؟

ثم شرعت في بيان الطريقة السهلة لتعميم تعليم العقائد فقلت ما معناه : إن كتب الكلام المشهورة لم توضع لأجل تلقين المسلمين ما يجب عليهم اعتقاده إنما وضعت لرد شبهات الفلاسفة والمبتدعة عنالعقائد الإسلامية والاحتجاج على أحقيتها وقد انقرض أولئك الفلاسفة والمبتدعة الذين عُني المتكلمون بإقامة الحجة عليهم وظهر بطلان مذاهبهم إلا قليلاً من مسائلها وحدثت لفلاسفة هذا العصر ومقلدتهم شبهات جديدة تولدت من الفلسفة الجديدة يجب أن يُعني متكلمو هذا العصر بكشفها ولا ينبغي أن يذكر شيء منها لعامة المسلمين ولا لتلاميذ المدارس الابتدائية عند تلقينهم الدين وإنما يخص بذلك طلاب العلوم العالية الذين يدرسون الفلسفة وعلم الكلام .

المسلم لا يحتاج إلى الاستدلال على وجود الله تعالى بالطريقة الكلامية وأن الدلائل التي تبنى على فرض خلاف المطلوب قد يكون إثمها أكبر من نفعها لأنها تثير الشبهات وتوقع كثيراً من السامعين في الشك وإنما الطريقة المثلى لذلك طريقة القرآن الحكيم وهي عرض محاسن الخليقة وأسرارها على العقل وتذكيره بحكمة مبدعها البالغة وقدرته العظيمة وعلمه الواسع وتفرده بالخلق والتكوين والرحمة والإحسان (وذكرنا بعض الآيات في ذلك) لماذا نقول للمسلم الخالي الذهن من الشبهات والشكوك لو لم يكن للعالم إله للزم الدور أو التسلسل وكل منهما باطل فما أدى اليه وهو عدم وجود الإله باطل – فثبت نقيضه وهو أن للعالم إلها – ثم نحاول أن

نفهمه معنى الدور والتسلسل والبرهان على بطلانهما وما أصعبه مركباً وأبعده مطلباً! وقد رأينا كثيرين من المتصدرين لتدريس علم الكلام يذكرون ما كتب من الاستدلال على بطلان الدور والتسلسل وهم لا يفهمون ما يقولون .

إن الإيمان بوجود واجب جل شأنه عام في البشر باديهم وحاضرهم حتى قال كثير من العلماء إنه فطري مودع في النفوس بأصل الخلقة فأكثر علماء أوربا وفلاسفتها يؤمنون بذلك وكذا المؤمنون الذين ارتقت وثنيتهم كالبراهمة والبوذية حتى اليوم ومشركي العرب في زمن البعثة . ومن شذ من البشر فأنكر وجود البارئ تعالى لشبهة أثارتها في نفسه تقاليد دينه أو نظريات فكره الضعيفة فهو لا يمنع أن يكون لهذا الاعتقاد أصل في الفطرة البشرية فقد قال الأستاذ الإمام رحمه الله تعالى : إن الذين ينكرون وجود الله تعالى قليلون في مجموع البشر فهم مرضى الأرواح – أو قال العقول – من هذه الجهة وإن صحت أفكارهم من جهة أو جهات أخرى ومرض الروح والعقل عرض يطرأ على بعض الناس كمرض البدن ، فمرض الجسد مهما كثر لا يعد هو الأصل في المزاج وكذلك مرض العقل والروح لا يعد في الأصل وإن كثر المرضى به .

قلنا إن أكثر البشر يؤمنون بوجود الله تعالى ونقول إن الذين يؤمنون بالله تعالى يؤمنون بعلمه وقدرته وإرادته ويعظمونه ويقدسونه وقلما أخطأ الكفار في غير وحدانية الألوهية والربوبية من مسائل الإلهيات . فأما وحدانية الألوهية أي العبادة فهي عبادة غير الله تعالى بالدعاء ونحوه ، وأما وحدانية الربوبية فهي اتخاذ بعضي البشر شارعين يشرعون للناس من الدين ما لم يأذن به الله . وقد بين الله لنا ذلك في كتابه الحكيم فقال في بيان عقائد مشركي العرب [ولئن سألتم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم] وقال لنبيه صلى الله عليه وسلم [قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون . سيقولون لله قل أفلا تذكرون . قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم . سيقولون لله قل أفلا تتقون . قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون . سيقولون لله قل فأنى تسحرون . بل أتيناهم بالحق وإنهم لكاذبون . ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق . ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون][2] فقد اثبت لهم الإيمان

(2) الآيات 84 حتى 91 من سورة المؤمنون وقد سقطت من الأصل الآية 90 والاستدراك من (الوراق)

بوجود الله وأنه هو الخالق الذي بيده ملكوت كل شيء وقال فيهم مع ذلك [وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون] فما هو شركهم؟ هو ما بيّنه في آيات أخرى كقوله عز وجل [والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون ، إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار][3] وقوله سبحانه [ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون] وقال في أهل الكتاب [اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله] وقد روي في الصحيح أن عدي بن حاتم أسلم وكان نصرانياً فلما سمع هذه الآيات قال للنبي صلى الله عليه وسلم إنهم لا يعبدونهم فقال ما معناه : أليس يحلون لهم ويحرمون عليهم فيتبعونهم؟ قال نعم قال فذاك . فهذا وما قبله هو الذي فتن به الوثنيون والذي طرأ على أهل الكتاب وقد بينه القرآن الكريم تبيينا .

قلت كل هذا تمهيداً لبيان ما يجب اتباعه من تلقين المسلمين عقائد دينهم على طريقة القرآن المثلى وأردت أن أشرع في المقصد فإذا أنا برجل مغربي قد اخترق جمهور الواقفين حتى انتهى إلى دائرة القاعدين وصاح يا إخواننا المسلمين اسمعوا لي كلمتين وشرع في الكلام فاضطرب الناس وكثر اللغط وقام كثير من القاعدين فرغبت إليهم في السكوت والاستماع له . فأما إحدى كلمتيه فكانت في مشروعية زيارة القبور والتوسل بالصالحين الميتين إلى الله تعالى ليقربوهم إليه! ويقضوا حوائجهم عنده وأما الكلمة الثانية ففي وجوب تقليد الأئمة المجتهدين في الدين والثناء عليهم وكون العمل بما في كتب الفقه هو عين العمل بالكتاب والسنة وكان يقول ما مثاله : يا إخواننا هل الذي يتوسل إلى الله تعالى بالأولياء يكون مشركاً بالله؟ هل الذي يحب الصالحين ويعظمهم يكون مشركاً بالله؟ هل الذي يؤمن بكراماتهم يكون مشركاً بالله؟ هل الذي يعظم الأئمة ويعمل بمذاهبهم يكون مشركاً بالله؟!!!

فلما أتم كلامه قلت أيها الإخوان : إن من يسمع كلام هذا الشيخ ممن حضر في أثناء كلامه يظن أن ما قاله في درسي ليس إلا رداً عليّ وإنني كنت أتكلم في هذه

(3) الآية 3 من سورة الزمر وقد وقع في أصل الكتاب خطأ في نص الآية والاستدراك من (الوراق)

المسائل بخلاف ما قاله ومن حضر المجلس من أوله يعلم أنني لم أتعرض لهذه المسائل بنفي ولا بإثبات وليست هي من موضوع كلامي فإن الذي قصدت ليه في هذا الدرس ووعدت به أمس هو بيان طريقة تعميم تعليم الدين لجميع المسلمين بأسلوب سهل وزمن قليل يبعث فيهم روح الدين ولا يشغلهم عما هم في أشد الحاجة إليه من أمر الدنيا وقد أشرت فيما قلت إلى أن هذه الطريقة هي طريقة القرآن الحكيم وسنة النبي عليه الصلاة والسلام في تلقين الدين لا طريقة المتكلمين وقد سبقني إلى ذلك حجة الإسلام الغزالي قال بمثل ما قلته في كتابه (إلجام العوام عن علم الكلام) وغيره ، فصرح بأن كتب الكلام وضعت لحماية العقيدة من هجمات المخالفين ، لا لإفادتها وتقريرها لعامة المسلمين ، وأن طريقة القرآن هي التي يجب الاعتماد عليها في التعليم وكل ما قلته تمهيد لبيان ذلك بعبارة ممحصة قريبة من الأذهان وما خطر في بالي أن أحشر في درسي شيئاً من هذه المسائل التي قطع بها الرجل على كلامي قبل أن أصل إلى المقصد منه . وكأني بأناس يقولون الكذب ويتجرمون عليَّ ويأخذون من كلامه تهماً يلصقونها بي فحسبي أن يعلم هذا الجمهور العظيم الذي سمع كلامي عني ويسمعوا مني بأنني ما أنكرت ولا أنكر زيارة القبور لأجل الاعتبار وتذكر الآخرة والموت كما ورد في حديث الإذن بها بعد النهي عنها وإنني أزورها بالفعل ، وأحب الصالحين ولا أنكر ما لهم من الكرامة عند الله تعالى فإن من لا يحب الصالحين يكون أشقى الأشقياء ، وأعظم الأئمة المجتهدين وأعتقد أنهم كانوا على هدى وإخلاص في خدمة الدين وأن من التوفيق والسعادة اتباعهم في الاهتداء بالكتاب والسنة . ثم صعد الكرسي الشيخ عبد القادر الخطيب وأراد أن يتكلم فأنزله عثمان بك العظم عن الكرسي وصده عن التكلم ووقف عليه وقال ما معناه : أيها الإخوان إنه لا ينبغي للعوام الخوض فيما يختلف فيه العلماء فانصرفوا إلى شأنكم ومن كان من العلماء يريد مناظرة الأستاذ في هذه المسائل أو غيرها فليتفضل بعد العشاء إلى منزلي . ثم نزل وقال لي تفضل فنزلت ومشينا معاً فمشى معنا جمهور عظيم من الحاضرين وسمعت بعض من بجانبي يقولون ما معناه لا تخف ولا تحزن فلا قيمة لهذا الرجل ولا تأثير لكلامه وبعضهم يقول هلمَّ وأسرع ، كان اللغط والضوضاء على أشدهما حتى خرجنا من باب صحن المسجد وحينئذ

رغب إلي الشيخ أديب تقي الدين أن أدخل داره وهي بقرب المسجد للاستراحة ورد الزيارة (فقد كان زارني في دار عثمان بك) فأجبته إلى ذلك فلما دخلت داره طفق يقبل رأسي ويثني علي ويطري درسي ويهون عليّ ما جرى ويحلف الأيمان بأنني ما قلت إلا الحق وأن ما عورضت به ليس بشيء . فعجبت من ذلك كله لأنني لم أكن أعد ما جرى في الجامع من قطع الدرس عليّ أمراً عظيماً ولا مصاباً يعزّى عنه . وظننت أن السبب في كل ما رأيت من لهف الناس وعنايتهم بتسليتي هو عدم تعودهم في تلك المدينة مثل ما رأوا من ذلك الافتيات . وخطر في بالي أن الباعث لذلك الرجل على ما فعل هو حب الظهور والشهرة أو سوء الظن والظنة فإنه هو الرجل الذي ذكرت أنني رأيته يقرأ درساً لا يحضره إلا قليل من الناس وقد علمت بعد ذلك أن اسمه الشيخ صالح وأنه داعية لأبي الهدى الصيادي أرسله إلى دمشق ليبث دسائسه فيها .

قبيل المغرب من ذلك اليوم ذهبت مع عثمان بك إلى دار عبد الرحمن باشا اليوسف لأننا كنا مدعوين للفطر عنده فلما كنا على المائدة جاء أسعد بك بيكباشي أركان حرب وهو وكيل الشرطة في دمشق وأحد أعضاء جمعية الاتحاد والترقي الذين يشكو منهم أكثر وجهاء دمشق فجلس معنا وأخبرنا أنه قبض على الشيخ صالح وأودعه في السجن . فقال له عثمان بك أخطأت في هذا العمل فيجب أن نذهب بعد الفطور لأجل إخراجه لأن ما حصل يجب أن يقف عند الحد الذي وصل إليه . وكان الأمر كذلك فقد ذهب أسعد بك بين المغرب والعشاء لأجل إطلاق الشيخ صالح على ما فهمنا وبعد صلاة العشاء في بيت عبد الرحمن باشا خرجت أنا وعثمان بك فركب هو مركبته وتبع أسعد بك لينظر ماذا فعل وركبت أنا مركبة أخرى الى دار عثمان بك .

ولما عاد عثمان بك أخبرني بأنهم أخرجوا الشيخ صالحاً من الحبس وأن فتنة عظيمة أثيرت في الشام فحمل ألوف من الناس السلاح واحتشدوا في الأسواق والشوارع وذهب جمهور عظيم منهم إلى مجلس البلدية وجمهور الى دار الحكومة . قال وهذا الذي كنت أخشى بادرته في الجامع فأحببت أن تختتم الدرس وتخرج ولا تطيل في الرد على الشيخ صالح . قلت له ما هو سبب ذلك فإن ما حصل في الجامع

لا يصح أن يكون سبباً لحمل السلاح ولا للفتن لأنه لا يزيد على إساءة رجل بقطعه الدرس عليّ وأنا لا أحب الانتقام وليس لي عصبة تنتقم لي إن أحببت ولا هذا الذنب مما يعاقب عليه بالسلاح وإن أدري ألذلك الرجل عصبة قوية عظم عليها أمر حبسه فأرادت أن تنتصر له؟ وهل يكون الانتصار في الشام دائماً مثل هذا؟ أعني إذا حبس رجل له أنصار يطلب أنصاره من الحكومة إطلاقه بقوة السلاح!!!؟ قال إنني علمت من حال بعض الحاضرين في الدرس أن هناك فتنة مدبرة يراد إيقاعها في الجامع بأدنى مناسبة أو بخلق مناسبة ولست أنت المقصود بها . وإنه ليس للشيخ صالح عصبة ولا محبون والذين هيجوا الناس ودفعوهم إلى المطالبة بإطلاقه لهم بذلك أغراض يتوسلون إليها بكل وسيلة تتيسر لهم لا يهمهم فيها أن يعظم من لا يستحق التعظيم ويؤذى من لا يستحق الإيذاء ولا حاجة إلى شرحها ولكن أقول بالإجمال إنها تتعلق بانتخاب المبعوثين . ولا أكتم عنك أنه لا يكاد يوجد أحد في الشام يخرج من بيته بغير سلاح . قلت إذاً ليس في الشام حرية شخصية تحميها الحكومة فأنا مسافر في الصباح حتماً ، ولا أقيم في هذا البلد يوماً ، فرضي مني بذلك على كره منه وحرص على أن أقيم عنده أياماً أرى فيها معاهد البلد وأعرف أحواله . فهذا ما دار بيني وبينه في الليل ثم نمت طائفة من الليل واستيقظت وقت السحور ولما طلع الفجر سافرت من الشام قاصداً رياق .

اجتمعت في قطار سكة الحديد ببعض أدباء دمشق وتجارها فسمعت منهم شيئاً كثيراً من أخبار الفتنة الظاهرة والفتن الباطنة ، منهم شابان ذكيان من محبي الإصلاح والعلوم العصرية كاشفاني بما في صدورهما وذكرا لي أسماء شبّان آخرين على مشربهما وقالا إنهم يكتمون ميلهم ورأيهم ولا يحبون أن يعرف شيء عنهم . ثم اجتمعت ببعض باشوات الشام في بعلبك فحدثني بما يعلم من أمر الحادثة ومن أحوال الشام وهو ممن حضر الاجتماع عند الوالي ليلاً . واجتمعت أيضاً هناك ببعض أعضاء جمعية الاتحاد والترقي فسمعت منهم أنباء وآراء فعلمت من ذلك ومما سمعته في حمص وقرأته من المكتوبات التي بعث بها من الشام الى حمص وغيرها جميع ما كان من المكايد والفتن وهذا مجمل ما وصل إليّ :

الأصل في ذلك كله امتعاض بعض الوجهاء أصحاب النفوذ من أسعد بك وسليم بك الجزائري كلاهما قائد ألف (بكباشي) من أركان الحرب والدكتور حيدر وكلهم من أعضاء جمعية الاتحاد والترقي، وكراهتهم لهذه الجمعية لأنها جعلت لهؤلاء منزلة ونفوذاً في الشام يعلو نفوذ أولئك الوجهاء المتعضين الذين يرون أنهم سادات الشام وأنه يجب أن يكون النفوذ فيها مقصوراً عليهم ومحصوراً فيهم وخاصاً بهم!! .

قهرتهم جمعية الاتحاد بظهورها مؤيدة بالقوة العسكرية ولكنهم لم يتجرءوا على الوقوف في وجهها ومناجزتها جهراً فتربصوا بها الدوائر حتى إذا ما جاء زمن انتخاب المبعوثين ورأوا من ذكرنا من أعضائها يشتغلون بأمره عيل صبرهم ولجئوا إلى الكيد وجرأهم عليه ندره بك المطران الذي جاء الشام ليرشح نفسه للانتخاب ويستعين عليه بمن يستميلهم إلى جمعية الإخاء العربي فإنه كان يهون على الناس أمر جمعية الاتحاد والترقي، ويكبر في نفوسهم شأن جمعية الافتراق والتدني، أي التي تفرق بين الترك والعرب وتنصر الاستبداد وتخذل الدستور . فاندفع أولئك الوجهاء الى الفتنة بقوة وهمة وبثوا دسائسهم في العامة الذين هم أتباع كل ناعق كما قال سيدنا علي كرم الله وجهه حتى دخلت طائفة منهم الجامع الأموي مدججة بالسلاح للتنكيل ببعض المشايخ المدرسين لأنه ختم من بعض العوام ورقة يطلب فيها ترشيح مبعوث ولكنه كان يقول لمن يطلب منه الختم إننا نطلب بهذه العريضة إبطال رقص النساء في بعض الملاهي!! . ووقعت فتن ومشاغب أخرى أطلق فيها الرصاص وأصيب بعض الناس كما قيل لنا ولا نحب أن نخوض في ذلك .

ولكن موقظي الفتن ومثيري الشغب لم يكن لهم سبيل للنيل من أعضاء جمعية الاتحاد والترقي فيما جرى إلا بالكلام كقولهم أنهم علة اختلال الأمن وحدوث الاضطراب في البلد (رمتني بدائها وانسلت) وأنهم يريدون إبطال الدين بتجريئهم الناس على الفطر في نهار رمضان علناً وباحتقارهم لوجهاء البلد وعلمائه!!

هذا ما كانت عليه دمشق عند قدومي إليها كانت تتمخض بالفتن التي يدبر أمرها رجال لا يزيد عددهم على عدد الذين دبروا أمر الصحيفة من قريش وكان أشدهم إفساداً أحد الباشوات الذي يرى أنه بعظمة بيته يجب أن يكون صاحب الأمر المطاع في البلد والقول المتبع في حكومتها وأهلها . واستعانوا على كيدهم ببعض أصحاب العمائم الجاهلين الذين جعل لهم الحكم الاستبدادي رياسة دينية علموا أنها لا تلبث أن تمحى وتزول في عهد حكومة العدل والشورى .

رآني هؤلاء الكائدون تحت قبة الجامع الأموي أبين للناس أنهم دخلوا في طور جديد من الحكومة يمكنهم أن يحيوا فيه دينهم علماً وعملاً وأخلاقاً وآداباً ، وأن يرقوا فيه دنياهم حتى يكونوا فيه من أوفر الأمم ثروة وأعلاها جناباً ، ورأوا أن الناس قد قبلوا هذا الإرشاد ولهجوا بالثناء عليه ، فقالوا إن هذا السيل الأتيّ يأتي على ما بنينا من صروح الآمال ، ويجرف ما نضع في طريق الدستور وجمعية الاتحاد والترقي من العقبات ، ولكن الشعب يراه عذباً فراتاً ، يطفيء غليلاً ويحيي مواتاً ، فيجب أن نبادر إلى تحويله عن هذه الديار ، قبل أن تروى منه القلوب والأفكار ، فأجمعوا أمرهم وهم يمكرون ، وعهدوا إلى أفراد من الجمعية العلمية أن يقطعوا عليّ الدرس الثاني فولوا وهم يعتذرون ، فقالوا أن هؤلاء لا يملكون لنا نصراً ولا أنفسهم ينصرون ، فما لهذا الأمر إلا رجل يشترى ما يراد منه بالمال ، وقد مرد على أمثال هذه الدسائس والأعمال ، وما ذاك إلا داعية ابن صياد الدجال ، المعروف في جميع البلاد بأبي الضلال ، فذلك المغربي يطيعكم فيما يترفع عنه أهل الشام ، إذا وعدتموه بالتعويض عن مرتبه الذي قطع في هذه الأيام .

فلما لبى الشيخ صالح داعية أبي الهدى دعوتهم ، وقبل صلتهم ، أوعزوا إلى بعض أفراد حزبهم بأن يحضروا الدرس مستعدين للكفاح والصيال ، إذا جر إلى ذلك ما ينتظرون من القيل والقال ، وقد علم هذا كثير ممن كانوا معنا في مجلس الدرس من الأهالي الواقفين على حال البلد وكان هو السبب في رغبة عثمان بك في عدم إطالة المراجعة والمدافعة وإن لم يصرح لي به وفي تحويم الفضلاء عليّ وتسليتهم إياي كما تقدم .

لطف الله تعالى ولم يقع في المسجد ما كانوا يرومون من العدوان ، وعلم أسعد بك

- وهو أخبر من هناك بكيدهم - أنهم لا يقفون عند ذلك الحد ، وأن الخيبة في هذه تدفعهم إلى ما هو شر منها وأن الشيخ صالحاً هو الذي رضي أن يكون مثيراً لفتنتهم ورأى أعوانهم قد أدلوا إليه يوسوسون له ويمدونه في الغي ثم لا يقصرون ، فظن أن حبسه يسد باب الفتنة فحبسه فطاروا بذلك فرحاً ، وفتح لهم به باب جديد أقرب إلى مقصدهم لأنهم يصلون منه إلى الإيقاع بعدوهم أسعد بك نفسه وجمعيته بلا وسيلة ولا واسطة ، فأنفذوا أناساً إلى المساجد يستغيثون المسلمين ويستفزونهم لإعانة الدين وحماية علمائه من ظلم جمعية الاتحاد والترقي والحكومة الجديدة! فصاح أولئك المنفذون صيحتهم بعد صلاة التراويح ، فأقبل الناس يتساءلون : أي خطب دهى الإسلام وأي بلاء نزل بالعلماء؟ ويجيبهم خطباء الفتنة إن فلاناً العالم الفاضل دافع عن الدين فقبض عليه أسعد بك وزجه في السجن فإذا لم نبادر إلى إنقاذه بقوة الشعب فإن هذه الحكومة تقضي على جميع العلماء وتمحو دين الإسلام من الشام!! . ويقال إنهم أنفذوا أناسا آخرين يقولون مثل ذلك في الأسواق وأعطوا كل واحد منهم (بشلكاً)[4] فاجتمع الناس من كل فج حتى صاروا يعدون بالألوف وصاروا ينادون : ليسقط أسعد بك لتسقط جمعية الاتحاد والترقي . وبلغني أنهم قالوا أيضا ليسقط القانون الأساسي وليعش الوالي! (ولكن الله أسقط الوالي ورفع الجمعية والقانون الأساسي فكان دعاؤهم في ضلال) ولولا أن توارى أسعد بك لقضوا عليه كما قيل .

وقد ظهر من ضعف الوالي (شكري باشا) وأفن رأيه ، ما لا ينتظر أكثر منه من مدمني السكر وأسرى الشهوات مثله ، فإنه لما رأى الجموع قد حشرت ، وزمرة الوجهاء قد حضرت ، وعظمت عليه الأمر وأرجفت ، رجفت في قلبه الراجفة ، وتلتها الرادفة ، فخنع لمكرهم ، وخضع لأمرهم ، وأمر بأن يؤتى بالشيخ صالح فجيء به ، وطاف بالناس في مركبته (مركبة الوالي) من بعد ما أذنه المشير بأن لديه من الجند ما يكفي لقمع الفتنة الأهلية بل لإعلان الأحكام العرفية ، ولو أخذ الوالي ، يومئذ بالحزم ، لاستقرت هيبة الحكومة في النفوس مذ ذلك اليوم ، لا أقول في دمشق وحدها ، بل في الولايات السورية كلها .

---

(4) البشلك ضرب من نقود الدولة العثمانية يزيد عن نصف فرنك قليلا

فعُلِمَ من هذا الشرح الذي أخذته من مصادر كثيرة أنني لم أكن مقصوداً بالإيذاء الذاتي ، ولا مؤاخذاً عليّ قولٌ زلَّ به في الدرس الثاني لساني ، (لأنني لم أذكر فيه نعمة ادستور ولا نوهت بجمعية الاتحاد!) وإنما كثر فيّ القيل والقال لكثرة من كان يسأل بماذا دافع فلان عن الدين حتى حبس؟ فكان كل مسئول يجيب بجواب حتى كان بما سمعته في بعلبك وحمص أنه قام رجل في الجامع الأموي فأنكر القرآن وقال آخرون إنه سب الأنبياء! ولكن الذي لقنه دعاة الفتنة للأكثرين هو أنه دعا الناس إلى مذهب الوهابية وأنكر زيارة القبور والتوسل بها . وهذا هو الذي كتبوا به إلى جرائد بيروت وطرابلس ومصر والأستانة وقد علمت أنه كذب وبهتان .

نال محركو الفتنة من أسعد بك ما أرادوا وانتهت هذه الحادثة بخروجه من الشام وضعف جمعية الاتحاد والترقي وعجزها عما كانت تحاول من أمر الانتخاب وذلك جل ما كانوا يبغون في نفس الشام فكان من المعقول مع هذا أن يسكتوا عني لأني لم أكن الغرض الذي يرمون سهامهم اليه ، وإنما عرضت بينهم وبينه فرموني لأتنحى فتصل سهامهم اليه وحده ، فما هو السبب يا ترى في استمرار عداوتهم لي ومكاتبة الجرائد بسبي وثلبي؟ يظهر لي أن لذلك أسباباً : منها أن الشر داعية الشر وأن الرجل الخبيث إذا حاول شراً فتم له كما يجب تضرى نفسه بالشر على إهانته وتسخيره له استلذاذاً بذلك وتبجحاً . ومنها أنه اغتنم هذه الفرصة رجل من أدعياء العلم حاقد علي فزج نفسه في حمأة هذه الفتنة وطفق يكتب ويستكتب غيره مقالات في الطعن علي ولكن الجرائد ترفعت عن نشر ما بعثوا به إليها من السخف فلم تقبله إلا مثل جريدة بيروت التي هي جريدة المتقهقرين أعداء حكومة العدل والدستور وأعداء الإصلاح . ذلك الرجل الذي كان استأجر أحد أرباب العمائم فكتب له رسالة في الرد على المنار في مسألة طهارة الكحول زاد هو فيها ما زاد فرد عليه (المنار) يومئذ رداً صريحاً صرح فيه باسمه ففضح جهله وجهل من كتب له[5] ولعل هذا الرجل هو الذي تصدى للكتابة بيده وماله ، وأعانه عليها نفر من أقتاله ، ولي ههنا استدراك وهو أن أكثر الجرائد التي انتصرت للحق في هذه الحادثة قد أسندت البغي والعدوان فيها

---

(5) راجع في(المنار) مقالات طهارة الاعطار ذات الكحول (ص821 و866 م 4)

إلى أهل دمشق الشام على الإطلاق لاستخفاء المعتدين منهم وذلك تساهل في التعبير أدى إلى خلاف ما يريده الكاتبون فبني عليه حكم فاسد خفي عن الأكثرين فساده لخفاء المراد من العبارة التي أخذ منها . أعني أنه صار يقال إن أهل الشام ناصبوا صاحب المنار العداء وآذوه بالكلام وأن أهل بيروت انتصروا له وأهانوا أهل الشام بما كتب في جرائدهم ودار في محافلهم . . . والصواب أن صاحب المنار لم يسمع من أحد من أهل الشام كلمة شاذة عن النزاهة والأدب بل سمع من كل من لقيه منهم أرق الكلام وأعذبه ، وألطف عبارات الترحيب والثناء ، وإنما تصدى لقطع درسه وإيهام العامة أنه أخطأ فيه رجل غريب عنهم لم يكن محبوباً عندهم لأنهم يعدونه من جواسيس الشيخ أبي الهدى والدعاة له ، وشاب آخر من طلاب العلم أراد أن يسأل عن شيء سؤال متبرم مستاء فكفاه ذلك الرجل الغريب ما كان يريده من ذلك . وأما زعماء الحركة الذين أشرنا إلى كيدهم آنفاً فهم لا يتجاوزون جمع القلة على أنني لم أكن غرضهم وإنما عرضت أمام غرضهم كما تقدم . على أني لو بقيت في دمشق لتصدوا لإيذائي بتحريض العامة على ذلك ولكن لا يؤخذ من هذا أن أهل الشام فعلوا ذلك . وقد زارني في ليلة الحادثة بعض الوجهاء المحبين للمنار الذين كانوا يقرؤونه في زمن الاستبداد ونصح لي بأن أسافر ثم كتب إلي بعد أن عدت إلى طرابلس كتاباً قال فيه (وإني لمخجول وأيم الله من فضيلتكم ومقابلتي إياكم بدار عثمان بك تلك المقابلة لكن ربنا عليم بأني لم أحضر تلك الليلة لمقابلتكم وتكليفكم السفر إلا خوفاً عليكم وحفظاً لكرامتكم من سفهاء العمائم المتزيين بزين العلم والعلم بعيد عنهم بعد السماء عن الأرض فنرى أن الواحد منهم يظن أنه إذا كبر العمامة وطول الذقن ووسع أكمام الجبة وركب البغلة وغش البسطاء بهيكله - وإن لم يكن تحت القبة ولا حبة - أنه صار عالماً) ومع هذا أقول إنني لست على يقين من طعن رجل معين من أهل الشام في إلا ذلك الحاقد الذي أشرت إليه آنفا ، فأهل الشام ليسوا خصماً لي ولا لأهل بيروت وليس أهل بيروت خصماً لهم .

وجملة القول أن الذين ابتغوا الفتنة من أهل الشام نفر لا يخرجون من مضيق جمع القلة ومن صدقهم من العامة يندر في الجملة وأنه لم يتصد أحد من علمائهم للرد عليَّ في شيء سمعه مني أو قرأه من كلامي مظهراً نفسه مبيناً اسمه وقد حضر

كثير منهم درسي فإن كانوا يعلمون أني أخطأت فلماذا سكتوا لي على الخطأ وقد سألت مفتيهم وكان من حاضري درسي أن يكتب إلي مبيناً خطأي إن كنت أخطأت . سألته ذلك في مقالة نشرتها في جريدة الاتحاد العثماني وأسأله هو وسائر علماء الشام ذلك بلسان المنار وأنا أنشر لهم ما يكتبون في المنار وأذعن له إن كان حقاً وأبين ما عندي فيه إن كان خطأ . وهذه هي حجتي عليهم فإذا هم سكتوا عن هذا البيان فهم لا يخرجون عن أحد أمرين : إما أنه لم يثبت عندهم أنني قلت شيئاً مخالفاً للشريعة وهذا كافٍ لتكذيب أولئك المداعين الذين خاضوا في الإثم ، وإما أنهم يكتمون الحق وهم يعلمون ولا يخفى عليهم ما ورد في القرآن والأحاديث من وعيد الكاتمين .



حمص وحالها الاجتماعية

سافرت في اليوم الثاني من شوال من بعلبك إلى حمص والمسافة بينهما في القطار الحديدي ثلاث ساعات وقد وصل القطار إلى محطة حمص الساعة 8 و45 دقيقة مساء فإذا بالصديق الكريم والولي الحميم السيد عبد الحميد أفندي الزهرواي ينتظرني فيها مع طائفة من أهل العلم وكرام البلد في مقدمتهم الشيخ أحمد نبهان الذي حببه إلينا على البعد ما نمي إلينا من عقله وأخلاقه وحبه للإصلاح مع علمه وحسن سيرته .

أقمت في حمص أربع ليال وثلاثة أيام في دار الزهرواي ولقيت فيها أكثر أهل العلم والمكانة من المسلمين والنصارى إذ كانت الدار غاصة بهم ليلا ونهارا ، وقد رأيت في هذه البلد من الوفاق بين الفريقين وحسن الألفة ما لم أر له نظيراً في سائر البلاد السورية ولا بيروت فإن جل ما مدحناه من أهل بيروت هو ترك التقاتل والتسافك ولا يزال كل فريق فيها بعيد عن الآخر في المعاشرة والمعاملة إلا ما لا يخلو منه مكان بحكم طبيعة الاجتماع وحاجة بعض الناس إلى بعض حتى أنني قلت لكثيرين منهم أنني أرى الوفاق الذي حمدناه لكم على البعد سلبياً لا إيجابياً وصرحت بذلك في نادي الجامعة العثمانية ودعوت الناس في خطبة خطبتها في

ذلك إلى التزاور واتعامل وغير ذلك من أعمال الوفاق الإيجابي .

وقد كنا توهمنا ونحن بمصر أن الشقاق بين مسلمي حمص ونصاراها شديد لحادثة جرت في الاحتفال بعيد الحرية كبرتها الجرائد فوجدنا الأمر على ضد ما كتب في ذلك فإنني ما رأيت في بيت من بيوت طرابلس ولا بيروت مثلما رأيت في بيت الزهراوي من اجتماع الفريقين كل ليلة من ليالي الشتاء للسمر ومبادلة الآراء .

ثم إنني لم أر في حمص ما رأيت في غيرها من الاضطراب والاعتصاب والافتيات على الحكام والتبرم من جمعية الاتحاد والترقي . ومن أسباب ذلك أن أعضاء لجنة الجمعية المركزية كانت مؤلفة من أناس مؤتلفين متعارفين لا ينقم الناس منهم شيئاً ولا يشكون منهم إهانة ولا شذوذاً وقلما اتفق هذا للجنة أخرى كما يعلم مما نكتبه بعد عن الجمعية .

نعم إنه ينتقد على أهل حمص ما ينتقد على أهل طرابلس من الخمول والسكون فهم لم يشرعوا في عمل مفيد للبلاد . وقد حثثت طائفة من الوجهاء على تأليف جمعية خيرية إسلامية لأجل إنشاء المدارس الأهلية ومساعدة الفقراء على تربية أولادهم وتعليمهم فألفيت منهم ارتياحاً واستحساناً وقد مرت الشهور ولم يشرعوا في العمل ولكننا لم نيأس من همتهم وغيرتهم فعسى أن يسمع منهم عن قريب ما تقر به العين .

هذا وإن عمران حمص ينمو نمواً عظيماً والزراعة والصناعة تتقدم فيها تقدماً مبيناً ولكنها متخلفة عن طرابلس في ترف الحضارة وإن كانت سابقة لها في مضمار العمران بل هي وسط في التأنق في الأطعمة بين مثل طرابلس وبيروت ودمشق وبين القرى الكبيرة التي يوجد فيها أغنياء يعيشون في بلهنية فالظاهر أن التأنق في حمص خاص ببعض أهل السمعة والبيوت المطروقة وأن الفقير في طرابلس ليتنوق في طعامه ما لا يتنوق الأغنياء في كثير من المدن ، وإني لأعلم أن المصري المقيم في القاهرة نفسها الذي يزيد دخله في الشهر على دخل الطرابلسي في السنة لا يأكل من الحلوى في السنة كلها بقدر ما يأكل الطرابلسي منها في شهر واحد . فقلة التنوق في الأطعمة بحمص محمدة لها عندي إذا كانت تحتفظ ثروتها من التلف في غير ذلك من السرف وتجعل حظاً منها عظيماً للتعلم والتربية .

طرابلس أيضا



سافرنا من حمص قبيل الفجر من يوم السبت سادس شوال (31 أكتوبر) في مركبة من مركبات (شركة الشوسة) فوصلنا إلى طرابلس بعد العصر وطفقت أتهيأ للسفر إلى مصر ، وكنت عازماً على السفر في يوم السبت التالي لهذا السبت (13 شوال و7 نوفمبر) ولكن عرض ما حال دون ذلك .

جمعية خيرية إسلامية بطرابلس

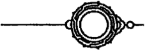


في يوم الأربعاء (10 شوال) رغبت إلى مفتي طرابلس أن يقوم بتأليف جمعية خيرية إسلامية كالجمعية التي بمصر وذكرت له موضوعها وأعمالها ووجوه الحاجة إلى مثلها في طرابلس وأهمها إنشاء المدارس لتعليم أولاد الفقراء على نفقة الجمعية وأولاد الأغنياء بالأجرة . فأجاب بأنه مستعد لذلك بماله وحاله واستحسن أن أدعو الوجهاء والأغنياء إلى ذلك فقلت له أنت كبير البلد وزعيمها وأنا قد صرت غريباً أو كالغريب لأنني مسافر بعد ثلاثة فإذا لم تقم أنت بهذا العمل لا ينجح . ثم رضي بأن يكون هو الداعي لهم إلى الاجتماع على أنهم متى اجتمعوا أخطب فيهم فإن أجابوا الدعوة التي أوضحها لهم وأبين وجه الحاجة إليها كان هو أول العاملين والمساعدين في التنفيذ .

وأقول ههنا أن رشيد أفندي كرامي مفتي طرابلس على كونه سيد بلده وأوسع أهله ثروة وجاهاً هو أقرب وجهائها وأغنيائها إلى الخير وأبعدهم عن كل شر وأطيبهم نفساً وأبسطهم مع القصد والروية يداً كما يظهر ذلك لمن يعاشره خلافاً لما عليه أكثر الأغنياء في بلادنا ، فهو لا يدع لطالب الإصلاح في العلم أو العمل حجة عليه ، بل يجيب كل داع إلى الخير كعبد الرحمن باشا اليوسف في دمشق ولكن لا يقدم واحد منهما على ابتكار العمل والنهوض به ، بل يقولان مثلما كان يقول هنا حسن باشا عاصم (رحمه الله تعالى) : أوجدوا العمل وطالبوني بالمساعدة أجبكم إليها . وإنما كان هذا يساعد بالعمل وذانك يساعدان بالمال فهما خير أغنياء بلادهما .

كان عذر حسن باشا عاصم الإقدام على الابتكار وإيجاد (المشروعات) هو عدم الثقة بإجابة الناس وثباتهم على العمل ولابن اليوسف في دمشق وابن كرامي في طرابلس مع مثل هذا العذر أعذار أخرى ككثرة أعمالهما وما لا حاجة إلى بيانه الآن من حال البلاد وغير ذلك .

ذهبت في ذلك اليوم (الأربعاء) إلى القلمون فهيأت ثيابي وحاجي وأرسلتها إلى الميناء في يوم الجمعة وعدت إلى طرابلس مع كثرة الأمطار مساء لأن المفتي كان وعدني بجمع الوجهاء ليلة السبت لأجل تأسيس الجمعية الخيرية فألفيته قد أرجأ دعوتهم للاشتغال بانتخاب المبعوث عن طرابلس لأن الولاية أمرت بإتمام الانتخاب يوم السبت ولكثرة الأمطار التي كان يظن أنها تحول دون عودتي من القلمون على قرب المسافة وقال : إن أقرب وقت يمكن أن يجتمعوا فيه إذا نحن دعوناهم بعد انتخاب المبعوث غداً هو ليلة الثلاثاء فرأيت أن أرجى السفر أسبوعاً لأجل إتمام هذا العمل الشريف .



ملخص خطبته

وفي ليلة الثلاثاء اجتمع في دار عمر باشا المحمد نحو من عشرين رجلاً إجابة لدعوة المفتي وهم من وجهاء لواء طرابلس لا المدينة نفسها فقط ، فخطبت فيهم خطبة بينت فيها فوائد الجمعيات وأنواعها وتأثيرها في ترقية البشر في العلوم والأعمال الدينية والدنيوية وكون الخيرية منها من الضروريات التي لا يخلو منها بلد من البلاد المرتقية حتى أن الرجل الإفرنجي إذا مر في سياحته على بلد وأراد أن يبذل شيئاً من ماله لمساعدة فقراء أهله ، فإنه إنما يرسله إلى الجمعية الخيرية في ذلك البد وربما وضع أحدهم حوالة مالية في كتاب وكتب عليه (الجمعية الخيرية) ووضعه في صندوق البريد من غير أن يسأل هل يوجد في هذا البلد جمعية خيرية أم لا ، كأن الجمعيات الخيرية من الأمور الضرورية التي لا يمكن أن يخلو بلد منها . وذكرت ذلك المشعوذ الذي جاء القاهرة وأراد بعد أن ربح بألعابه فيها ربحاً عظيماً أن يخصص ليلة يجعل دخلها للجمعية الخيرية الإسلامية فيها فكان ذلك سبب تأسيس الجمعية الخيرية الإسلامية .

ثم قلت : أيها السادة ، إن حكومتكم قد دخلت في طور جديد فصارت ديمقراطية أمرها بيد الشعب ، بعد أن كانت استبدادية شبه الأرستقراطية بما للأغنياء والشرفاء من النفوذ فيها . واعلموا أن كثيراً من الأحرار الذين انقلبت السلطة الاستبدادية بسعيهم متطرفون في الديمقراطية وأن معم الأحكام ستكون في أيديهم عاجلاً أو آجلاً وأن الشعب سيشعر بهذا فتدب إليه كراهة الكبراء والأغنياء فيكرههم وتنفخ فيه روح الاشتراكية فيهيج عليهم بالفعل . فإذا جاء طرابلس متصرف متطرف من الديمقراطيين الذين أشرت إليهم وكان والي الولاية منهم أيضاً فاعلموا أن ما تعودتموه من الجاه والكرامة في وطنكم لا يبقى لكم إلا إذا كان الشعب يحبكم بتحببكم إليه قبل ذلك وإلا دهوركم وأسقطكم كما فعلت قبله الشعوب الإفرنجية بأولئك النبلاء الذين يملكون أوربا ويتصرفون فيها تصرفاً لم تصلوا إلى مثله من كونت ودوق ومركيز ثم يقوم من طبقات الشعب الدنيا من يتولى الزعامة في البلاد بحق أو بغير حق . وما أظن أن صدوركم تنشرح لتلك الحال ولا أن أعينكم تبتهج برؤيته . وإنني أحب أن تكونوا أنتم زعماء بلدكم في زمن الحرية وتحت ظل الدستور بأن تتحببوا إلى الشعب مذ اليوم بنشر التربية والتعليم فيه ومواساة الفقراء والمساكين من أهله .

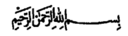
إنني لا أحب الأرستقراطية وإن كنت من بيت شريف ، وإنني ما زلت من دعاة الديمقراطية بلسان السياسة ولسان الدين ، وإنما أميل إلى بقاء زعامة وطني في وجهائه وإياكم أعني لاعتقادي أنه لا يوجد في دهمائه من يصلح للزعامة كما وجد في فرنسا عندما صارت ديمقراطية .

الفرق بيننا وبين فرنسا بعيد ، إن فرنسا كانت قبل ثورتها المشهورة قد استعدت ما لم نستعد بمثله نحن اليوم حتى نبغ فيها من دهماء الشعب من يصلحون للزعامة بعلومهم وأعمالهم وآرائهم وأخلاقهم .

إنني لعلمي بهذا الفرق ولما رأيت في بلاد مصر التي تمتعت بالحرية قبل بلادنا من العبر وهبوط قوم وصعود آخرين أقول ما أقول عن خبرة وبصيرة ، وأحب أن نعتبر نحن العثمانيين بحال الأمة الإنكليزية التي هي أعرق الأمم في الحرية وأكثرهن استفادة منها فهي الأمة التي حافظت على كرامة النبلاء وحرمة البيوتات فيها بعد الديمقراطية الراسخة واستفادت من ذلك كثيراً وأرى أن إسقاط الشعب لكرامة

أصحاب البيوتات منا وتسلق أفراد الطبقات الدنيا للزعامة فينا مع ما هم عليه من الجهل يقف في طريق نهضتنا وأن عناية وجهائنا بحفظ كرامتهم وحرصهم على أن يكونوا هم زعماء الشعب يكون أسرع في تقدمه إذا هم أتوا البيوت من أبوابها فإنهم في الغالب على شيء من الأخلاق والعلم أو الاختبار .

ثم قلت : إن خدمة الأمة والتحبب إليها إنما يكونان بالتعاون على تربية أولادها وتعليمهم ما به قوام حياتهم ومواساة المنكوبين والمعوزين من فقرائها وذلك لا يتيسر إلا بتأليف جمعية خيرية معظم ريعها لإنشاء المدارس وباقية لإعانة المنكوبين والمعوزين وهذا ما أدعوكم إلى الاكتتاب له بلسان فضيلة المفتي الحريص على هذا العمل المبرور الراغب في هذا السعي المشكور وسيجمعكم في ليلة أخرى لأجل المذاكرة في القانون الذي يوضع لذلك وانتخاب الأعضاء العاملين . ثم شرعنا الاكتتاب وافتتحه المفتي في ورقة كتبت في أعلاها ما نصه :



وتعاونوا على البر والتقوى

هذا بيان ما تبرع به الذوات المذكورة أسماؤهم بخطوطهم أدناه لتأسيس جمعية خيرية إسلامية في طرابلس الشام لنشر التعليم الديني والدنيوي على الطريقة العصرية ولإعانة المصابين والمنكوبين المعوزين بمقتضى قانون يجري العمل بموجبه بعد إقرار المكتتبين له في اجتماع خاص وقد جرى هذا في ليلة 16 شوال سنة 1326 للهجرة الشريفة .

أسماء المكتتبين لتأسيس جمعية خيرية إسلامية بطرابلس الشام

ونذكر أسماء المكتتبين مع الألقاب وهم كتبوها مجردة كما هي العادة ونرتبها على حسب قيمة الاكتتاب :

	ليرة عثمانية
مفتي اللواء رشيد أفندي كرامي	100
عمر باشا المحمد من أعيان اللواء	100
عثمان باشا المحمد من أعيان اللواء	300
علي باشا المحمد من أعيان اللواء	200
مصطفى أفندي عز الدين من كبار التجار .	200
عبد القادر باشا الملا رئيس شركة الترام والشوسة .	100
إبراهيم بك الأحمد من الأعيان .	500
أحمد أفندي سلطان وكيل الدعاوي (المحامي) .	500
خير الدين بك عدره من كبار التجار .	500
عبد الحي أفندي الملك من الوجهاء .	500
عبد القادر أفندي القباني البيروتي الشهير (وكان في طرابلس) .	500
عبد القادر أفندي الذوق من كبار التجار .	500
محمد فؤاد أفندي الذوق من كبار التجار .	500
محمد سعيد بك (مميز قلم متكوبجي الولاية) الذي كان وكيل المتصرف يومئذ .	500
محمد كامل بك البحيري صاحب جريدة طرابلس .	500
عبد اللطيف أفندي الغلاييني وكيل الدعاوي .	300
محمود أفندي الحداد من التجار .	300
الشيخ إسماعيل أفندي الحافظ رئيس كتاب المحكمة الشرعية .	200
صبحي بك شريف .	200
عبد الرحمن أفندي أديب من التجار .	100
المجموع	6600

وقد وعدني بعض هؤلاء بأن يدفعوا أكثر مما كتبوا منهم مصطفى أفندي عز الدين والشيخ إسماعيل أفندي الحافظ كما وعد بعض من حضر وكتب اسمه ولم يعين

مبلغاً كعبد الله أفندي الثمين من كبار الوجهاء أصحاب النفوذ الأدبي في اللواء وعضو مجلس الإدارة الآن .

هذا وإن الذين أجابوا الدعوة وحضروا الاجتماع هم زهاء خمس من دعاهم المفتي . وقد أبى حضورها بعض المفتخرين بالمجد التليد الذين يرون أنهم يستغنون به عن المجد الطريف ومنهم من صار يسعى بعد ذلك في إبطال العمل ويثبط عنه وكان لسعيهم هذا تأثير أوقف التنفيذ إلى أجل ولولا ذلك لما ذكرت من أمر هذه الجمعية إلا أن جماعة من أهل الفضل في طرابلس أسسوا جمعية خيرية إسلامية فلهم الشكر والثناء .

يوجد في كل بلد أفراد مجردون من الحب والخير ، ويرون أنهم أهل لأن يوصفوا بكل خير ، ويؤلمهم منظر الخير في غيرهم لأنه بعمله تحلى ما أعوزهم وأعوجهم فهم يقصدون بكل طريق من طرق الخير يصدون عنها ويبغونها عوجاً . لأجل هؤلاء أحب مفتي طرابلس أن لا تؤسس الجمعية الخيرية إلا بعد دعوة جميع الوجهاء حتى لا يعتذر بعد ذلك أعداء الخير بأنهم لا يساعدون هذا العمل لأنهم لم يدعوا إليه عند التأسيس ونعم ما أحب وما رأى .

على أن بعض من دعي ولم يُجب بما ذكرنا وصفهم انتدبوا لإحباط العمل والتثبيط عنه حتى أن منهم من لم يستح من مخاطبة المفتي بذلك ولما لم يجد وجهاً وجيهاً للتثبيط قال له أنه لا ينبغي لسماحتكم أن تقوموا بهذه الجمعية عن دعوة فلان فأجابه المفتي جواب العاقل الفاضل فقال : أولاً : إن هذا العمل خير لا ريب في نفعه وفائدته ، فسواء كان من دعان إليه دوني أو مثلي أو فوقي لا فرق في ذلك ، وثانيا : إن الداعي إلى ذلك هو واحد منا ومن أهل العلم والشرف فينا وليس له منفعة شخصية ولا غرض ذاتي حمله عليه ولا هو يريد الإقامة في هذه البلاد فتقول أنه ينفرد بشرف العمل فيه حباً بالشهرة الخ . . .

إنني لما علمت بمثل هذا القول الذي قيل للمفتي ولغيره كففت عن السعي فيما كنت آخذاً فيه من تأليف لجنة مؤقتة لإدارة العمل والدعوة إليه إلى أن يشترك في الجمعية عدد كثير تتألف منه الجمعية العمومية التي تنظر في القانون وتنتخب من أرادها أعضاء للإدارة . وكنت أسعى إلى من أظن فيهم الخير في بيوتهم ومحال

عملهم . وإنما كففت لأرى ماذا يصنع المعذرون أو المثبطون هل يتفقون مع المفتي وينهضون بالعمل أم يرتاحون إلى السكوت عنه لأنه هو المقصود لهم بالذات؟ فتبين بعد ذلك أنهم لا يريدون إلا إحباط العمل لأنهم لا يعملون الخير ولا يحبون أن يعمله غيرهم .

وقد كتبت في مذكرتي في أوائل شهر ذي القعدة ما نصه : ذكر لي غير واحد من الوجهاء أن نجاح الجمعية الخيرية الإسلامية بطرابلس لا يرجى ، وأن الذين اكتتبوا إنما استحيوا مني وهم لا يعتقدون أنهم يدفعون شيئاً ، بل قالوا : أن المفتي نفسه يسايرني مسايرة ويعدني بأن سيبذل جهده وهو يعتقد أن التقصير سيظهر من غيره . وألح علي (فلان) . . . بأن أترك التشبث بالجمعية . وظهر لي أنه يرى أن ذلك ينفر القوم مني من حيث لا أستفيد مما أريد شيئاً الخ ما كتبته في شأن أفراد معينين من قائل ومقول فيه .

أكتب هذا ليعلم أصحاب النية الصالحة في طرابلس كالمفتي وغيره السبب في اكتفائي بعد ذلك بانتقاء نفر ممن يرجى نجدتهم لإدارة الجمعية مؤقتاً وإيذان المفتي بذلك في يوم الأربعاء 23 ذي القعدة (16 ديسمبر ك 1) بعد دعوة كل واحد منهم على حدته ووعده لي ببذل الجهد في ذلك إلا واحدا منهم (وهو محمود أفندي الملا) قال أنه لا يدخل في العمل إلا بعد أن يشرعوا فيه بالفعل . وإن لي رجاء قوياً في همة المفتي وغيرته وهمة أولئك الأنجاد بأن ينهضوا بهذه الجمعية نهضة صالحة بعد هدوء الاضطراب الذي ضعف الحكومة الجديدة والاستواء على حال ثابتة . وإنني أساعدهم بالقلم من هنا وأكون عوناً لهم على اليائسين الذين لم أكتب ما كتبت الآن إلا ليعلموا أن كيدهم في تضليل [والله يقول الحق وهو يهدي السبيل] .

حقوقنا المهضومة ونائب طرابلس الشرعي



لقد علم القاصي والداني من عثماني وغير عثماني أن حكومة الاستبداد الماضية قد أسرفت في الجور على بيتنا وظلم أهلينا انتقاماً مني (راجع فاتحة السنة الثانية عشرة في الجزء الماضي) وكان من ذلك الظلم أنه لما توفي والدنا تغمده الله برحمته

صرت أنا المستحق بعده للتولية على جامع القلمون الذي جدده فيها جدنا الثالث بحسب نظام التوجيهات الناطق وفاقاً بأن يوجه ما ينحل عن الوالد من الوظائف المتعلقة بالأوقاف إلى أكبر أولاده ولكن حكومة الرشوة والاستبداد وجهت تولية مسجدنا على رجل آخر اسمه عثمان النصري واشتهر أنه أعطى القاضي (نوري أفندي) على ذلك أربعين ليرة فعزل عثمان النصري بعد دعوى ملفقة ووجه التولية على محمود حسن .

فلما أردت السفر من طرابلس إلى مصر قدمت دعوى إلى المحكمة الشرعية ملخصها أن تولية محمود حسن على جامع القلمون غير صحيحة وأنني أنا صاحب الحق في هذه التولية فأطلب توجيهها عليّ عملاً بالنظام ، وإذا فرضنا أن توليته صحيحة فإنني أثبت خيانته بترك معاهد الوقف عرضة للخراب وترك عمارة ما خرب منها في زمن توليته والزيادة في النفقات والنقص من الريع . ووكلت عني وكيلين شرعيين ، ثم تهيأت للسفر فحدث ما ذكر آنفا على التشبث بتأسيس جمعية خيرية ثم جاء نبأ برقي بأن نيابة طرابلس (أي قضاءها الشرعي) وجهت إلى عبد الحميد أفندي الجعفري وأنه سيسافر من الأستانة قاصداً طرابلس ثم لم يلبث أن حضر .

عرضت الدعوى على هذا النائب فقال لي إنني أقول لك وإن كان لا ينبغي للقاضي أن يصرح برأيه قبل الحكم أن حقك ظاهر وأنني سأعيده لك بعد استيفاء المعاملة الشرعية – ولما كنت على ثقة من ظهور هذا الحق اعتقدت أن الدعوى تنتهي في أسبوع أو أسبوعين فأجلت السفر وتابعت سير الدعوى بنفسي وأنا أظن في كل أسبوع أنني أفرغ فيه من الدعوى وأسافر في الذي بعده وكنت عازماً على الإقامة في سورية خمسة أسابيع فقط لكثرة شغلي في مصر فأقمت ستة أشهر والدعوى على حالها يزيدها النائب كل يوم تعقيداً .

إنني لم أكد أجالس هذا القاضي مرتين أو ثلاثاً إلا وقد جزمت بأنه سيهان في طرابلس إهانة لم يسبق لها نظير ، فكنت حريصاً على إنجاز قضيتي قبل ظهور حقيقة حاله التي تقتضي ما توقعته بالفراسة وكاشفت به غير واحد ولكن هذا القاضي لا ينجز عملاً لمن يعتمد مثلي في نيل حقه على أنه محق وقادر على إثبات حقه .

أنشأ هذا يؤجل جلسات الدعوى ويحث وكيلَي الخصمين على كتابة ما شاء في

جريدتها ويماطل في قراءة ما كتبا وقد ثبت لديه أن تولية المدعى عليه غير صحيحة وأنه خائن تارك للعمارة الواجبة شرعاً كما تبين بالكشف من قبل المحكمة وشهادة الشهود ومع هذا لم يحكم بشيء حتى آن الأوان وضج الألوف من الناس بالشكوى منه واجتمعوا عند المحكمة وهم ألوف ينادون فليسقط القاضي الخائن المرتكب ، وشكوا أمره للمشيخة الإسلامية فأمرت بالتحقيق وهم يشكون منه أموراً كثيرة ذكرت في جريدة لسان الحال وغيرها منها التطويل في المرافعات وعدم الحكم فيها بعد انتهائها ، كما حدث معنا حتى امتنع الوكلاء (المحامون) عن المجيء إلى المحكمة ، ومنها أنه قد يحكم ثم يرجع بحكمه بعد كتابته ، ومنها كراهته للحكومة الدستورية واعتزازه بكونه من جمعية (فدا كاران ملت) وقد علمنا بعد ذلك أنه كان نائباً في صيدا فأحدث فيها فتنة حتى هرب منها ليلاً وأن ذلك شأنه في كل بلد كان فيها حاكماً .

الرّحلة الثانية

تمهيد



هاجر صاحب مجلة (المنار) من الديار السورية إلى الديار المصرية في شهر رجب سنة 1315 عقب انتهائه من طلب العلم في طرابلس الشام وأخذه شهادة التدريس (العالية) لأجل القيام بعمل إصلاحي للإسلام والشرق، لا مجال له في بلد إسلامي عربي غير مصر، والاستعانة عليه بصحبة الأستاذ الإمام (الشيخ محمد عبده) والاقتباس من علمه وحكمته، والوقوف على نتائج اختباره وسياحته، وعمله مع حكيم الشرق وموقظه من رقدته، (السيد جمال الدين الأفغاني) قدس الله أروحهما. وكنت قبل ذلك أمني نفسي بالالتحاق بالسيد الحكيم ولزامه، ومرافقته في ترحاله ومقامه، فلما توفاه الله تعالى إليه نضيت عني رداء التمني والتواني، وقلت لئن فاتني لقاء المعلم الأول فلن يفوتني لقاء الثاني «أطلق لقب المعلم الأول عند المشتغلين بالحكمة العربية اليونانية على الحكيم أرسطو والمعلم الثاني على الرئيس ابن سينا»، وأنشأت (المنار) في أواخر تلك السنة ولم أكن أنوي أن أشتغل بالسياسة ولا بالإصلاح الفكري والنفسي والاجتماعي، ولكن السياسة السوء عدوة الإصلاح ترى بقاءها بفقده وحياتها بموته، فهي لا تترك القائم به إذا هو تركها. وقد كان دعاني عبد القادر أفندي القباني صاحب جريدة (ثمرات الفنون) - إذ كاشفته

في بيروت بعزمي على السفر إلى مصر وإنشاء صحيفة إصلاحية فيها - إلى رياسة التحرير لجريدته فقلت له ليس في البلاد حرية تمكنني من ذلك . قال : اترك الطعن في السلطان واكتب في الأخلاق والآداب ما تشاء فلا تجد مانعاً ولا معارضاً ، قلت : أرأيت إذا بحثت في الكذب الذي هو شر الشرور على الإطلاق وبينت أن أكبر أسباب فشوه وانتشاره هو الاستبداد المانع من قول الصدق ، والمعاقب على التزام الحق ، أيمكنني أن أنشر هذا في الجريدة وأكون آمناً من عقاب الحكومة؟ قال : كلا إن أمثال هذه المباحث لا يمكن نشرها في غير مصر فعجل بالسفر ولا تخبر بعزمك أحداً لئلا يصل الخبر إلى الوالي فيمنعك منه .

صادرت حكومة سورية العدد الثاني من المنار بعد توزيعه ، لمقالة فيه عنوانها (القول الفصل في سعادة الأمة) ليس فيها ذكر لحكومتها ولا لغيرها من الحكومات بسوء ، ثم صدرت إرادة السلطان عبد الحميد بمنع المنار من دخول مملكته في الشهر السادس من عمره وتلا ذلك اضطهاد والدي وأخوتي لأجلي بعد خيبة سعي السياسة لإخراجي من مصر ، وعرض ما أحب من المناصب والوظائف العلمية أو غيرها في ديار الشام أو غيرها ، وبذلك حرمت من زيارة وطني إلى أن أعلن الدستور سنة 1327 فزرته عقب إعلانه إذ كانت البلاد ترقص به طرباً والناس يحتفلون فيها لإظهار سرورهم بالخطب والأناشيد ، ويحتفون بمن يعود إليهم من المهاجرين المجاهدين ، والأحرار المنفيين وأشباه المنفيين ، ويتحاورون ويتناجون بما يجول في خواطرهم من الأماني والآمال ، وما يرجون من كبار الأعمال ، ويقدسون جميعة الاتحاد والترقي ويطرون من عرفوا أسماءهم من زعمائها ، ويكرمون كل من لقوا من أعضائها .

قد علم قراء المنار في ذلك العهد أنني كنت بإعلان الدستور مسروراً لا مغروراً ، وراجياً خائفاً ، لا راجياً متمنياً ، ولكنني رأيت الناس في البلاد العثمانية سكارى من تأثير ذلك الانقلاب ، أكثرهم يحسب أن البلاد سعدت سعادة لا شقاء بعدها ، وأقلهم منزعج متعض لما فاته من المال والجاه في ظل الحكومة الحميدية وهم أعوان تلك الحكومة وجواسيسها . وقد أشرت إلى أسباب خوفي ومثاراته في أول مقالة كتبتها في الترحيب بالانقلاب وأهمها توقع استبدال رجال الثورة من الاتحاديين وقيامهم بالعصبية الجنسية ودعوى (الحاكمية التركية) والغلو في الحرية .

لذلك كانت نصيحتي لأهل بلادي السورية التي أبثها في الأندية والسمار ، وأودعها أكثر الخطب السياسية والأدبية هي تذكيرهم بما يجب من العناية بالعلم واللغة العربية والتهذيب والثروة ، ليكونوا أحياء أعزاء بأنفسهم ، وعضواً رئيساً في بنية دولتهم ، وقد رجوت أن أجد ثلة من الشبان المفكرين والكهول المحنكين ، أولي عزيمة وشكيمة وأخلاق قوية ، ينهضون بذلك متعاونين فلم أجد عند أحد أملاً في العمل للأمة من طريق الأمة ، بل وجدت الأعناق كلها متطلعة إلى الحكومة والآمال كلها موجهة إليها محصورة فيها ، فحزنت حزناً شديداً ونبهت الجمهور إلى غرورهم بالحرية الموهومة والسعادة التي يتمنونها من إعلان الدستور في مجالس كثيرة ، كان أوضحها وأظهرها خطبة ألقيتها في نادي الجمعية العثمانية في بيروت في احتفال كبير دعيت إليه ، عرضت فيها بتلك الاحتفالات العظيمة بالحرية وشبهتهم فيها بعاشق أم عمرو ، إذ هام صبابة بها وهو لم يرها ، ولا شاهد شيئاً من محاسنها ، وإنما سمع رجلاً ينشد في الطريق :

يا أم عـــمـــرو جـــزاك الله مكرمـــة
ردي علـيَّ فـــؤادي أينـمـــا كـــانا

فاستنبط من هذا البيت أن أم عمرو أجمل السناء وأجدرهن بأن تعشق فعشقها ، ثلم لم يلبث أن أخذه من الحزن والجزع لفراقها ، بقدر ما أصابه من الشغف والصبابة بها ، لبيت آخر من الشعر سمعه من رجل آخر مار في الطريق فاستنبط أنها ماتت وهو :

لقـــد ذهب الحـــمـــار بأم عـــمـــرو
فـــلا رجـــعت ولا رجع الحـــمـــار

هكذا صرخت بأولئك الجماهير ، أنني أخشى أن تكونوا رقصتم طرباً وهمتم سروراً بحرية موهومة ، وأن ينتهي الأمر بيأسكم منها وبكائكم عليها قبل أن تروها ، وتتمتعوا بما ترجون من السعادة بها ، وهكذا كان ، ووقع ما كان عندي ولم يكن عند الجمهور في الحسبان ، ولم يحل الحول على تلك الحرية الاتحادية وتقديس جميع الشعوب العثمانية لرجال جمعية الاتحاد والترقي حتى نجم في الجمعية قرنا الاستبداد والعصبية التركية ، فنطحت بها الحرية والدستور وآمال الشعوب العثمانية فيهما حتى قضت عليهما ، فلم يبق لهما في البلاد العثمانية عين ولا أثر ، وما

انقطعت آمال هذه الشعوب من الدولة التي دانوا لسلطانها عدة قرون إلا وتجددت لهم آمال أخرى في حياة الاستقلال القومي ، بل صاروا يفضلون الزوال على الخنوع لاستبداد هذه الجمعية المغرورة المتهورة المتكبرة .

كانت الدولة العثمانية في القرون الأخيرة ، التي قويت فيها دول أوربة واعتزت ، وتواطأت على استعباد الشعوب الآسيوية والأفريقية ، هي الدولة الإسلامية الوحيدة المعترف لها بالحقوق الدولية معهم ، لذلك كان حرص المسلمين على بقائها وإعلاء شأنها عظيماً جداً ، وكان تعلق الشعوب الإسلامية بها أكبر قوة لها في نظر دول أوروبة بما كانت تتقي إيقاظ شعورهم السياسي بما يوحيه إليهم من الوحدة والاستقلال . ولم تكن لهذه الدولة هذه القيمة إلا بكون بلاد العرب التي هي مهد الإسلام وموطن نشأته الدينية والمدنية جزءاً طبيعياً منها ، ولكن الاتحاديين المستكبرين احتقروا العرب وبلادهم ودينهم فلم يرقبوا فيهم ولا ذمة ، ولا ديناً ولا حرمة ، فاضطهدوهم وأذلوهم ، وحاولوا إبطال لغتهم التي هي لغة كتاب الله ودينه استغناء عنها ومحاولة لنسخها باللغة التي جعلوها لغة (حاكميتهم الملية) وجعل بلادهم الخصبة كسورية العراق تركية محضة وجزيرتهم مستعمرة للترك يتصرفون فيها تصرف المالك في عقاره والسيد في عبيده وإمائه .

فلما رأيت بوادر هذه السياسة الاتحادية السوءى رحلت إلى الآستانة ديار الملك ساعياً لتلافي خطرها ، وإيقاف ما كاد يستشري من ضررها ، قبل أن يتسع الخرق على الراقع ، فمكثت في دار الملك سنة كاملة أَطْلعُ طِلْعَ[6] القوم بمحاورة زعمائهم ووزرائهم ، ومذاكرة علمائهم وعقلائهم ، وما عدت من تلك العاصمة إلا وأنا موقن بأن هذه الجمعية ستقضي على هذه الدولة ، وأن اضطهادها بسلطة الحكومة للعرب سيعيد إليهم عصبيتهم الجنسية التي فقدوها في بلاد حضارتهم كسورية والعراق ، وعولت على السعي لجعل القاعدة التي يرفع عليها بناء النهضة العربية هي العلم والثروة والوحدة حتى لا تتوقف حياتهم على حياة هذه الدولة ولا يموتوا بموتها ، مع الحذر من أن يكونوا باختيارهم سبباً من أسباب سقوطها ، والاجتهاد في مولاة

(6) قوله : أطْلع طلع القوم : أي أتعرف على باطن أمرهم ، يقال : اطلع طلع العدو ، أي عرف باطن أمره (الوراق)

الشعب التركي والتعاون معه على مكافحة النزعات الإلحادية والنزعات المادية ، وقد أسس في أثناء إقامتنا في الآستانة (المنتدى الأدبي) لجمع كلمة شبان العرب المشتغلين بتلقي العلوم والفنون في مدارسها والتعاون على طلب العلم والتعارف والتآلف في سبيل الارتقاء .

بعد العودة من الآستانة بأشهر رحلت إلى (الهند) فمسقط فالكويت فالبصرة فبغداد فسورية واتفق بعد وصولي إلى سورية أن ظفر حزب الحرية والائتلاف في الآستانة بحزب جمعية الاتحاد والترقي في مجلس المبعوثين وما كان الفلج لهذا الحزب إلا بتألفه من أحرار العرب ومنصفي الترك وكانا حزبين فاتحدا وصارا حزباً واحداً ، فرأيت السواد الأعظم من السوريين فرحين مغبوطين بخذلان الاتحاديين بقدر ما رأيت قبل ثلاث سنين من اغتباطهم بهم وافتخارهم بالانتماء إليهم ، وانتمى الأكثرون منهم إلى الائتلافيين خصومهم ، وخفتت أصوات من بقي من أتباعهم ، فكان الألوف من الناس يجتمعون في الأندية والمحافل يتبادرون في إلقاء الخطب والقصائد في الطعن فيهم والتشفي منهم ، بعد أن كانت تلقى في الفخر بهم والثناء عليهم ، وابتغاء الزلفى عندهم والوسيلة إليهم .

ثم أديل لهم من خصومهم الائتلافيين في عاصمة الملك فنكلوا بهم فيها شر تنكيل ، ولم ينج من زعماء هؤلاء الخصوم إلا من فر متنكراً إلى أوربة أو مصر (ومنهم أمير ألالاي صادق بك والأستاذ حسن صبري أفندي ورشيد بك ناظر الداخلية) وكان ذلك كله في أثناء حرب البلقان التي انكسرت فيها الدولة العثمانية حتى كادت دولة البلغار الجديدة تأخذ القسطنطينية منها عنوة ، ولولا ما أصاب الدولة منها من الضعف والوهن ، وما كان في أثنائها من سحب قواها العسكرية من الولايات العربية لانتقم الاتحاديون ممن أظهروا لهم العداوة في البلاد العربية ، ولا سيما الذين ألّفوا الجمعيات الوطنية كما انتقموا من أعدائهم في العاصمة ، ولكنهم لضعفهم أسرّوا الكيد ، وكظموا الغيظ والضغن ، وأظهروا الميل إلى الإصلاح والجنوح إلى الصلح ، وكان من أمرهم في إبان انعقاد المؤتمر السوري في باريس ما هو معروف ، وفي استمالة طالب بك النقيب بعد محاولة اغتياله أن توسلوا به إلى الاتفاق بينهم وبين الأمير ابن سعود .

وقبل الانتهاء من تمثيل دور الاتفاق بينهم وبين ممثلي الحركة السياسية من العرب في العاصمة (وفي مقدمتهم أصدق أخلائنا وأشعري سياستنا السيد الزهراوي وباقعة شباننا عبد الكريم الخليلي) اشتعلت نار الحرب الأوربية الكبرى ولم يلبثوا أن أصلوا الدولة العثمانية سعيرها ، وأحرقوها بشرر شرورها ، وفي أثنائها اختاروا لقيادة فيلق سورية (منبت النهضة العربية) أشد زعمائهم قسوة وأغلظ قوادهم قلباً وأضراهم بسفك الدماء أحمد جمال باشا الذي نكل بخصومهم الائتلافيين في العاصمة ذلك التنكيل الفظيع ، ومنحوه السلطة المطلقة فخادع أهل البلاد أولاً بإظهار الميل إلى العرب والرغبة في مساعدة النهضة العربية ، وجعلها عوناً وظهيراً للنهضة التركية ، تأييداً لما يضمهما من الجامعة الإسلامية ، وما زال ينتقل منهم في الذروة والغارب ، إلى أن عرف أصحاب الأفكار المدبرة ، والفصاحة المؤثرة ، وأولي المبادئ الثابتة ، والعزائم الصادقة ، ثم مادّهم في المخادعة إلى أن جمع الجيوش من البلاد وقذف ببعضها جيوش الروسية في حدودها الزمهريرية ، وألقى بالبعض الآخر في أتون ملحمة الدردنيل الكبرى ، ومكن لنفسه في البلاد- بعد هذا كله بطش تلك البطشة الكبرى تقتيلاً وتصليباً للأفراد النابغين ، وتشريداً وتغريباً للأسر والبيوتات وللأغنياء والوجهاء ، وتلا ذلك نكبة المخمصة المجتاحة ، في إثر المصادرات الكثيرة للأموال الناطقة والصامتة ، حتى أكل الناس الأقذار والجيف ، بل أكلت الأمهات أولادها ، وهو يرى ويسمع ، ويتمتع ويفسق ويفجر ، وينهى ويأمر ، وفعل أقرانه وأقتاله[7] في العراق نحواً مما فعل في سورية ، فأيأسوا الأمة العربية من الدولة العثمانية ، واضطروها إلى إعلان الثورة في البلاد الحجازية ، فكانت من أسباب تقليص ظلها عن رؤوسهم وزوال سلطانها من بلادهم ، ولكنه سبب اضطراري ، لا مقصد اختياري ، وإنما كان القصد حياة العرب بالحرية والاستقلال ، لا إماتة الترك بأيديهم ، ولا إماتة أنفسهم تحت أرجلهم ، ولا مجال في هذا التمهيد للإشارة إلى شيء من وصف هذه الثورة ولا بيان ما عرفنا منها وما أنكرنا ، وإنما نختمه بأن الحرب العامة انتهت باحتلال جيش الثورة مع جيوش الحلفاء للبلاد السورية بعد مرور بضعة أشهر على استقرار الاحتلال ،

---

(7) الأقتال جمع قتل بكسر القاف : النظير ـ (الوراق) .

وتبدل الأحوال ، وتيسرت لنا الرحلة الثانية إلى هذه البلاد ، وسنبين ما نرى فيه الفائدة والعبرة مما رأينا وسمعنا[8] فيها ، وموعدنا الأجزاء الآتية من المنار .

لما عقدت الهدنة بين دول الأحلاف والدولة الألمانية منّى نفسه كل من له أهل في سورية وكل من يهتم بشؤونها الاقتصادية والسياسية أن يسافر إليها في أول فرصة ، وصاروا ينتظرون الإذن بالسفر إليها وعودة البواخر التي تنقل الركاب وعروض التجارة إلى سابق عهدها .

وبعد طول الانتظار وقع الإذن مقيداً بشروط عسيرة ومقيداً بقيود ثقيلة زمامها بأيدي السلطة العسكرية المتصرفة في الشؤون السياسية والاقتصادية في العالم تصرفاً مطلقاً والمراقبة على مواصلات البر والبحر ، فكان مثلي لا يطمع أن يكون من السابقين إلى رؤية وطنه والقيام بشيء من خدمته أو مواساة أهله فيه وعشيرته ، بل تعذر عليّ إيصال ثلاثة (طرود) من الأقمشة إلى فقراء أهل بلدتي (القلمون) الذين ذهب الجوع والعري في أيام الحرب بثلثيهم ، فإنني بعد أن ابتعت القماش ظللت عدة أشهر أسعى إلى إرساله بإذن من السلطة الفرنسية التي أعطيت الإشراف على المواصلات والنقل في البحر مع بقاء السلطة العليا في البر والبحر للسلطة الإنكليزية بحق القيادة العليا للجيوش المحاربة في سورية الجنوبية (فلسطين) والشمالية ، ثم بواسطة لجنة المجاعة التي أرسلت بمساعدة السلطة الإنكليزية كثيراً من المواد الغذائية والأقمشة بعد إعطائي الطرود للجمعية بأشهر تمكنت هي من إرسالها إلى وكيلها في بيروت فبقيت فيها أشهراً ثم أرسل بعضها إلى طرابلس ففقد بضعه ولم يصل باقيها إلا بعد وصولي إليها في خريف العام الماضي ، فكان ما أردت أن يكسى به الفقراء في شتاء 1919 كساء لهم في شتاء السنة التي بعدها .

احتلت جيوش الأحلاف جميع البلاد السورية ، وطفقوا يمهدون السبل لتوطيد نفوذهم وسلطانهم فيها على قواعد معاهدة سنة 1916 -الإنكليز في الجنوب والفرنسيس في الغرب الشمالي والعرب الحجازيون في الشرق منه . ولكن مراقبة المواصلات بين سورية وبين مصر وسائر الأقطار كانت مشتركة بين الفرنسيس محتلي المنطقة الغربية والإنكليز المحتلين للمنطقة الجنوبية وحدهم والمشاركين للعرب

(8) في الأصل (بما رأينا تسمعنا فيها) والتصرف من (الوراق)

والفرنسيس في احتلال المنطقتين الأخريين ، ولم يكن للعرب من هذه المراقبة شيء ، فلم يكن لي أن أزور البلاد بنفوذهم . بل كتب إليّ علي رضا باشا حاكم المنطقة الشرقية العسكري كتاباً ذكر فيه أنهم ينتظرون قدومي كانتظار الظمآن للماء وأنه طلبني وهو يتعجب من عدم استجابتي فكتبت إليه أنه لم يبلغني ما ذكر من طلبهم إياي وأن أمر سفري ليس بيدي . . . ثم أخبرني بعد لقائه في الشام أنه طلبني خمس مرات . . .

إنني لم أطمع في الإذن لي بزيارة سورية إلا بعد استفتاء اللجنة الأميركانية أهل سورية في شكل الحكومة التي يرضونها لبلادهم والدولة التي يختارونها لمساعدتهم .

وعلة هذا ظاهرة لا تحتاج إلى بيان ، فلما سنحت لي الفرصة بعد هذا الاستفتاء وإظهار الشعب لرأيه سعيت إلى أخذ الجواز بالسفر إلى الشام من طريق سيناء وفلسطين فتيسر لي مع المساعدات أخذ هذا الجواز في مدة ثمانية عشر يوماً بعد أخذ عهدٍ كتابي عليّ بأمور سلبية ترجع إلى أمر واحد هو عدم القيام بتهييج سياسي .



السفر من القاهرة

سافرت من القاهرة مساء الجمعة السابع عشر من شهر ذي الحجة ختام سنة 1337 (الموافق 12 سبتمبر أيلول 1919) ولما جئت محطة السكة الحديدية وجدت فيها صديقي رفيق بك العظم جاء لتوديعي فيمن جاء من الأصدقاء ، فأخبرني أنه قد جاءت برقية من دمشق تفيد أن الأمير فيصلاً (ملك سورية اليوم) قد سافر من الشام عن طريق حيفا ليسافر منها إلى أوربة فساءني ذلك جد الاستياء لأن لقاء الأمير في ذلك الوقت كان هو المرجح الأول لسفري إلى دمشق مباشرة دون بيروت وطرابلس ، ولعله لو أخبرني بذلك قبل شروعي في السفر لأرجأته ، ولكن إبطال العمل بعد الشروع فيه مفسد للعزيمة مضعف للإرادة ، وقد قال تعالى لرسوله [فإذا عزمت فتوكل على الله] وقال عز وجل [لا تبطلوا أعمالكم] .

ركبت القطار السريع فسار باسم الله في الساعة 6 والدقيقة 15 فوصل إلى محطة القنطرة الساعة 10 والدقيقة 10 أي بعد أربع ساعات تقريبا ، وهنالك نقل الحمالون

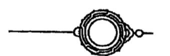
متاعنا إلى حيث تنظر الجوازات ، وبعد التوقيع عليها ينقل المسافرون ومتاعهم في سيارات نقل تجتاز الجسر الذي وضع هنالك على ترعة السويس إلى موقف قطار سيناء وفلسطين في الضفة الشرقية ، وقد علمت أن خط مصر اتصل بعد ذلك بخط فلسطين فاستراح المسافرون من ذلك النقل المزعج . وصلت إلى محطة فلسطين فإذا بديع أفندي الحوراني ضابط قلم المخابرات ينتظرني فيها لأجل مساعدتي ، فتولى هو أخذ تذكرة السفر لي بالدرجة الأولى ووضعي في مركبة ليس فيها زحام ، وهو نجل إبراهيم الحوراني العالم الأديب البيروتي الشهير فما رأيته فيه من المروءة والأدب يجري فيه على عرق راسخ ووراثة ثقفت بالتربية والتعليم ، وعلمت منه أنه كان يتوقع حضوري يوم الخميس في القطار الذي يقوم من القاهرة الساعة 11 قبل الظهر .

لم يكن السفر في الدرجة الأولى من قطارات هذه السكة بالأمر اليسير ، وكنت علمت ذلك مما كتبه سليم أفندي سركيس الكاتب الشهير في جريدة الأهرام عن رحلته قبلي إلى الشام ، فإنه ذكر أنه أخذ تذكرة للركوب في الدرجة الأولى فأركبوه في الدرجة الثالثة لحاجة الضباط الإنكليز إلى الدرجة الأولى والثانية ، لذلك سعيت إلى توصية من السلطة العسكرية الإنكليزية بأن أركب في الدرجة الأولى فعلاً فنلتها ونفذها الحوراني أحسن الله مكافأته . وثمن هذه التذكرة 282 قرشاً مصرياً صحيحاً يركب بها المسافر إلى نهاية الخط وهو مدينة حيفا .

سافر بنا القطار الساعة 11 والدقيقة 35 وكان سيره بطيئاً ووقوفه كثيراً ، وعلمنا في الصباح أنه تأخر ساعتين عن موعده . وفي ضحوة النهار (السبت) وقف تجاه مدينة غزة الشهيرة التي أحدثت فيها الحرب خراباً عظيماً ووصل إلى (اللد) الساعة 8 والدقيقة 15 وسار منها الساعة 9 وبضع دقائق فوصل إلى حيفا الساعة 12 والدقيقة 15 نهاراً . فإذا كان القطار تأخر بنا ساعتين كما قيل تكون مسافة سينا وفلسطين إلى حيفا تسع ساعات وثلث ساعة . وهذا الخط قد أنشأته السلطة العسكرية في أثناء الحرب بسرعة عجيبة اقتضتها الضرورة فلم يكن متقناً وقد علمت أنه يحتاج إلى إصلاح يكون به الخط أقوم وأقصر .

قطعنا نصف نهار يطوي بنا القطار أغوار سورية الجنوبية (فلسطين) وأنجادها فلم نر شيئاً من أرضها يدل على العناية الفنية في إنشاء البساتين والكروم إلا ما في مزارع

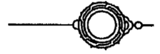
اليهود الصهيونيين . ورأينا ما مررنا به من الزيتون خالياً من الحب لأن موسمه في السنة الماضية كان عظيماً .



السفر من حيفا بسكة الحديد الحجازية

انتقلنا عقب وصولنا إلى حيفا من قطار سينا وفلسطين إلى قطار سكة الحديد الحجازية ومركباته أحسن من مركبات ذاك ، وأخذ بعض الحمالين لي تذكرة السفر منها إلى (معان) في الدرجة الأولى بمئة قرش وستة قروش مصرية ، وتحرك القطار الساعة 12 والدقيقة 35 فوصلنا إلى طبرية (س 3 ق 15) وبعد تجاوزها صار سيره في أودية يهبطها وجبال يتسلقها ، وكان يقف مراراً لسوء الوقود وخلل الآلات ، وليس في مركباته مصابيح فكنا أول الليل في ظلام ، ثم طلع القمر فأنسنا به ، ووصل القطار إلى معان (س 12 ق 30 فكانت المسافة 12 ساعة وقد قيل لنا أنه تأخر عن موعده ساعتين كسابقه .

وفي محطة معان مطعم كبير للمسافرين ، والقطار مكث فيها ريثما يتعشى من شاء من المسافرين ويأخذ القطار طعامه وشرابه من الفحم والماء ، وقد مكثنا نصف ساعة أو أكثر تعشينا فيها ثم استأنفنا السير إلى دمشق فبلغناها (س 2 ق 20) أي قبل الفجر بقليل .



دمشق وفنادقها

بعد وصولنا إلى محطة دمشق ببضع دقائق كنا في فندق (فيكتوريا) وهو أقرب الفنادق إلى المحطة وأشهرها وأغلاها أجرة ، فلم أجد فيه غير حجرة في الدور الأول لا يتخللها الهواء ولا النور ، أبيتها فوعدت بتبديلها في النهار ، وسألت الخدم عن حمام الفندق فقيل أنه ليس فيه حمام ولا رشاش ماء (دوش) ولا حنفية ماء لغسل اليدين والرأس فغسلت رأسي في طشت الحجرة وتوضأت وصليت المغرب والعشاء جمع تأخير ونمت ما بقي من الليل .

ولما أصبحت استنجزت الوعد بتغير الحجرة فلم أجد حجرة صحية بل قيل لي أن بعض النازلين فيها سيسافرون فتخلو حجرهم ، ولما حضر طعام العشاء وجدت الماء على المائدة غير مثلوج فسألت : ألا يوجد في الشام ثلج؟ قيل بلى إن فيها ثلجاً وجليداً طبيعياً صناعياً ولكن صاحب الفندق منع استعماله اقتصاداً فعزمت على الخروج من هذا الفندق بعد رؤية أشهر الفنادق الكبرى واختيار أمثلها ، ولكنني لم أستطع الخروج في اليوم الأول لأن بعض من رآني أخبر غيره بأنني جئت الشام ونزلت في (فيكتوريا) فجاء كثير من الوجهاء لزيارتي ، وفي اليوم الثاني كان الزائرون أكثر ، ولكنني انتهزت فرصة طفت فيها على الفنادق القريبة فرأيت أمثلها فندق الشرق أو (الخوام) الملاصق لفندق فيكتوريا فانتقلت إليه ، وفضلته بوجود مكان فيه للاستحمام ووجود الماء في بعض مراحيضه ووجود باحة خلوية في وسطها بركة ماء ووجود الماء المثلوج فيه . وأي المزايا خير من مزايا الماء والهواء؟ نعم إن فندق فيكتوريا- ومثله فندق (دمسكوس بلاس) أدفأ في الشتاء من فندق الخوام ، والأول أنظف ولكن القيود فيه أشد وأثقل .

الزيارات وردُّها وأحاديثها



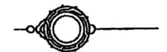
زارني من لا أحصي من رجال الحكومة والعلماء والأدباء والوجهاء ، فمنهم من عرفتهم بشخوصهم أو مناصبهم ومنهم من لم أعرف ، وما كان رد الزيارة لكل منهم ممكناً ، وليس عند أهل الشام من التسامح والتساهل في هذا الأمر ما عند أهل مصر وأهل بيروت ، فاكتفيت برد الزيارة إلى الحاكم العسكري العام والقاضي والمفتي وبعض العلماء والوجهاء الذين عرفتهم كمحمد فوزي باشا العظم وعبد القادر باشا المؤيد واعتذرت للآخرين في الجرائد مع الشكر لهم . وأما خواص إخواننا وأصدقائنا فقد جمعتنا بهم المآدب والسمار في مجالس حافلة من دورهم العامرة كدار الأستاذ الشيخ كامل قصاب ودار البيطار ودار المارديني وغيرها ، وكان جل حديثنا في تلك المجالس البحث في أهم المسائل الدينية والعلمية والاجتماعية ، وقد عودني الناس من أول العهد بدخولي في الحياة العلمية إلى اليوم أن يسألوني عن المشكلات الدينية ولا

سيما المسائل التي يتعارض فيها الدين مع العلوم والفنون وشؤون العمران . وقد كان حظي من هذا في رحلتي هذه على ما أعهد في سائر البلاد ولكن أكثر مباحث الناس معي في هذه الرحلة كان في المسائل السياسية ما هو واقع منها وما يتوقع .

معاهدة سنة 1916

اتفق أن أعلن كل من دولتي إنكلترة وفرنسة عقب وصولي إلى الشام أنهما اتفقتا نهائياً على تنفيذ معاهدة (سايكس بيكو) المعروفة بمعاهدة سنة 1916 وأن إنكلترة ستخرج جنودها من المنطقتين الشرقية والغربية من سورية ، وتترك الأولى للجيش العربي الحجازي والثانية للجيش الفرنسي ، وما كان حملها للأمير فيصل على السفر إلى أوربة في هذه المرة إلا تمهيداً لهذا العمل .

وكان أهل سورية عامة يظنون قبل هذا الإعلان أن الدولتين الحليفتين قد عدلتا عن تنفيذ تلك المعاهدة ، لما رأوه من التنازع بين رجالهما في النفوذ أيام وجود اللجنة الأمريكية في سورية وسعي كل منهما في كل منطقة من المناطق الثلاث لكسب أصوات الأهالي في طلب انتدابهم لمساعدة البلاد أي لاستعمارها بهذا الاسم الجديد الذي وضع في قاموس السياسة بعد العلم بنفور الناس كافة من الأسماء الأخرى التي ابتذلت وزال انخداع الناس بها كلفظ الحماية والاحتلال الموقت ، فلما أعلنت الدولتان اتفاقهما كبر وقعه وعظم صدعه في قلوب الجماهير الذين خدعوا بذلك التنازع ، وظنوا أن إنكلترة تفضل العرب على فرنسة ، فكان كل من زارني منهم يسألني عن رأيي في هذا الحدث الجديد في السياسة الإنكليزية فكنت أقول : إنكم ترونه جديداً وأراه غير جديد ، إن السياسة الإنكليزية ثابتة وما كان لعاقل أن يظن أنها تفضل العرب على فرنسة ، وإنما عرض لفرنسة أمل جديد أحدثه إجماع السوريين في بلادهم وفي مهاجرهم كلها على وحدة سورية وعدم تقسيمها إلى ثلاث مناطق مختلفة الإدارة والسلطة فحسبت أنه يمكنها جعل هذا وسيلة لإعطائهم سورية كلها .



لم أسمع من أهل دمشق من أخبار الجوع والعري إبان مخمصة الحرب إلا قليلاً من كثير ما سمعت من أهل لبنان والساحل ، فدمشق كجزيرة في بحر عظيم من الجنات والبساتين ، وأجنادها ورساتيقها ذات خصب عظيم ، ولم يكن للترك من السلطات على اهراء غلالها في حوران وجبل الدروز ما كان لهم على غلال لواء طرابلس وحمص وحماه ، بل كانوا يشترون القمح من الدروز بالثمن الغالي ويدفعون ثمنه من الذهب الأحمر لا من ورق النقد الذي ما كان يروج إلا بثلث قيمته أو ربعها - فلهذا لم يكن شد خناق المجاعة على أهل دمشق محكماً كخناق لبنان وبيروت وسائر السواحل ، لذلك كان أكثر من مات فيها جوعاً من الذين هاجروا إليها لا من أهلها ، على أن الكثير منهم قد باعوا أثاث بيوتهم وجميع ما يملكون وبذلوه في ثمن القوت .

وأما ما جرى في السواحل وجنوب لبنان ولا سيما قضائي المتن وكسروان منه فهو فوق ما كانت تشرحه الجرائد في مصر ويظنه أكثر أهلها من المبالغات التي يقصد بها الطعن في حكومة الترك ، فالحق أن كل ما وصفته كان دون الذي وقع ، وقد ثبت عندي أن بعض الناس كانوا يأكلون كل ما يجدونه في المزابل والطرق رطباً يمضغ أو يابساً يكسر ، وثبت عندي أكل الناس الجيف حتى ما قيل من أكل بعض النساء لحوم أولادهن والعياذ بالله تعالى .

وأخبرني كثيرون في بيروت وطرابلس أن الناس كانوا يرون الموتى في الشوارع والأسواق والمشرفين عل الموت من شدة الجوع ولا يبالون بهم ولا يرثون لأنين المستغيثين منهم ، فقد قست القلوب وكزت الأيدي حتى من الذين كانت تتضاعف ثروتهم من الاحتكار الذي ضاعف البلاء وعظم به الشقاء ، فقد كان هؤلاء وغيرهم من الموسرين تستطاب لهم الألوان المتعددة ، وكانوا يقيمون المآدب للولاة وقواد الجيش الذين صبوا كل هذا العذاب على الأمة والبلاد حتى الطاغوت جمال باشا . وأما حفاوتهم بأنور باشا ومن زار البلاد السورية معه فلم يسبق لها نظير في أيام الرخاء .

وكان الحكام ورؤساء البلديات يهتمون بنقل جثث الموتى والمشرفين على الموت من الطرقات التي يمر فيها أنور باشا أو جمال باشا أو والي بيروت لئلا يتألم شعوره الحجري برؤية ذلك وأنى تتألم الصخور؟

وقد قيل لي أن بعض الوجهاء قال لأنور باشا على مائدة جمعت أفخر ألوان الطعام من خبز الحواري «الحواري بضم الحاء وتشديد الواو لباب الدقيق الأبيض» واللحوم والحلوى والفاكهة : إننا في ظل عدل الدولة العلية ورحمتها نتمتع بكل هذه الطيبات ، أو ما هذا معناه!!

ثبت في آيات القرآن الحكيم أن الشدائد تمحص المؤمنين وتمحق الكافرين ، وقد ثبت أن شدائد هذه الحرب ما زادت أكثر الناس في كل البلاد إلا فساداً وفسقاً وفجوراً ، وكان الأغنياء والفقراء في ذلك سواء إلا من عصم الله - الأغنياء ازدادوا قسوة وبخلاً وإسرافاً في الشهوات وكفراً بنعم الله وإعراضاً عن شكرها ، والفقراء استباحوا جميع الفواحش وتركوا جميع الفرائض مع الاعتراض على الله عز وجل ، حتى إنهم تركوا فريضة الصيام مع فقد الطعام فلم يكن المسلمون (جنسية) ينوون الصيام في رمضان وإن كانوا في شك أو ظن راجح بأنهم لا يجدون في النهار ما يأكلون ، ومهما يصب أحدهم من لماج (هو أدنى ما يؤكل) كان يلتقمه ولو قبيل غروب الشمس ، ولم يكن الباعث على ذلك عدم الطاقة على احتمال الجوع بل مراغمة الشارع ومعاندة الخالق سبحانه وكانوا يصرحون بذلك ، وأكثر ما نقل منه نقل عن النساء اللواتي هنّ أشد إذعاناً للدين وخضوعاً لشعوره وأكثر محافظة على الصيام - كانت إحداهن تقول : لا أصوم له ولا أصلي له وقد فعل بي كذا وكذا ، والأخرى تقول ليرجع لي ولدي من القبر أو من العسكر أصم له ، ومثل هذا كثير ، فأمثال هؤلاء ليسوا من المؤمنين الشاكرين الصابرين فتمحصهم الشدائد وتطهرهم ، بل من الكافرين بدين الله ونعمه كلهما أو أحدهما فزادتهم رجساً إلى رجسهم . ومحقتهم بل محقت أممهم بهم .

وقد بغضت إليهم سيرة الحكومة السوءى فيهم خدمة العسكرية ، ولولا ذلك لفضلوها على تلك المجاعة القاتلة التي كان سببها مصادرة المواد الغذائية لأجل الجند أو باسم الجند ، وكأين من أسرة كبيرة انقرض جميع أفرادها إلا من دخل الجندية

منهم . سلموا أو سلم بعضهم ، وقد حدثونا عن أسرة كبيرة في ميناء طرابلس كانت مؤلفة من 27 نسمة دخل الجندية سبعة شبان منهم فسلموا وهلك العشرون من كبار وصغار وما هلكوا إلا جوعاً ، وأمثال هذه الحكايات كثيرة .

وميتة الجوع من شر ميتة القتل في الحرب ، فإن أكثر الذين يقتلون في حروب هذا الزمان تزهق أرواحهم في طرفة عين بغير ألم يذكر ، وإنما الذي يذكر تألم الجرحى وتشويههم على شدة العناية بمعالجتهم . وأما موتى الجوع فلا يموتون إلا بعد آلام بدنية ونفسية شديدة طويلة الأمد فيهزلون ويضوون أولاً من قلة الغذاء ثم فقده ، حتى إذا ما وهت قواهم الحيوية وضعف تماسك عضل أبدانهم دب فيها الورم كما يدب في جثث الموتى ، ومنهم من يصاب قبل ذلك بالكلب أو ما يشبهه ، ومن يعتريهم الجنون والعياذ بالله تعالى ، ولا فائدة الآن في إطالة وصف هذا الرجز الأليم .

فائدة الدين في الشدائد



من أعظم فوائد التدين في هذه الحياة أنه يخفف آلامها ، ويهون على النفس مصائبها ، وذلك ثابت بالنظر والتجربة معاً ، ويعرفه المتدينون والملاحدة المعطلون جميعاً ، وقد سمعنا بآذاننا بعض المعطلة الذين أصيبوا بالأمراض المزمنة ونحوها من المصائب العظيمة يتمنون لو كانوا مؤمنين ليكون لهم بعض العزاء والسلوى باحتساب الأجر عند الله تعالى ورجاء النعيم في الدار الآخرة . فإنهم يعرفون هذه الفائدة من فوائد الدين بالنظر العقلي والعلم بغرائز البشر وبما يشاهدون من صبر المؤمنين وجزع المعطلين .

وليست هذه الفائدة لمن يدينون دين الحق الخالص من شوائب الشرك خاصة ، بل هي عامة يجدها في نفسه كل من يؤمن بأن للعالم إلهاً وأن بعد هذه الحياة الفانية حياة دائمة يثيب الخالق فيها المؤمنين الشاكرين ويعذب الكافرين المجرمين ، وإنما أعني إيمان الإذعان ، ذا السلطان الأعلى على العقل الوجدان ، وإن كان تقليدياً قائماً على غريزة الفطرة ، غير مؤيد بالبرهان والحجة ، ولا شك في أن الذين فقدوا هذه الفائدة اللازمة للدين في أثناء المخمصة وغيرها من مصائب الحرب ليسوا على شيء من

الإيمان الإذعاني البرهاني ولا الفطري؟ وكل ما كانوا عليه من الدين لا يعدو التقاليد الجافة التي لا منشأ لها في النفس غير التعود بمحاكاة الأهل والأقربين ومجاراة المعاشرين ، وما يوافق منها أحكام الإسلام عند المنتحلين لاسمه فإنما يوافقها في صورته ، لا في روحه وحقيقته ، ألم تر أنهم كانوا يعللون تركهم للصلاة والصيام بما يدل أنهم يظنون في الله غير الحق ظن السوء وأن الله تنزه وتعالى محتاج إلى صلاتهم وصيامهم فهم لا يبذلون له ما يحتاج إليه منهم إلا إذا بذل لهم ما يحتاجون إليه منه جزاء وفاقاً ، [إن تكفروا فإن الله غني عنكم ولا يرضى لعباده الكفر وإن تشكروا يرضه لكم ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربي غني كريم فلولا إذا جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون] .



مهانة هذه الأمة ودناءتها

ألا إن أعضل أدواء هذه الأمة هو السفالة والمهانة والخمود والضعة - وما شئت فاذكر من الكلم المقابل لعلو الهمة والعزة والرفعة ، فالمؤمن ضعيف في إيمانه ، والعفيف خامل في عفته ، والشهواني سافل في تمتعه ، والقنوع عاجز في قناعته ، والمشتغل بالعلم مقلد في علمه ، والصالح بليد في صلاحه ، حتى إن محب الجاه والعظمة فيها ذليل في عجبه وكبريائه فلا تجد شعباً من شعوبها ولا حزباً من أحزابها ولا جمعية من جمعياتها بل لا تكاد ترى فرداً من أفرادها ذا مقصد عال كبير يبذل في سبيله النفس والنفيس بعزيمة قوية وإدارة ثابتة وحكمة راسخة ، لا يثنيه عن السعي له حيف وقع ، ولا خوف م خطر يتوقع ، إلا ما قام به الشعب المصري بعد أربعين سنة من نبات النواة التي ألقاها في أرضه مصلح الشرق وحكيمه في هذا العصر السيد جمال الدين الأفغاني وتعاهده بعده خليفته الأستاذ الإمام (طيب الله ثراهما) .

وأما الشعوب العثمانية فقد مسخ الحكم التركي أخلاقها وأفكارها بسوء الإدارة وفساد التربية والتعليم في المدارس ، وزادهم اختلاف أساليب التربية والتعليم في المدارس الأجنبية فساداً ، ولا سيما في سورية حيث تكثر هذه المدارس ، وتفصيل

القول في بيان هذا الأمر من الجهتين الاجتماعية والدينية لم يأت أوانه ، إنما أذكر في هذا الفصل كلمة وجيزة فيما كان من إفساد الأخلاق والآداب برزايا الحرب ومخمصتها وجرائر السلطة العسكرية وقسوتها .

اشتعلت نيران الحرب فاستباحت الدول المتقاتلة لأنفسها إبطال الشرائع والقوانين في زمنها وجعل الحكم الفصل لأمراء العسكر وقواد الجيوش لا في ميدان القتال فقط ولا على الجنود خاصة بل وسعت حدود سلطتهم حتى شملت كل ما يحتاجون إليه للحرب من أموال الناس وأقواتهم ومواشيهم ودوابهم ومركباتهم وأنفسهم ، وأي شيء لا يحتاجون إليه ، وهم بشر حاجهم حاج البشر ، وهم الذين يقدرون الحاجة ويحكمون وينفذون لا استئناف لحكمهم ولا راد لأمرهم ، وإنما كانت تتفاوت تصرفاتهم في غصب أموال الناس ومتاعهم باسم الشراء ، وتقدير الأثمان ودفعها أو تأجيلها بتفاوت تربيتهم الدينية والنظامية ، وتختلف باختلاف أحوال من يتصرفون فيهم من أبناء جنسهم أو الخاضعين لحكمهم من غيرهم ، وأغرب ما نقل إلينا من أخبار جور ضباط الترك في سورية أنهم كانوا يأخذون من البزازين ما يصلح للجند من نسيج القطن والصوف وما لا يصلح لهم حتى ما هو خاص بالنساء من الحرير والشفوف والمناديل والقفافيز والجوارب الحريرية والأعطار .

هلعت أفئدة البشر من كل الأمم في أول العهد بالحرب ، واستيقظ الشعور الديني في قلوب طال نومه فيها كأنه ميت لا أثر له في شيء من أعمال الحياة ، وحدثنا من كان بباريس من المصريين أن الكنائس صارت في ذلك العهد تضيق على رحبها بالمصلين الخاشعين لله بعد أن كانوا يلمون بها إلمام السائح الراغب في رؤية الآثار وتعرف الأطوار فلا يرون فيها حتى في أوقات الصلاة من أيام الآحاد إلا بعض العجائز والأطفال .

ومما عرفنا من أخبار بلادنا السورية ممن فر إلى مصر في أثناء الحرب ومما كان يصل إلى الجرائد الإفرنجية والمصرية أن مصائب الحرب أزالت ما كان بين الملل والطوائف من نفور وضغن ، وأشعرت قلوبهم عواطف التراحم والتعاون ، فكان صاحب الرغيف يقسمه بينه وبين الفاقد لمثله من صاحب أو جار قريب أو بعيد ، ولا يضن بمقاسمة الجائع المجهول بله ذا القربى والرحم .

ولما طال الأمد ورأى الناس ما رأوا من سوء تصرف القواد الجبارين ، والحكام الظالمين والأغنياء المترفين ، دبت إليهم عدوى القدوة السيئة فقست القلوب وتحجرت العواطف ، واشتد الجشع ، وقوي الطمع ، وضربت الشهوة ، وعظمت الفتنة .

افترض رؤساء الجند والحكومة إعلان الأحكام العرفية وتعطيل الشريعة والقانون بها فاحتكروا الأقوات ، وشاركوا في استغلال الأمة كبار التجار ، وتذرع كل منهم بذلك لانتهاك الأعراض وافتراع الأبكار ، فكانت من هانت عليهم أعراضهم يستشفعون بنسائهم وبناتهم إلى أولئك الرؤساء(كالقائد العام للفيلق الرابع في سورية ومتصرف لبنان) لأخذ وثائق بشواحن القمح وغيره من الأغذية ، فكانت أعراض النساء عروض تجارة وأبضاعهن بضائع ربح ، وكانت الحرة تموت ولا تأكل بثدييها وفقاً للمثل العربي ، وبين هذه وأولئك نساء نشأن مصونات محصنات لا لدين راسخ ولا لشرف باذخ ، بل لفقد الداعية وعدم الإصطلاء بنار الفتنة ، فلما ذقن ألم الجوع الديقوع الدهقوع وفقدان ما يتبلغن به من اللماج والعلهز «اللماج بالفتح : أدنى ما يؤكل ، والعلهز بالكسر : القراد والضخم ووبر يلت بالدم ويجفف فيتبلغ به في المجاعة» وعلمن أن سعة العيش على طرف الثمام وحبل الذراع منهن . إذا أرخصن ما أغلته العفة من شرفهن . ووجدن أن الشرف في هذا الزمن ، غير الشرف الذي تروى أخباره عن السلف . فالناس يعظمون الفاسقين ويتقربون إلى الفاسقات . ويحتقرون الصالحين والصالحات . فطوعت لهن أنفسهن ، وأسلست لهن ما كان صعب المقادة من اقتراف الفاحشة فأطعنها واجمات . ولم يلبثن أن استمرأن المرعى فانقلبن مسافحات متهتكات . فويل للمترفين المسرفين في الشهوات ، الفاسقين المفسدين للمحصنات .

كان أولئك الكبراء يبذلون للحسناء ما تحب ، وكان من دونهم من الموسرين والجنود يفيضون من فضل رزقهم في هذا السبيل كل بحسب حاله ، وكان بدء إغواء الكثيرات من العذارى والمحصنات أنهن طلبن من بعض الرؤساء شيئاً من مال الإعاشة الذي كان يباع رخيصاً من قبل الحكومة أو طلبن الصدقة والإحسان من بعض الأغنياء فراودوهن عن أنفسهن فتمنعن المرة بعد المرة (إلى أن)[9] طوعت لهن

(9) ما بين قوسين زيادة من (الوراق)

أنفسهن أن يجتلبن القوت الضروري بما جلب به غيرهن الثروة والزينة ، على أن يكون ضرورة تقدر بقدرها . ولما بُذل العزيز المصون هان وابتذل فصار يعرض عند الحاجة . ثم لمجرد التمتع أو الربح . ففشا بذلك الفجور والعهر وصارت النساء تتبع جنود الأجانب حيثما عسكرت في البلاد السورية بعد جلاء الجند العثماني منها وكن من قبل يستخفين في كل أرض يمر فيها الجند وإن كان وطنياً .

ومن الجنود الأجانب من لقومهم صلة دين ومذهب أو ولاء سابق أو لاحق مع بعض الشعوب فكان الضباط منهم يَدْمُرون على أهل بيوت كبرائهم فيتلقون بالحفاوة والترحاب ، ولا يقفل في وجه أحد منهم باب ، بل تغلق عليهم الأبواب . وجرى على ذلك كثير من أفراد الجند وتعدى بعضهم بيوت الأولياء المغبوطين إلى بيوت غيرهم ، فارتفعت الأصوات بالشكوى منهم . وصارت الأبواب توصد في النهار كالليل اتقاء شرهم .

لما رأى المسلمون من أهل البلاد ، استشراء الفسق والفساد ، وما تجدد من عوالم الإغواء والإفساد . شعروا بالخطر الذي ينذرهم ويهدرهم[10] فأنشأوا يثوبون إلى رشدهم ، وكان من تأثير سنة رد الفعل فيهم أن بعض الشبان الذين أغوتهم تربية مدارس الدولة فلم يكونوا يصومون ولا يصلون وزادتهم أيام الحرب ثم أيام الهدنة والاحتلال بعداً عن الهدى والتقوى قد صاموا رمضان الماضي وصاروا يصلون . وتركوا مجالس الفسق بعد أن صار مباحاً وسبباً من أسباب الزلفى والحظوة عند الواقفين على أبواب الرزق والجاه - فهذه آية بينة على ن ما طرأ على الأمة من الأمراض الروحية والاجتماعية لم يكن قاتلاً لها بل هي أمراض عارضة لكل منها سير ينتهي بانتهاء أجله المقدر له إذا تدورك بالعلاج قبل أن يكون المريض حرضاً أو يكون من الهالكين .

إن هذه الحرب لم تفسد أخلاق الضعفاء من البشر وحدهم بل أفسدت أخلاق جميع من صلي نارها من الأمم والشعوب ، وألقت من العداوة والبغضاء والحقد والحسد بينها أضعاف ما كان قبلها . وما سبب ذلك إلا ظهور رذائل التعاليم المادية

(10) كذا في الأصل ولعلها (ويهددهم) ـــ (الوراق)

فيها ، وأكبر هذه الرذائل وأشدها ضرراً استعباد الأقوياء للضعفاء وطمعهم فيهم . وهذه رذيلة يكرهها كل أحد من غيره . بقدر ما يحبها كل قوي لنفسه . فالشكوى منها ومن آثارها السيئة ومصائبها التي تولدت منها عامة . ولكن أساطين السياسة(11) المادية يحاولون إزالة أعراض المرض مع الإصرار والثبات على العلل والأسباب الموجبة لبقاء المرض نفسه فلا يترك أحد منهم شيئاً من طمعه في بلاء المستضعفين ومحاولة الاستعلاء على العالمين .

لقد كانت معاهدات الصلح شراً على البشر من أهوال الحرب ، وكل ما يشكو منه الغرب والشرق من الشقاء فمثاره هذه المعاهدات التي انفرد بها أفراد من أساطين ساسة الاستعمار وأنصار رجال المال ، فمجلس العشرة الواضعين لمعاهدة الصلح الكبرى في فرسايل كان أصل مصائب البشر كلهم في هذا العصر ، وكان مجلس الأربعة الوزراء في سائر المعاهدات . ولو وضعت برأي مجالس النواب لما اتفق أكثر أعضائها على ما أودعته من مواد القهر والانتقام من المغلوبين والاستعباد والاستذلال للضعفاء أو أن عدواً من الأصدقاء الموالين ، فلسنا وحدنا نتألم من سوء عاقبة الحرب بل يشكو آلامها معنا القاهر والمقهور . والواتر والموتور . وإلى الله ترجع الأمور .



طرابلس والقلمون

ما حزنني من سوء حالِ بلادِ سورية الاجتماعية والأدبية شيءٌ كما حزنني حال طرابلس والقلمون ، حيث نشأت وترعرعت ، فقد كانت طرابلس خير المدن السورية في العلوم الشرعية والأدبية ، والعيشة الراضية الهنية ، كما كانت القلمون خير البلاد الصغيرة في ذلك ، (أو سيدة القرى والمزارع) كما وصفت في السجل الأعظم (دركنار) لبلاد الدولة العثمانية في الباب العالي كما روي لنا ، وذلك أن جميع أهلها كانوا سادة شرفاء ، وأتقياء نجباء ، قد ولدت والحمد لله فيها ، ونشأت في بيت الكرم والمجد الأثيل منها ، فكنت من أول العهد بالتمييز أرى العلماء والأدباء والحكام

---

(11) فيالأصل (السياسية) والتصرف من (الوراق)

والوجهاء تغشى دارنا ، وتعشو إلى ضوء نارنا ، بل كنت أرى فيها الضيوف من البلاد المختلفة مكرمين على اختلاف مللهم ومذاهبهم ، وكان مسجدها عامراً دائماً بإقامة شعائر العبادة وقراءة دروس العلم والوعظ ، وقد عشت ما عشت فيها ولم أرى أحداً ارتكب فاحشة أو شرب مسكراً أو أتى منكراً إلا ما كان ينسب إلى أفراد قلائل من ارتكاب سرقة الفاكهة أو الزيتون والليمون ، وما كان يقع بين بعض المتخاصمين والمتنازعين من التضارب بالعصي أحياناً وبالمدى نادراً ، وقلما رأيت شيئاً من ذلك بعيني . وإني قد شببت فيها وأنا أعتقد أن الذين يقترفون كبائر الإثم والفواحش في الدنيا أفذاذ قليل عددهم في كل مكان وأكثرهم في المدن أو البوادي ولذلك كنت أجتنب معاشرة أكثر الناس في طرابلس عندما كنت أطلب العلم فيها ، على ما ذكرت من فضلها على غيرها ، حتى إنني إلى اليوم لا أعرف جميع أسماء الذين قضيت معهم السنين الطوال في المدرسة . وكانت مدارس العلم يومئذ عامرة ، وطلابه كثيري العدد ، وكانت دور أهل العلم والأدب أندية وسماراً تكثر فيها المطارحات العلمية ، والمساجلات الأدبية ، ولم تكن الخمر معروفة في شيء من ملاهيها العامة (القهاوي) ولا الرقص ، وكل ما كنت أعلمه في هذا أن في حارة النصارى ملهى في بستان اسمه الزهرية يشربون فيه الخمر ويختلف إليه بعض أهل الدعارة من المسلمين ، ولكنني لم أر في أثناء إقامتي فيها لطلب العلم من السكارى إلا عبداً أسود وشاباً وطنياً من فقراء السوقة يبيع الحمص الملح والملبس بالسكر ، وإنما نسمع أحياناً بعض أخبار الفساق من المنكرين عليهم والقادحين فيهم ، إذ يغلب عليهم التستر ويندر فيهم التهتك ، كاجتماع بعض أهل الدعارة في مجالسهم الخاصة في بيوتهم على مائدة الخمر أو شربها على مائدة الطعام ، وإنما كان يفعل هذا من المسلمين أكثر الموظفين من الترك حتى بعض قضاة الشرع . وكان هؤلاء الموظفون يحرصون على إغواء وجهاء المسلمين الذين يعاشرونهم بإغرائهم بالشرب معهم كدأب أهل السكر في كل مكان ، وقل من كان يستجيب لهم من قرنائهم أو مرؤوسيهم[12] ولو بقبول الكأس من أيديهم مرة واحدة . ومن طرقهم في ذلك ما

(12) في الأصل (مرؤوسهم) والتصرف من (الوراق)

سمعته في دارنا من أحد المتصرفين فقد سألنا أليس المحرم قطعاً هو خمر العنب وما عداه فإنما يحرم منه القدر المسكر فأي حرج إذاً في شرب ما عدا هذا القدر من سائر الأشربة ولا سيما ما لا يسكر إلا كثيره كالبيرة؟ فقلنا له : تلك شبهة لبعض الفقهاء في الذي كانوا يسمونه نبيذاً والحق أن كل مسكر خمر يحرم قليله وكثيره كما ثبت في النص المؤيد بالقياس والخبر والطب .

وإذ كنت أكتب مثل هذا للاعتبار به وليكون تاريخاً تعرف بمثله أسباب التطور الاجتماعي في البلاد فإنني أذكر واقعة في هذا الباب هي أكبر ما كان يتحدث به الناس في مدينتنا (طرابلس الشام) ويفخرون به . وهي بين مدحت باشا الوزير الشهير ودرويش أفندي الشنبور .

كان درويش أفندي هذا رجل طرابلس الكبير بل رجل سورية الممتاز في عصره بالعلم بالقوانين وحسن الإدارة والتصرف في حل المشكلات ، حتى إن أمور إدارة لواء طرابلس كانت بيده يتصرف فيها كما يشاء ، وهو عضو في مجلس الإدارة رأيه فيه بحكم القانون كرأي غيره من الأعضاء ، فكان أصحاب الحاجات يولون وجوههم شطر داره دون أمثاله من الأعضاء ، بل دون الرؤساء من المتصرف التركي المولى من نظارة الداخلية إلى من دونه من رؤساء الإدارة وكذا رؤساء الجند فيما يقيدون فيه بالإدارة كأخذ العسكر بنظام القرعة المعروفة فلم يكونوا يستطيعون أخذ أحد إلا برأيه ، لذلك كان له حساد كثيرون فلما جاء مدحت باشا والياً على سورية كثر السعاة بدرويش أفندي الشنبور لديه الذين يرمونه بالاستبداد بأعمال الحكومة وكونه لم يترك لأحد من رجال الدولة اسماً وعملاً في لواء طرابلس ، وأنه هو نفسه لا يمكنه أن يكون له اسمٌ سميٌّ ولا قدرٌ عليٌّ في ذلك اللواء إلا بإخراجه من مجلس الإدارة وجعله جليس بيته ، وقد أثت هذه السعاية في نفسه ، فلما جاء طرابلس في دورة التفتيش المعتادة كان استقباله لدرويش أفندي استقبال المرتاب المختبر ، فلما سمع كلامه أحب الخلوة به فسمع منه من الأنباء والآراء ما أكبره في عينه ، وأحله في أعلى مكان من الثقة به ، والكلام مظهر العلم والعقل والرأي [فلما كلمه قال انك اليوم لدينا مكين أمين] ولم يكن يستطيع مفارقته إلا وقت النوم ، وكان الوزير مبتلى بشرب الخمر كأكثر رجال الدولة وكان درويش أفندي لا يشربها كسائر وجهاء طرابلس ولا سيما

أصحاب الزي العلمي أمثاله فاجتهد مدحت باشا في حمله على الشرب لتطيب له معاشرته ، ولا يرى نفسه صغيراً أو حقيراً في عينه وعين نفسه بارتكابه لهذا المنكر مع من ينكره في نفسه لتحريمه ، وقد كان مدحت باشا مسلماً محترما لدينه كما يقال ولكن السكر بلاء قلما يستطيع تركه من ابتلى به - عرّض لدرويش أفندي أولاً فتباله وأعرض كأنه لم يفهم مراده ، فكاد له مكيدة سلم منها بحسن بادرته وقوة إرادته ، ذلك أنهما كانا في منتزه من منتزهات ضواحي المدينة اسمه (بركة البداوي) فطلب الوزير الخمرة فأخذ لنفسه كأساً وناول درويش أفندي كأساً أخرى وقال له نشرب على اسم مولانا السلطان الأعظم فأخذ الكأس درويش أفندي وقال على البداهة :كأس من يد أفندينا مدحت باشا باسم مولانا السلطان الأعظم أمير المؤمنين لا ينبغي أن تصب في الجوف وتخالط القذر بل مكانها الرأس ، وصب الكأس على عمامته البيضاء فأعجب مدحت باشا بهذه البداهة والكياسة . وزاده هذا الثبات كرامة عنده ومكانة في نفسه .

هذه الحالة التي كانت عليها طرابلس إلى عهد طلبي للعلم فيها وهجرتي منها هي التي ضاعفت آلامي لما رأيت هذه المرة ما رأيت من سوء حالها ، وسريان عدوى المجاهرة بالتهتك فيها ، وقد بدأ ذلك فيها في أوائل العهد بالحكومة الدستورية الاتحادية ، ثم كان لمفاسد الحرب ثم للاحتلال الأجنبي تأثير في استشراء فساده ، كما بينا في النبذة الثالثة من هذه الرحلة (ص 227) حتى إن طرابلس صارت دون بيروت ودمشق في الحالة العلمية والأدبية الإسلامية فقد خلت من تلك الحلقات الواسعة من طلاب العلم ، ومن تلك المحافل والسمار التي كانت آهلة بأهل الهيئة والوقار ، من العلماء والوجهاء من الطبقات المختلفة ، الذين كانت آرائهم تضطر الغرباء من حكامهم وغيرهم إلى احترامهم ، دع أهل البلد الذين هم كبراؤه . وكذلك كان شأن شيوخ أهل بيتنا في القلمون ، بل لم أر مجلس وقار في مكان ما مثل المجالس التي كان يحضرها كبير أسرتنا السيد الشيخ أحمد عم والدي ، فقد كان أوجه الوجهاء من علماء طرابلس ورجال الحكومة وغيرهم يجلونه ، لما كان عليه من الجد والوقار والتقوى ، حتى إنه لم يكن أحد يشذ في جلوسه ولا في ضحكه ومزاحه في حضرته ، بل يلزمون الاعتدال والأدب الشرعي ، وقد اتهم رجل صالح من طرابلس

بفاحشة أو مقدماتها وكان ممن يترددون على القلمون مع بعض العلماء فلم يتجرأ بعدها أن يتراءى أمامه طول حياته ، وماذا أقول عن صاحب تلك الشيبة الرائعة الذي قال فيه نقادةُ المعاصرين الشيخ عبد الفتاح الزعبي نقيب أشراف طرابلس وخطيب جامعها الكبير إلى اليوم : آخر من أدركنا من الصديقين عمي الشيخ أحمد . وأنا لم أكن هنالك أستطيع تعمد النظر في وجه أحد متهم بالفسق ولا السكوت على منكر منذ كنت غلاماً ، وقد شذ في حديثه معي تاجر في طرابلس بقول لا يعد منكر شرعاً إذا حسنت في النية فتركت الشراء منه والنظر إلى دكانه بل المرور أمامها ما دام فيها .

نعم إنني كنت أول من انتقد من المسلمين ما كان عند الوجهاء من التكلف في اللقاء والسلام والقعود والقيام ، وأول من ترك عادة الجلوس على الركب في بدء الجلوس معهم ، وإن فعل ذلك بعض كبار السن والقدر لأجلي ولكنني أقول الآن : إن مجالسهم كانت خيراً من مجالس أكثر أولادهم وأحفادهم الذين تركوا غير ذلك من آدابهم العالية لا المتكلف منها فقط مفتونين بزخرف حرية الفسق الذي يخشى أن يضيع عليهم دنياهم ودينهم فيكونوا من الأخسرين أعمالاً [الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً] .

أصيبت طرابلس بالعقم من العلماء والفضلاء والزعماء ، فلا خلف فيها في العلم والرشد للشيخ محمود نشابه والشيخ عبد الغني الرافعي والشيخ عبد الرزاق الرافعي والشيخ عبد الله الصفدي ودرويش أفندي الشنبور والمفتي مصطفى أفندي كرامي الذين أدركناهم في شيخوختهم ، ولا للشيخ حسين الجسر والشيخ عبد الله البركة والشيخ نجيب الحامدي والشيخ محمد كامل الرافعي ومحمود أفندي المغربي والمفتي رشيد أفندي كرامي والشيخ خليل صادق الذين أدركناهم في كهولتهم .

وإنما بقي أفراد من الطبقة التي قبل طبقتنا أوسعهم علماً وفهماً وإفادة الشيخ محمد إبراهيم الحسيني وقد جهلت مدينته قيمته فلا ينتفع به إلا أفراد قليلون من بقايا الطلاب ، ومنهم الشيخ محيي الدين الحفار والشيخ عبد اللطيف نشابه ، وأفراد آخرون من طبقتنا ورفاقنا في الطلب وأكثر هؤلاء وأولئك قد تركوا الدرس والتدريس ، واجتنبوا الكتابة والتصنيف ، ومنهم من يشتغل بأمر الدنيا من تجارة وزراعة لكساد

بضاعة العلم . ولم أر في هذه الزورة لطرابلس أحداً من رفاقي لا يزال مغرماً بالمطالعة والكتابة إلا الشيخ محمد رحيم والشيخ عبد المجيد أفندي المغربي ، وليس لأحد منهما ولي في عمله ولا ظهير .

وأما القلمون فلم يبق فيها أولو بقية يستفيد الناس منهم ، إلا عمي أبو عبد الرحمن عاصم فهو يقرأ دروساً في مسجدنا في بعض الأحيان لمن عساه يوجد فيه ، ولكنه في عامة أوقاته معتزل الناس لا يكاد أحد يراه إلا في صلاة الجماعة وقد انقرض ثلثا أهل القرية وحال الباقين شر مما كانت عليه ، وقد كنت قبل الهجرة إلى مصر أقرأ لهم التفسير ونهاية المحتاج في فقه الشافعية والزواجر وغير ذلك من كتب التوحيد (و)[13] المواعظ والرقائق ، وبلغني أنه وجد فيهم رجل يتجرأ على المجاهرة بالفواحش وارتكاب منكرات السلب والنهب ، يستعين على ذلك برشوة الحكام ، وأما طرابلس فقد صار الكثيرون فيها يجاهرون بذلك ، ومنهم من يدعو الأجانب إلى داره ويقدم لهم الخمور فيها . ولكن تيقظ بعضهم لتدارك الخطر كما بيناه في النبذة الثالثة التي قبل هذا من الرحلة فليحفظ الناس هذا ولينتظروا عاقبة هذا التغيير فإن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ونسأل الله تعالى أن يتوب عليهم ويجعلهم خيراً مما كان عله سلفهم ويغير ما بهم إلى خير منه .

حال مسلمي بيروت الاجتماعية



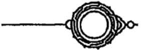
قد أصاب مسلمي بيروت في سني الحرب ما أصاب سائر الطوائف في جميع البلاد من تأثير مفاسدها التي أشرنا إليها في الفصول السابقة ، ولكن حسنت حالهم الاقتصادية فسبقوا غيرهم بمراحل ، وهم وإن كانوا مع إخوانهم في الوطن فرسي رهان في البراعة بالتجارة قد امتازوا على النصارى واليهود في زمن الحرب بكون نقودهم في صناديقهم وجل نقود أولئك في المصارف الأوربية التي انقطعت المعاملة بينها وبين البلاد العثمانية ، وبكونهم أجرأ على المجازفة فاتسع عملهم وعظم ربحهم واشتروا

(13) ما بين قوسين زيادة من (الوراق) يقتضيها السياق

أملاكاً عظيمة في بيروت ولبنان . وليس هذا ما نبغي من عقد هذا الفصل وإنما عقدناه للإلمام بحالهم العلمية والاجتماعية .

كانت بيروت في السنين الخالية دون دمشق وطرابلس في العناية بالعلوم العربية من شرعية وأدبية ، وإنما كان يمتاز فيها في الجيل أو الأجيال الواحد بعد الواحد كالشيخ محمد الحوت الكبير الذي فاق علماء سورية المتأخرين بالعناية في علم الحديث والشيخ أحمد البربير في اللغة والأدب وانتهت الشهرة في الجيل الماضي إلى ثلاثة من فقهائها وأدبائها الشيخ عبد الباسط الفاخوري المفتي والشيخ يوسف الأسير والشيخ إبراهيم الأحدب وهذا طرابلسي المولد والنشأة واختار الإقامة في بيروت بعد أن تخرج في طرابلس بالشيخ عبد الغني الرافعي الشهير . وليست بيروت الآن بأقل من طرابلس في عدد طلبة العلوم الشرعية والعربية ولا في ضعفهم فيها ولكن دمشق تفضلهما في ذلك بما سنذكره بعد .

وأما الحال الاجتماعية فقد تجدد فيها للمسلمين ثلاثة أمور ذات شأن كبير (أحدهما) في ترقي النساء المدني (والثاني) الاستعداد للاتفاق مع النصارى والاتحاد الوطني معهم (والثالث) الميل إلى مجاراة من حولهم في التعليم والتربية الملية ، وإننا نقول في كل منها كلمة .



مسلمات بيروت

كانت المسلمات في بيروت أشد محافظة على التقاليد القومية من أمثالهن في سائر المدن السورية فلم تؤثر فيهن عوامل التفرنج الذي غلب على نساء النصارى ، لا النافع الصالح منها ولا الضار الفاسد ، ولا عوامل التترك الذي سرى إلى مسلمات دمشق ، فكن أشد مسلمات سورية جموداً وكان رجالهن راضين بذلك ، ثم رغبوا في تعليم البنات فأنشأوا لهن مدارس ابتدائية ، وأنشأت الحكومة العثمانية مدرسة للبنات في بيروت كان جميع تلميذاتها من المسلمات لأن النصارى لا يرغبون إلا في مدارس الإفرنج . ثم وجد في بعض شبان المسلمين الذين تعلموا في المدارس الأوربية والأمريكية وأثر فيهم التفرنج ميلٌ فرنجةِ النساء ، كان الرأي الإسلامي العام يقاومهم

فيه وما زال صديقنا الأستاذ الشيخ مصطفى نجا مفتي بيروت زعيم هؤلاء المقاومين على عنايته بتعليم البنات وإشرافه عليه في عدة مدارس حتى إنه شديد الإنكار على تعليمهن العزف بآلة (البيانو) التي لا يكاد يخلو منها بيت من بيوت الطبقات الوسطى في مصر دع الطبقات العليا في الثروة . ولما عني الاتحاديون من الترك بإفساد آداب مسلمات سورية جرياً على خطتهم التي جعلوا من أوائل قواعدها أن الأمة لا يمكن تحولها من حال إلى حال إلا بهدم عقائدها وأخلاقها وآدابها وتقاليدها - وجهوا كثيراً من هذه العناية إلى مسلمات بيروت وحاولوا تعويدهن السكر والتهتك مع مخالطة الرجال ، فكان الرأي العام وتشدد المفتي وأنصاره مضعفاً لتأثير هذه العاصفة التي كان يخشى أن تدمر الدين والآداب تدميراً لا تقوم للأمة بعده قائمة إلا بإصلاح جيل جديد إذا تيسرت وسائل الإصلاح .

لا شك في أن عاداتنا وتقاليدنا القومية في النساء والرجال منها ما هو حسن وهو بقايا آداب الشرع وإصلاح الدين ، ومنها ما هو قبيح ضار يجب تغييره بالتدريج - وفي أن ما يراد من التغيير والتجديد في الأمة منه ما هو حسن نافع لا يمكن للأمة الإسلامية أن تجاري سائر الأمم في سعة العيش والعزة والاستقلال بدونه ، ومنه ما هو قبيح ضار مفسد لأمري الدين والدنيا جميعاً ، ومن سنن الاجتماع المطردة في البشر أن الإفراط في الأمور المتقابلة تظهر به مزية الوسط المعتدل بينهما وأن استعداد الجمهور الأعظم هو الذي يرجح أحد الطرفين المذمومين أو الوسط المحمود في العمل ، والذي رأيته أن حظ بيروت في المسألة النسائية كان أقرب في هذا التطور إلى الاعتدال .

وفي كل طبقة من المحافظين والمتفرنجين والمتوسطين إفراط وتفريط واعتدال ، فغلاة الاتحاديين أمرهم فرط إذ كانوا يرون التعجيل بإبطال جميع العقائد والعبادات والعادات وتكوين الأمة تكوينا جديداً في كل شيء وزعيمهم الدكتور ناظم وطلعت باشا . وكان من المعتدلين منهم أنور باشا إذ كان يرى احترام الشعائر الدينية والاستفادة من الرابطة الإسلامية بدلاً من قطع روابطها ، ويعتقد بعض عارفي أمره أنه صار بمقامه في برقة صحيح العقيدة محافظاً على الصلوات إيماناً واحتساباً لا سياسةً ورياءً ، وبذلك اتسعت مسافة الخلف بينه وبين أولئك الغلاة وزعيمهم . ومن

رجالهم المعتدلين عزمي بك الذي كان والياً على بيروت في زمن الحرب وقد رأيت الناس فيها معجبين بما كان عليه من الحزم والعزم والعدل والدقة في النظام ويرون أنه لو كان عند الدولة كثير من أمثاله لفاقت بها دول أوربة .

وجه عزمي بك عنايته في بيروت إلى ترقية المسلمات في الحضارة العصرية بالتدريج الذي تؤمن معه الفوضى الأدبية ، وتعويدهن حضور مجامع الرجال العلمية والأدبية ، وسماع ما يلقون فيها من الخطب المفيدة والشعر العصري ، وإسماعهم ما تجود به قرائح المتعلمات منهن ، ومشاركتهن لهم في الأمور الاجتماعية – ولولا أن وجد في بيروت أحمد مختار بك بيهم يساعده على ذلك لضاع عزمه وخاب سعيه على ما أوتي من قوة إرادة وسلطة كادت تكون مطلقة .

كان لأحمد مختار بك بيهم جماعة من المزايا لم تجتمع في وطنه لغيره في عصره : كان على كرامة بيته ومكانة عشيرته ذكي الفؤاد طلق اللسان جريء الجنان صادق الوطنية والغيرة القومية عالي الهمة كبير المروءة حسن المعاشرة عارفا بزمانه وفياً لأصدقائه ، فكان بذلك من زعماء مسلمي بيروت الذين يرجع إليهم في المهمات ، كما كان محترماً عند سائر الطوائف بآدابه وحسن معاشرته فكان الناس يحبونه ويحترمونه ويحسنون الظن بإخلاصه حتى فيما ينكرونه من شذوذ في بعض أعماله وميله إلى التفرنج ، فلم يكونوا يتهمونه بأنه يقصد بهذا إضعاف مقومات أمته ومشخصاها الملية ، ولا تقوية النفوذ الأجنبي فيها ، فهذه المكانة التي كان يعرفها لنفسه في قومه جرأته على مواتاة عزمي بك ومساعدته على ما قصد إليه بل استعان كل منهما بنفوذ الآخر على عمل يريانه نافعاً للمسلمين بل لا بد لهم منه في حياتهم المدنية العصرية ، بل كانا يريان أن نساء المسلمين لا بد أن يتركن الحجاب ويجارين غيرهن من نساء الملل في الحضارة العصرية وأن الخير لنا أن نبني ذلك على أساس متين ، أي جامع بين مصلحة الدنيا وصلاح الدين ، وإلا فعل التيار العصري فعله فينا بغير اختيار منا فكان إثمه أكبر من نفعه .

أنشأ الزعيمان نادياً للنساء في سنة 1335 (1917م) وألفا له جمعية من كرائم المعلمات منهن باسم (جمعية الأمور الخيرية للفتيات المسلمات) ثم أسس هؤلاء الكرائم مدرسة لتعليم البنات ، وكان النادي يعقد اجتماعات نسائية يحضرها النساء

والمستحسنون لهذا العمل من الأدباء والأطباء ويلقون فيها الخطب والدروس التي اصطلح كتاب العصر على تسميتها بالمحاضرات ، ويسمعون من أعضاء النادي الكرائم ما يلقينه فيه ويتحدثون معهن في المسائل الأدبية والاقتصادية والصحية وتدبير المنزل والتربية ، وإنما يكن مع الرجال سادلات على وجوههن النقاب الإسلامبولي الأسود لا سافرات ، ويجلسن في جانب والرجال في جانب . فهن قد سبقن في بدايتهن نساء مصر إلى هذه المحافل والمجامع التي كان يتمناها قاسم أمين وإخوانه من زهاء ربع قرن مع مبالغتهن في الحجاب وكثافة النقاب ، حتى إن بعض الأوانس من أعضائه حضرن حفلة ذكرى مرور قرن على المعلم بطرس البستاني في الجامعة الأميركانية ببيروت وألقت فيها عنبرة سلام وعادلة بيهم فيها[14] ما جادت به قرائحهن في الموضوع على الجم الغفير من الرجال والنساء .

دعاني أحمد مختار بك رحمه الله «توفي في العام الماضي فكان لوفاته وقع أليم في بيروت شاركتها فيه سائر البلاد السورية وقد احتفل بجنازته بما لم يسبق له مثيل في ذلك القطر» إلى زيارة هذا النادي وإلقاء النصائح والحكم فيه تعضيداً له وإرشاداً للسيدات فإنهن يتمنين الاستفادة مني كالرجال . وقد جرت العادة بأن ألقي في بعض مساجد بيروت ومجامعها خطباً ودروساً في كل زيارة من زياراتي لها فأجبته إلى ذلك .

زرت النادي أولاً ثم أجبت دعوته إلى إلقاء نصيحة عامة فيه ، وكان هذا في يوم مشهود حضره بالدعوة كثير من النساء والرجال ، ومنهم من لم يكن يلم به ولا يسمح لأحد من أهل بيته بالإلمام به ، وألقيت فيه خطاباً مطولاً ذكرت فيه خلاصة وجيزة عن حال النساء في مصر وفوائد نهضتهن وغوائلها ، وما ينبغي للمسلمات السوريات في بيروت وغيرها من الاعتبار بها ، وبينت فيه حالة العصر الاجتماعية وما ينبغي للمرأة المسلمة فيه من الجمع بين فضائل دينها وآدابه ومعرفة ما يجب عليها لبيتها ووطنها وأمتها ، وما يجب من تقديم الأهم فالأهم وهو تدبير المنزل وتربية الأولاد وما يتوقفان عليه من العلوم الكثيرة . فنال هذا الخطاب استحسان جميع الأحزاب المختلفة

(14) كذا في الأصل ولعل قوله (فيها) زائدة من أغلاط الطبع ــــ (الوراق)

في هذا الموضوع . وإنني أنشر هنا ما ألقته رئيسة (جمعية الأمور الخيرية للفتيات المسلمات) التي تدير المدرسة والنادي السابق ذكرهما ترحيبا بي ، وسأنشر في فرصة أخرى بعض ما ألقي في حفلاته السابقة ليقف قراء المنار على أفكارهن ودرجة تقدمهن .

ترحيب الرئيسة الفاضلة

سيدات النبل وسادة الفضل

إن جمعية الأمور الخيرية للفتيات المسلمات ترحب اليوم بضيفها الكريم العالم الفاضل صاحب السيادة الأستاذ رشيد رضا ، فهو الخطيب البليغ الذي طالما لهجت الألسن بذكر مناره الذي أضاء العالم الإسلامي بأبحاثه العلمية المفيدة . وقد رأيناه عند اجتماعنا به للمرة الأولى في مدرستنا خير نصير للمرأة إذ أفاض علينا من بعض حكمه ما يجعلنا نزداد نشاطاً بأن نعيد مجد السلف الصالح فنستمد منه تلك القوة الأدبية والمعارف السامية التي طالما تاقت النفوس إليها . ونضم إلى ذلك ما يلائم حالتنا وتقاليدنا من الرقي العصري ، فحباً بالاستفادة من ينابيع علمه وفضله فقد قامت هيئة جمعيتنا بدعوة حضرته ليلقي على مسامعنا محاضرة علمية تكون خير ذكرى يحفظها نادينا لسيادته .

فباسم جمعيتنا أقدم الشكر لسماحته ولكل من يعاضد صروح العلم والأدب ونخص منهم بالشكر حضرة الوطني الغيور الوجيه الفاضل السيد عارف النعماني الذي تبرع بمبلغ مائتي ليرة لمدرستنا لتصرف في سبيل تعليم الفتيات البائسات اللواتي يدعين إلى الله بأن يديه عضداً للإحسان . فسلام على كل روح أوقفت لإعلاء الوطن وأهله .

بيروت 21 ربيع 1 سنة 1338

خطبة النابغة الفاضلة الآنسة عنبرة سلام

سيداتي الكريمات وسادتي الأفاضل

خلق الإنسان للجهاد في هذه الحياة ، فهو لا يزال يكافح الخطوب وينازل

العثرات ، فتارة يروح تحتها ، وتارة تكون له الغلبة عليها . وهو دائماً في نزاع مستمر مع القوى المحيطة به . ولكنه إما أن يجاهد في كسب معاشه وموارد رزقه فيدل على أنه إنسان حي في جسم المجتمع البشري ، وإما أن يقوم بالنصرة العامة على طرق مختلفة ، وأشد هذه الطرق صعوبة ما كان يقصد منها تغيير معتقدات فاسدة كمنت في نفوس الناس أجيالاً طويلة حتى قيض الله نابغة يعالج هذه المعتقدات ويكافحها بأحسن منها فهو العالم الحكيم والمجاهد العظيم .

لقد مضى على الأمة الإسلامية حين من الدهر كانت تكتنفها به الجهالات ، وتعمل في أعضائها أيدي الفساد ، فقد ابتلاها الله بمن أضاعوا رشدها وأضلوها سواء السبيل . أولئك قوم نصبوا أنفسهم لهدي الأمة فضيقوا عليها المسالك ، وأفهموها الدين بصورة لا تنطبق على الدين الحنيف بشيء ، فخدروا أعصابها وأضعفوا بنيانها ، حتى جاد الله عليها بحكماء ينبهون أعصاب العامة ويهدمون روع العقلاء ، فأنجبت الأفغان للأمة ركناً وسنداً ، ونفحتها مصر الكريمة عضداً ومرشداً ، ولم تكن سوريا بأقل منها حظاً ، بل هي تفتخر بأن كان من أبنائها من غدا للأمة هادياً ، ولضعفها مداوياً ، تتجه نحوه[15] آمال المسلمين في أقطار المعمور فيجدون به مضيء سبيلهم والآخذ بأيديهم إلى محجة الصواب . إن الأمة الإسلامية بحاجة إلى من يفهمها الدين المبين بأسهل الطرق وأقربها تناولاً . إننا بحاجة شديدة إلى علماء يوفقون بين الدينيات ومبادىء العمران التي وضعت عليها أساسات الدين ، فلا يجعلون الدين بمعزل عن كل ما من شأنه أن يدعو إلى الحضارة والتقدم ، حتى يخال الناظر البيد (كاللورد كرومر مثلاً ذلك الرجل العظيم الذي لم يكلف نفسه مؤنة البحث بل اكتفى أن حكم على الإسلام بالمسلمين) أنه ينافي روح العصر والمدنية وهو الدين الكريم الذي ملأ الأرجاء نوراً ونفخ في العالم روح حياة مدنت الأمصار .

ولن تنسى الأمة الإسلامية ما أحدثتها في نفسها تعاليم المرحوم السيد جمال الدين الأفغاني الذي نسميه بحق المصلح الكبير وفيلسوف القرن الأخير . والذي

(15) في الأصل (تتجه نحو آمال المسلمين) والتصرف من (الوراق) .

جدد للإسلام رونقه وبهاءه . وقد لاقى في حياته الإصلاحية من العثرات ما يثني عزم الضعيف ويشحذ همة العظيم . فمر عليها جميعاً معليا شأن الدين ومثبتاً فلسفته الدينية على أمتن الأركان ، حتى شهد له فلاسفة العالم الأوربي بمقدرته الفائقة وعلو كعبه في مباحثه الدقيقة ، فأحلوه من الإكرام المقام الأسمى وكان من النوابغ الذين لا تجود بهم الطبيعة في كل حين .

ثم داوم الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ذلك الجهاد بتعاليم تروق للنفوس فتغذيها بأبدع الأساليب ، ففسر آيات الكتاب المجيد بصورة سهلة رائقة ، وعبارات بسيطة واضحة لم يسبق لها مثيل ، اهتز لها العالم الإسلامي إجلالاً وإعجاباً ، وإن من فتاويه الكثيرة لما يأخذ بالألباب . ولست بالمحدثة الشهيرة فأحدثكم عن تعاليمه ومباديه ، أو أروي فلسفته وفتاويه ، بل يروق لي أن أذكر هنا قصة صغيرة ، تدل على الأساليب البسيطة التي سار عليها الأستاذ الإمام ويمشي في سبيلها الآن سماحة خلفه أستاذنا الكبير : (أسلم أحدهم مرة فجاء الأستاذ الإمام يطلب إليه فقيهاً يعلمه أصول الدين ، فمضى عليه عدة أيام وهو يعلمه الشروح عن الماء الطاهر منه وغير الطاهر أو المطهر . فجاء بعدها يشكو أمر هذه الشروح الطويلة إلى الأستاذ رحمه الله فأجابه : إذهب يا بني فالماء الذي تشرب منه توضأ به) . على هذه الطريقة السهلة الفنية يثبت في أذهان القوم الدين القويم ، ويسار بهم إلى الإصلاح على صراط مستقيم . وقد جاهد رحمه الله في إصلاح شأن الأمة في عدة سنين ما أفسده عليها غيره في قرون ، فقال عنه السيد الأفغاني : (إنه لمصر أعز من جيش وأقوى من أسطول) وكان للأمة بأجمعها معزز جيوش عمرانها وقائد أساطيل تجدد بنيانها .

ولم تحرم الأمة بعدهما يداً قوية على الإصلاح ، ولا عدمت همة عالية تلم شعثها وتقوّم معوجّها ، فكان من فضيلة الأستاذ الكريم الذي نتشرف بالاحتفال به اليوم ومن مناره الأغر أمتن رابطة بين المسلمين في أنحاء الأرض المترامية الأطراف . يؤثر في نفوسهم بجهاد متواصل عرفه له الخاص والعام : فقام أهل الهند يحتفلون به ذاك الاحتفال الكبير ، يظهرون به مشاعرهم نحو المجاهد العظيم . وقامت البلاد الإسلامية تردد صدى آرائه السامية وتقدم لجهاده ألوية شكرها وثنائها . وأقر له بالفضل كثيرون ، وشهد بجهاده العظيم الطبيعيون ، فذكر الدكتور شميل في كتابه فلسفة

النشوء والارتقاء ما يعانيه أستاذنا الكريم في سبيل إفهام جهلة المسلمين وعامتهم وإصلاح أحوال دينهم ودنياهم ، وإننا جميعاً نعقد على إصلاحاته آمالنا لما له في القلوب من المقام الرفيع ، ولأن لعلماء الدين من المقدرة على السير بالأمة إلى أحسن سبيل والأخذ بها في معارج الرقي ما ليس بقدرة غيرهم القيام به . فعلى علماء الأمة تعلق الأمة الرجاء ، يتقدمهم نبراسها المضيء بمناره الوضاح .

وإن لي أخيراً رجاء أقدمه لسماحة صاحب الفضيلة والفضل وهو توجيه عامة المسلمين إلى حالة المرأة ، وحثهم على الاهتمام بأمر رقيها وإصلاح شأنها لأنها أم الأمة وبيدها تغرس شجيرات الخير والصلاح فليأخذوا بها في سبيل الفلاح بطريقة مثلى ، وليعدوها للسير إلى ما تتطلبه طبيعة الأيام مع المحافظة التامة على أخلاقنا الأساسية ، فيكون لها في رقي الأمة شأن وتكون في إصلاحها العيون والمساعد . وإنني أرجو الله أن يبقى لهذه الأمة عالمها الكبير يحمل لواء جهاده العظيم في رأسه قبس تستضيء به الأمة جمعاء في مشارق الأرض ومغاربها .

4 ديسمبر سنة 1919

عنبرة سلام

اتفاق المسلمين والنصارى



ذكرنا في النبذة الخامسة أن مسلمي بيروت قد تجدد لهم ثلاث حالات اجتماعية ، وتكلمنا على الأولى منهن ، وهي المتعلقة بالنساء ، فبقي أن نقول كلمة في كل من الحالتين الأخريين وفاء بالوعد .

الحالة الثانية الميل إلى الاتفاق مع النصارى . وهذه ليست جديدة بالمعنى المتبادر من الكلمة وهو أنها حدثت بالتطور الذي أحدثته الحرب الأخيرة وما ولد منها ، بل كانت من تأثير تطور سابق عليها نبه العرب كغيرهم إلى المحافظة على جنسيتهم ، وكان السوريون أسبق العرب إلى التنبه والبحث في ذلك من حيث أن لهم وطناً خاصاً له حدود ومصالح خاصة قلما تشاركهم فيها الأقطار العربية الأخرى ، وأهله مؤلفون من أصحاب ملل ومذاهب يرجع أكثرها إلى فريقين محمديين ومسيحيين ،

بحيث يتوقف عمران البلاد وارتقاؤها على تعاون الفريقين وإن كان أكثر مجموع الأهالي - البلاد في غير لبنان - من الأولين كما أن أكثر رقبة الأرض لهم .

فالحق أن للشعور بالحاجة إلى الاتفاق بين المسلمين والنصارى عدة محركات ، الحرب وثلاثة قبلها وواحد بعدها ، والأخير الذي سبق إلى ذهننا عند كتابة النبذة الخامسة من الرحلة . أما المحرك الأول فهو الدستور الذي علق الآمال بوطنية جديدة عثمانية تقضي على دسائس التفرق في المصالح الوطنية بين الملل والنحل ، ولكن لم تلبث هذه الآمال أن خابت فكانت خيبتها بمحرك أقوى وهو اضطهاد الاتحاديين للعرب واجتهادهم في صرف قوى الدولة إلى تقوية الجامعة التركية أو الطورانية وإكراه سائر الشعوب العثمانية على الاندغام فيها بمحو لغتهم وجميع مميزاتهم القومية والوطنية ولا سيما السوريين والعراقيين من العرب ، وتلا هذا المحرك الثالث وهو حرب البلقان التي انكسرت فيها الدولة انكساراً حرك المطامع الأوربية المستعدة للوثوب على البلاد العربية لاستعمارها ، وعلى أثر ذلك تألف حزب اللامركزية في مصر والجمعية الإصلاحية في بيروت من المسلمين والنصارى ، وباتفاق الحزبين مع بعض شبان السوريين المشتغلين بتلقي العلم في أوربة تكون المؤتمر السوري وجعلت رياسة إدارته لحزب اللامركزية لأنه أقوى الأحزاب وأظهرها وأعمها .

وأما الحرب فقد كانت بويلاتها ومصائبها محركاً إنسانياً وطنياً للتعاطف والتراحم كما وصفنا في هذه الرحلة ووصف غيرنا من الكتاب في الجرائد السورية في جميع الأقطار .

وأما المحرك الأخير وهو الاحتلال فقد كان جب أن يكون - بعد تلك المحركات الممهدة أو المؤسسة - هو المتمم للبناء ، ولكنه كان هادماً للأساس والقواعد وراجعاً بهؤلاء السوريين المساكين إلى شر مما كانوا عليه قبل تلك التطورات أو المحركات الدافعات لكل فريق إلى السعي للاتفاق مع الآخر وتكوين جامعة وطنية ، وقد كان كل فريق مؤاخذاً في هذا اللوم الذي كان مظهراً لفقد التربية الوطنية والقومية وتغليب التعصب الديني على كل ما سواه حتى كأنه - أو لأنه - قد صار غريزة أو ملكة راسخة لا تزول إلا بجهاد طويل ينقرض فيه جيل ويتجدد جيل .

ذلك بأن الاحتلال المختلط الذي تلا جلاء الترك عن سورية كان مذبذباً ، فقد

سبق الأمير فيصل بجنوده ورجاله إلى احتلال البلاد باسم الحكومة العربية ورفع على معاهد الحكومة في مدنها علمه العربي الحجازي ، وكان الأهالي قد سبقوا إلى تأليف حكومة وطنية مؤقتة ، وتلاه الاحتلال المختلط المثلث تحت قيادة الإنكليز ، فالقسمة المثلثة فالقسمة الثنائية ، ولما جاء رجال فيصل أولاً خضع لهم الجميع ورفعت الحكومة اللبنانية علمه على دار الحكومة في (بعبدا) وكانت المبشرات بالثورة العربية والحكومة العربية الجديدة التي ستنقذ البلاد من الترك(؟) قد تغلغلت في البلاد بسعي الدولة البريطانية ، فكان مجيء رجال فيصل واستيلاؤهم على مصالح الحكومة منتظراً وعده الأهالي أمراً متفقاً عليه بين الحلفاء - ومنهم ملك العرب - فتلقاه النصارى كالمسلمين بالرضا والتسليم .

وهنا ظهر تقصير المسلمين وجهلهم بالسياسة وطبائع الاجتماع ، إذ شكلوا الحكومة السورية أولاً والحكومة العربية ثانياً من أنفسهم ولم يطلبوا كبراء النصارى في الجاه والعلم إلى التشاور والاشتراك في تأليفها ، وقد بحثت في هذه المسألة في بيروت وغيرها فاعترف لي بعض من ذاكرت فيها من المسلمين بالتقصير ، وأنه لم يكن سوء نية إذ لم يكن عن تشاور بين المسلمين أنفسهم حتى يقال أنهم استأثروا بالأعمال وتعمدوا أن يكونوا وحدهم حكام البلاد ، بل كانت الأعمال في ذلك فريدة فكل من يطمع في وظيفة يسعى إليها ، وإنما كان جل السعي إلى ذلك من أفراد المسلمين لما سبق لهم من التصدي لخدمة الحكومة والتعلم في المدارس العثمانية الرسمية لأجل ذلك ، وقلما كان النصارى يتصدون لذلك ويستعدون له أو يدخلون مدارس الدولة التي هي الوسيلة إليه . ولو كان للمسلمين حزب سياسي منظم لما فاته أن يغتنم هذه الفرصة لإتمام ما تأسس في تلك التطورات العربية من أسباب الاتفاق ودواعيه . نعم إنه كان في البلاد جمعية سياسية سرية لها علاقة وارتباط بالأمير فيصل ولكن أكثر أفرادها من الشبان الذين لم ترتق بهم السياسة إلى مثل هذا الفكر .

لم تكد تستقر الحكومة العربية الفيصلية بالاحتلال العربي حتى تبعها الاحتلال المختلط من الإنكليز والفرنسيس الذي قسم سورية الشمالية إلى منطقتين : غربية ساحلية احتلتها الجنود الفرنسية وجعلت لها السيطرة عليها تحت رياسة القيادة

الإنكليزية المحتلة معها ، وشرقية داخلية احتلها الجند العربي باسم حكومة الحجاز وإن كان الجند نفسه مختلطاً والمنظم منه مؤلفاً من السوريين والعراقيين ، وقد جعل له السيطرة في هذه المنطقة تحت رياسة القيادة البريطانية أيضاً . وكان هذا التقسيم مقدمة لتنفيذ اتفاق سنتي 1916 و 1917 وقد اعتمدت السلطة الفرنسية في إدارة المنطقة الغربية على صنائعها من النصارى ولا سيما الموارنة منهم فأكثرت من الموظفين من هؤلاء فكانت كثرتهم مخرجة لمثل عددهم من المسلمين لأن أكثر أعمال الحكومة كانت بأيديهم من عهد الترك ، ورأى النصارى أن الدولة قد دالت لهم فرضوا بذلك وسروا به ، ولم يكن للمسلمين يد عندهم في تلك الأيام القليلة التي صار أمر الحكومة إليهم فيها ، فأعرضوا عن المسلمين بل صاروا يؤذونهم بالقول والفعل واعتزوا عليهم وعتوا عتواً كبيراً لم يفعل المسلمون شيئاً منه في دولتهم التي تعد بالأيام لا بالشهور ولا بالسنين ، ونسوا كل ما كان قيل قبل ذلك من حرص المسلمين على الاتفاق معهم قبل الحرب العامة حتى رضوا أن يكون لهم نصف الأعضاء في مصالح الحكومة المنتخبة وغير المنتخبة وذلك فوق ما تقتضيه النسبة العددية العادلة التي تجري عليها جميع الدول الراقية ، وما كان من عطفهم عليهم وتضامنهم معهم في زمن الحرب . وقد اشتهر ما وضعوه من الأناشيد في ذم المسلمين وإهانتهم وإنشادها في الشوارع والأسواق في بيروت يوم عيد الفصح . ولولا أن اعتصم المسلمون بالصبر والحلم لوقعت يومئذ مقتلة فاضحة تعد سبة لسوريا ما بقي الدهر .

على أن المسلمين لم يكونوا قد يئسوا من سعي فيصل إلى استقلال جميع سورية وجعل حكومتها عربية بل كان رجاؤهم في ذلك عظيماً وقد شهد لهم بعض كبراء الضباط الإنكليز على المسيحيين ولا نحب أن نشرح[16] ذلك ونطيل فيه لئلا يعد انتصاراً منا لأهل ملتنا ، ونحن إنما نكتب لأجل التأليف والاتفاق لا لتقوية الشقاق . وغرضنا أن نقول أن مسلمي بيروت شعروا في هذه الحالة بشدة حاجة البلاد في هذه المنطقة إلى الاتفاق بينهم وبين النصارى على الوحدة الوطنية ولكن لم يجدوا منفذاً للسعي . ويقابل ذلك في المنطقة الشرقية – حيث يقل المسيحيون – أن المسلمين

(16) في الأصل (نشرع) والتصرف من (الوراق)

كانوا والحكومة في أيديهم يجتهدون في استمالة النصارى وإشراكهم في كل عمل ويودون إعطائهم فوق ما يريدون بحسب النسبة العددية ، وقد جرت الأحزاب السياسية على إزالة الصبغة الإسلامية من الحكومة السورية العامة المتحدة ، فأنا أذكر هذا وذاك لا لتسجيل الذنب الأكبر على النصارى وتصغير ذنب المسلمين أو تبرئتهم ، بل لأثبت به إخلاصهم في الميل إلى الاتفاق .

وقد كتبت وأنا في بيروت عدة مقالات في جريدة الحقيقة بإمضاء (السيد) دعوت فيها إلى الاتفاق بالحجج الناهضة والأساليب الجاذبة ، واجتناب كل ما ينفر من الغاية المقصودة ، فظهر لها تأثير في زيادة ميل المسلمين إلى الاتفاق ، ولم يظهر هذا في النصارى إلا أثر ضعيف في بعض شبان المدرسة الأمريكانية الجامعة ، وقيل لي أن آخرين من الأحرار المستقلين قد سروا بها ولكن لم يستجب إلى الدعوة منهم أحد ، ولولا أن كانت تلك المقالات فائضة من روح الإخلاص والإنصاف والتلطف في الدعوة لوجد فيها المتعصبون من القوم والذين يخدمون سياسة التفرقة مآخذ للرد عليها ولكنهم لم يجدوا إلى ذلك سبيلاً . وقد نقل إلينا أن الاستعداد للاتفاق يقوى بعمل الزمان عاماً بعد عام . حقق الله الآمال .

التربية الملية مع التعليم العصري



لقد نام المسلمون نومة اجتماعية أطول من نوم أهل الكهف وأثقل . الموقظات التي تصخ الأسماع تتوالى من حولهم كالصواعق ، وقد ضرب على آذانهم فهم لا يسمعون ، ولما بعثوا وجدوا ما يعرفون من سير البشر قد تبدل فصار على غير ما يعهدون ، رأوا الغربيين قد سادوا العالم وتولوا إدارة شؤونه في بلادهم وبلاد غيرهم من حيث يشعر أولئك الأغيار ومن حيث لا يشعرون ، فحاروا في أمرهم لا يدرون ما يصنعون .

ماذا يعملون؟ ولماذا لا يدرون؟ وكيف يعذر بهذا الجهل المسلمون؟ القرآن يصيح بهم من فوقهم ، [إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم] وشواهد هذه القاعدة الاجتماعية القطعية بين أيديهم وعن أيمانهم وشمائلهم .

صفات الأنفس التي يتوقف تغيير أحوال الأمم بتغيرها هي ما يبعث على الأعمال من علوم وأخلاق، وهما يكتسبان بالتعليم والتربية كما ورد في حديث (العلم بالتعلم والحلم بالتحلم) فأما العلوم النظرية والفنون العلمية، فصناعات آلية، ترتقي بارتقاء العمران، وليس لها دين ولا وطن، بل يتبع فيها سير العمران واختلاف الزمن، وأما الأخلاق والملكات النفسية، التي تتجدد بها حياة الأمم الاجتماعية، فهي تختلف باختلاف الأمم في المقومات والمشخصات الملية والقومية، وتراعى فيها الغرائز القومية والوراثة الجنسية (الناس معادن كمعادن الذهب والفضة) هم كذلك في أفرادهم، وفي جماعاتهم وأقوامهم، فالقوم يعرض لهم القوة والضعف، والعز والذل، كما يعرض للمعدن الصقل والصدأ، والتربية والتعليم للأفراد والأقوام كالصقال للمعدن الذي يظهر رونقه الفطري ويزينه ويعظم الانتفاع به، ولا يقصد به تبديل جنسه ونوعه بتحويله إلى نوع آخر. فلماذا لم يجار المسلمون الغربيين في أساليب التربية الملية والتعليم المدني ومدارسهم بين أيديهم في ديارهم ولا سيما بيروت منها؟ فأعظم المدارس التي أسسها الإفرنج فيها المدرسة الإنجيلية الأميركانية والكلية اليسوعية، فلماذا لم يقتدوا بهم بتأسيس مدرسة قرآنية أو مدرسة محمدية؟ على أن سائر المدارس التي أسسها الإفرنج وتلاميذهم من النصارى الوطنيين دينية التربية ومنسوبة إلى البطاركة والقديسين من رجال دينهم، ويا ليت التربية الدينية فيها كانت مسيحية خالصة من شوائب الأهواء السياسية. كلا! إن كل شعب من شعوب الإفرنج قد بث في مدارسه التي أنشأها في الشرق دعوة سياسية نفخ فيها من روح الدين والمذهب، فكان ذلك أكبر أسباب الشقاق الديني في سورية، وقد كان هذا خفياً عن الدولة العثمانية الجاهلة المتساهلة وعن أكثر الناس، ولكن صار معروفاً للعوام كالخواص، إذ ظهر تأثيره بما تجدد من التفرق والشقاق، بعد تلك المسائل التي مهدت للاتفاق. وهي ما أشرنا إليه في الفصل الأول من هذه النبذة.

علم مسلمو بيروت من ضرر مدارس الإفرنج في هذه الأيام فوق ما كانوا يعلمون وناهيك بها، وقد حملها زوال الحكم العثماني من البلاد على التشدد في إكراه من يتعلم فيها من أولاد المسلمين على تلقي دروس الديانة النصرانية وحضور وعظها وصلاتها، فافترصت ذلك بإلقاء عدة خطب دعوت فيها إلى تأسيس مدرسة كلية

إسلامية ، ثم رغبت إلى عمر بك الداعوق الذي كان رئيس البلدية أن يدعو كبار الأغنياء الذين يرجى منهم الخير إلى داره لأجل دعوتهم إلى الاكتتاب لهذا العمل فلبى بالارتياح ، ولما انتظم عقدهم ألقيت فيهم خطاباً بما يقتضيه المقام من الكلم الذي يرجى أن يقع موقع الإقناع من العقول ، والتأثير من القلوب ، وفتح عقب الفراغ منه باب الاكتتاب فدخله الأكثرون وأرجأ الأقلون ، ولكن كان ما كتبوه من المبالغ غير لائق بهذا المشروع العظيم ، ولا بباعث على الرجاء في النجاح ، فآلمني ذلك وحفزني إلى إلقاء خطاب آخر كان شديداً بقدر شدة تألمي وتهيج شعوري حتى قال لي صديقي أحمد مختار بيهم بعد أيام أنه لا يوجد أحد نقبل منه هذه اللهجة الشديدة سواك ولكن كان من تأثير الإخلاص فيه أن ضاعف كثير من المكتتبين ما كانوا كتبوه من التبرع .

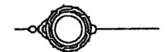
ثم ألفنا لجنة من كبار الوجهاء أهل الغيرة كانت تطوف على من لم يحضر ذلك الاجتماع في مكاتبهم ومخازن تجارتهم لإتمام الاكتتاب ، وأفرادها : (عمر بك الداعوق وأبو علي سليم علي سلام أفندي وأحمد مختار بك بيهم ومحمد أفندي الفاخوري ورشيد أفندي اللاذقي ورشيد رضا كاتب هذا) . وقد بلغ الاكتتاب بالمبالغ التمهيدية بضعة آلاف من الجنيهات مع اكتتاب سنوي آخر وقد سافرت إلى الشام قبل إتمام الاكتتاب فوقف سيره ولكن العمل لم يقف فقد ابتاعوا أرضاً واسعة بجوار الحرش باسم هذه المدرسة ستبنى فيها إن شاء الله تعالى .

هذا ما انتهى إليه السعي والاستعداد لهذا المشروع وهو ليس مما تبيض به الوجوه إلا إذا نظر إليه من حيث أنه بدء حياة اجتماعية جديدة يرجى أن تنمي وتزداد بالعمل وقد كنا معشر الساعين إليه غير مغرورين بنهضتنا ومبلغ استعدادنا ، ولذلك اتفقنا على أنه لا يرجى نجاحه وثباته إلا إذا عهد به إلى جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية التي ستكون إن شاء الله تعالى من أغنى الجمعيات الوطنية ، فقررنا نوط العمل بالجمعية ، وسعينا إلى تجديد نظامها وتنظيم جلساتها التي كانت معطلة ، فتم ذلك في أقرب وقت بمساعدة رئيسها صاحب الفضيلة مفتي بيروت أدام الله النفع به .

ولما شعر المسيحيون بهذا السعي استكبره على المسلمين المستكبرون ، وكرهه لهم

ومنهم الكارهون ، وكتبوا في جرائدهم أننا نريد لوطننا السوري مدارس وطنية ، لا مدارس دينية ، فالدين هو الذي فرق كلمتنا ، وأغرى العداوة والبغضاء بيننا ، فرددت عليهم في جريدة الحقيقة بأن المدارس الدينية التي فرقت وفعلت ما فعلت هي مدارس مسيحية لا إسلامية ولا وطنية فإذا رضيتم بتركها واستبدال مدارس وطنية بها فإننا نضع أيدينا في أيديكم وأموالنا مع أموالكم وأولادنا مع أولادكم ، ولكننا نقول إن الدين لم يكن هو المفرق والمغري بالعداوة بأصوله وتعاليمه بل بسوء استعمال السياسة الأجنبية له وإننا بالتربية الوطنية يمكننا أن نجعله من أكبر أسباب الاتفاق والتعاون ، وفي نصوص القرآن والإنجيل ، ما يهدي إلى سلوك هذه السبيل ، وهي التي سلكها فقيد الوطن البستاني الذي اتفق المسلمون مع المسيحيين على احترامه والاحتفال في هذا العام بذكرى مرور مئة سنة من تاريخه .

فهلموا ننشئ مدرسة وطنية جامعة ولنجعل في جانب منها مسجداً وفي جنب آخر كنيسة ، فإن التربية لا تكمل بغير فضيلة ، والفضيلة لا تكمل بغير دين ، وفي كل من الدينين الإسلامي والمسيحي فضائل كافية ، وهي في الأكثر متفقة أو متقاربة . فليرب كل فريق منا أولاده على عبادات دينه وفضائله ، ومحبة وطنه والتعاون على ترقيته ، على قاعدة المنار الذهبية (نتعاون على ما نشترك فيه ، ويعذر بعضنا بعضاً فيما نختلف فيه) فنحن مشتركون في أرض هذا الوطن وفي جميع مصالحه الاقتصادية والسياسية ومشتركون في اللغة فنتعاون على ترقية ذلك بجميع فروعه ، ولسنا مختلفين إلا في الدين ومذاهبه فيعذر كل منا الآخر ، وليعلم الأفراد المارقون من الدين من الفريقين أنه ليس في استطاعتهم هدم الدين ، وهذه البلاد وما يجاورها هي مهده ومنبت الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام ، أولئك العظام الذين يقدس ذكرهم مئات الملايين في الشرق والغرب ولا يعدون أحداً من الفلاسفة ولا من الملوك والفاتحين مساوياً ولا مدانياً لأحد منهم بل ولا أصحابهم وتلاميذهم الأولين ، ولا أوليائهم المخلصين . بهذا قامت الحجة لنا عليهم ، والمخلص في الدعوة إلى المصلحة العامة لا تدحض له حجة لأن الله تعالى هو المؤيد له [قل فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين] .



نكتب في هذا الفصل كلمة حق ، وما كل ما يعلم يكتب في مثل هذا الوقت ، لأن الزمن الذي يلد التاريخ لا يدونه كما قال بعض حكماء الغرب ولأن الكتابة في السياسة يراعى فيها مصالح كثيرة يقع التعارض فيها فيرجح كل ناظر بين المتعارضات باجتهاده .

قد اشترطت علينا السلطة الإنكليزية في إعطائنا جواز السفر إلى سورية شروطاً ثقيلة أشرنا إليها في الفصل الثاني من هذه الرحلة ، خلاصتها أن نتحامى إحداث تهييج سياسي بالكتابة أو الخطابة فوفينا بالشرط واكتفينا من الإفادة والاستفادة أن نعرف حقيقة الحال ونقول ما نرى أنه الحق النافع للبلاد ، مع النص للناس بما يجب عليهم من الاتفاق والاتحاد ، والعلم والاقتصاد .

أما أهل البلاد فقد كان التغاير بين المسلمين والنصارى منهم في السواحل بالغاً أشده ، فالنصارى كانوا يرون أن ملك البلاد سلب من المسلمين وصار لهم بقوة فرنسة وحمايتها والمسلمون يبكون أسىً وحزناً على الدولة العثمانية ويعلقون آمالهم بالأمير فيصل الذي ضمن لهم استقلال البلاد وجعلها دولة عربية بمساعدة بريطانيا العظمى ، فلهذا كانوا في منتهى النفور من الفرنسيس وكان من هؤلاء من يتودد إليهم ويجتهد في استمالة زعمائهم وأصحاب المكانة منهم فلا يزيدهم ذلك إلا نفوراً منهم ومبالغة في التعلق بفيصل ، فيضطرهم ذلك إلى حصر ثقتهم بالنصارى ومن يتقرب إليهم ويتملق لهم من طلاب المنفعة من المسلمين وإن كانوا لا نفوذ لهم ولا تأثير في أهل ملتهم . وقد فصلنا في الفصل السادس من هذه الرحلة ما أخطأ فيه كل من المسلمين والنصارى في هذا الأمر وما كان يجب على كل منهم من السعي إلى الاتفاق والاتحاد على مصلحة الوطن المشتركة وما سعينا إليه قولاً وعملاً وكتابة في هذا السبيل ، وقد كان هذا السعي كله بعد اضطرار السلطة الفرنسية إياي إلى الإقامة في بيروت وفي طرابلس عدة أشهر بعد أن كنت عازماً على أن أقيم فيها عشرة أيام فقط .

ذلك بأنني عقب إلمامي ببيروت(في 4 المحرم سنة 1338) قد أصابتني زكمة معوية فتأخرت عن زيارة طرابلس إلى 16 المحرم ولما أردت العودة منها إلى بيروت . عرض لي تصدي السلطة الاحتلالية ما سأذكره بعد ذكر اجتماعي في بيروت بالمندوب الفرنسي السامي .



مقابلة المندوب السامي مسيو جورج بيكو

جاءني في يوم الاثنين (11 المحرم -17 أكتوبر 1919) شرطي بيروتي وقال لي إذا كنت تحب أن تقابل القومسير السامي (مسيو جروج بيكو) فهو مستعد لمقابلتك بين الساعة التاسعة صباحاً والظهر في الدار التي كانت للوالي ، فوعدت بالذهاب وذهبت في الساعة العاشرة وقابلته فمكثت معه من الساعة الحادية عشرة إلى ما بعد الظهر فاحتفى بي وتلطف غاية التلطف ودار الحديث بيننا في ثلاث مسائل :

(المسألة الأولى) ما ينكره المسلمون من السلطة الفرنسية . سألني عن عهدي برؤية البلاد وكيف رأيت حال المسلمين اليوم؟ فقلت له إن المسلمين على كونهم لم ينسوا ما انتابهم في آخر زمن الترك من الرزايا والمصائب يبكون عليهم وإن لم تجف دموعهم من البكاء منهم لأنهم يهانون في هذا الوقت حتى في دينهم . . . فأجاب بأنه وقع من رجالهم أغلاط كثيرة لا ينكرونها ولكنهم سيتلافونها ، وأنه على ما ينويه من المساواة بين جميع الطوائف والملل في الوظائف وغيرها سيجتهد في مراعاة شعور المسلمين الديني بدقة وعناية تامة ، وذكرت له أن أهم ما يهم المسلمين (كما يهم غيرهم أيضاً) جعل التعليم باللغة العربية وجعلها هي الرسمية وعدم تعرض السلطة للأوقاف والتعليم الديني فوعد بذلك وعداً مؤكداً . وإنما ذكرت له هذا لأسمع منه ما يقوله فيه لا لاقتراح شيء عليه .

(المسألة الثانية) ما ينوون عمله في المنطقة الشرقية . سألته هل تظل على حالها؟ فقال : لا بد من توحيد الإدارة في البلاد كلها ومن وجود المستشارين الفرنسيين في الداخل كالساحل إلا أن الاحتلال العسكري يبقى في الساحل فحسب . قلت وهل يكون لسورية كلها حاكم واحد كالأمير فيصل أم تجعل قسمين لكل منهما أمير أو

حاكم وطني عام؟ قال : لا بد من قسمة البلاد إلى عدة ولايات أو مقاطعات ، ولا يعلم الآن كيف يكون ذلك لأنه يتوقف على ما يكون عليه الصلح مع الترك لأن البلاد لا تزال لهم (بلاد العدو المحتلة) .

هذا ما قلته وهو أعلم بغرض حكومته على أنهم قسموا البلاد قبل الصلح مع الدولة فجعلوها بضع دول أكبرها وأفخمها ما سموه (لبنان الكبير) .

(المسألة الثالثة) المقابلة والتنظير بين الفرنسيس والإنكليز والسياسة الحاضرة وما ينتظر من التحول والانقلاب فيها ، وقد أطلنا فيها ما لم نطل فيما قبلها .

قال هو : إن الفرنسيس أرق طباعاً وألطف معاشرة من الإنكليز فهم يحترمون الشرقيين وغيرهم ويقابلون أهل الفضل والمكانة بما هم أهل له من الحفاوة والإكرام وأما الإنكليز فمتكبرون يزرون بأقدار الناس- أو ما هذا معناه .

قلت : إن لطف الفرنسيس وحسن معاشرتهم وقربهم من الشرقيين في ذلك مشهور كشهرة الإنكليز بالجفوة والانكماش والعجب بأنفسهم ، وإننا قد اختبرناهم في مصر فألفيناهم كما يقال عنهم إلا أن آدابهم عالية في معاشرة من يرضون معارته ولقاء من يودون لقاءه ، ولكن ما جبلوا عليه من الترفع والعجب والأثرة والطمع ومحاولة الانفراد بالسيادة سيبغضهم إلى جميع الأمم والشعوب ويؤلبها عليهم . وذكرت طمعهم في بلاد العرب والعجم والآستانة وما يقصدون من مد ظل سلطنتهم (إمبراطوريتهم) من الشطر الإفريقي من إفريقيا والغربي من آسية إلى حدود الصين وسيادة سائر البحار وإزالة ملك الإسلام من الشرق وجعل الدول العظمى في أورية عالة عليهم وتبعاً في سياسة العالم . قلت : حتى إنني لأتوقع مجيء يوم ترون فيه من مصلحتكم محالفة الألمان على الإنكليز ، فوافقني على آرائي في هذه الأمور بعد مناقشة في بعضها وقال في توقع الانقلاب في سياسة الحلفاء أنه غير محال أو غير بعيد ولكننا الآن متفقون في كل شيء .

وبهذه المناسبة ذكرت له خلاصة من مذكرتي التي أرسلتها إلى مستر لويد جورج في هذا الموضوع ليعلم أنني لم أقل له ما قلت في الإنكليز تقرباً إليه كما يفعل أنصارهم في سورية وإنما هو شيء قلته بل كتبته لأعظم رجال الإنكليز لأنني أعتقده وأعتقد أن استمرارهم على تقاليدهم السياسية القديمة شر لهم وأنه سيفضي إلى

عداوة الأمم لهم والخلاف مع حلفائهم الذي اضطرهم إلى محالفتهم الخطر الألماني المهدد للفريقين المتأصل تعاديهما في بطون التاريخ وقد تجددت بينهما عداوة حسد المهضوم حقه في هذه المحالفة بكثرة خسارته للآخر الذي زاد ربحه على خسارته أضعافاً ولم يرو غليل مطامعه ، أعني عداوة اللاتين للإنكليز . وقد صرحت بهذا في مذكرتي للوزير البريطاني التي نوهت بذكرها في مقالة (الحقائق الجلية في المسألة العربية) وكان غرضي منها إقناعه بترك قسمة تراث الإسلام لأنه لم يمت والاعتراف باستقلال العرب والترك والفرس وكذا مصر ، ولا تزال الأيام تصدق بأحداثها كل ما كتبته في تلك المذكرة كما صدقت ما كتبته لهم فيما قبلها ، ولكن جمود اللورد كرزون على سياسة الطمع القديمة والتعصب الديني والجنسي الذي يشاركه فيه مستر لويد جورج على مرونته وتقلبه من أكبر أسباب ما تفاقم على إنكلترة من الكوارث السياسية وعجزها عن حل شيء منها .

بعد هذا الاستطراد أقول : إنني لم أكن أحاول إقناع مسيو جورج بيكو برأيي لأجل عمل يرجى أن يأتي منه ، كيف وقد كان هذا الكلام في أيام تنفيذ معاهدة سنة 1916 التي وضعها هو وصديقه السر مارك سايكس بين الدولتين ، وكانت والجنود البريطانية تخرج بذخائرها وسلاحها من سورية الشمالية كلها وتتركها للجيش الفرنسي بعد تنازع وقع بينهما في سبيل تنفيذها ظهر أثره في سورية كما ظهر في باريس ولندن ، حتى قال بعض دهاقين السياسة أنها نقضت نقضاً ، ومنهم مسيو كلمنصو رئيس الوزارة الفرنسية لذلك العهد ، وكانت فرنسة يومئذ تريد أن تتخذ اتفاق الأحزاب السورية على طلب وحدة البلاد وسيلة لجعلها كلها تحت سيطرتها باسم الانتداب ، فعارضتها السياسة الإنكليزية بحزب سوري تألف في مصر يطلب أن يكون الانتداب لحكومة الولايات المتحدة ويحمل الأمير فيصل لحزبه في الشام على طلب جعل الانتداب لإنكلترة وحدها فإن لم يكن فلها ثم لحكومة الولايات المتحدة الأمريكية إذا هي لم تقبل وقد كان المظهر الأكبر لهذا التنازع بين السياستين في البلاد أيام إلمام الوفد الأمريكي بها لاستفتاء أهلها في مستقبلهم وفي اختيار الدولة المنتدبة .

وفي السابع عشر من المحرم (12 أكتوبر) ذهبت من بيروت إلى طرابلس والقلمون

في سيارة فأقمت فيهما ستة عشر يوماً طلبت في أثنائها من الحكومة إعادة وقف جامع القلمون إلي، إذ كنت الإمام والمتولي الشرعي له، وكانت إدارة الأوقاف تولت أمره منذ بضع سنين وحال انقطاع المواصلات بالحرب العامة دون مطالبتي إياها بإعادته إلي كما كان في عهد والدي (رحمه الله تعالى) فوافقت لجنة الأوقاف بطرابلس على إعادته وقررت باتفاق الآراء أنني المتولي الشرعي، وكتب مأمور الأوقاف بذلك إلى مدير أوقاف الولاية في بيروت، فأزمعت الذهاب إلى بيروت لإتمام هذا الأمر الذي جرى لي فيه من العبر ومعرفة الخلل في الحكومة وأخلاق رجالها وسيرتهم ما يعلم به أن جل ما تشكو منه البلاد فهو من أهلها أو بمساعدتهم ويستحق أن يفرد له فصل خاص وإنما كلامنا الآن في الحال السياسية .

حادثة تعرض السلطة الفرنسية لنا



في الثالث من صفر (28 أكتوبر) أخذت ورقة للسفر من طرابلس إلى بيروت في باخرة فرنسية تسافر من الميناء ليلاً، وكنت في الميناء فأردت النزول إلى الباخرة فقيل لي إن السفر يتوقف على توقيع السلطة الفرنسية على جواز السفر - وهذا لم يكن من قبل - وكان من التسهيل غير المنتظر أن الشرطة وقعت على الجواز إذ عرضه عليها من تبرع لذلك من معارفنا ومعارفهم ولا أدري أكان في ذلك دخل متوخى أم لا، ولكننا لم نكد نضع متاعنا في الزورق مع متاع كثير من المسافرين إلا وفاجأنا الشرطة ففتحوا جميع صناديقي والأسفاط ومحفظة الورق ومحفظة النقود وبطائق الزيارة وفتشوا كل ذلك تفتيشاً دقيقاً لم يغفل فيه طيات الثياب ولا جيوبها، ثم فتشوا جيوبي وأخذ شرطي جميع الأوراق، ودعاني إلى الذهاب معه إلى إدارة المكس (الجمرك) فذهبنا وأعيد المتاع إلى حيث كان، وطفقوا هناك ينظرون في الأوراق نظراً دقيقاً وكان جل عنايتهم وأشد دقتهم فيما ظنوا بجهلهم وغباوتهم أن فيه أسراراً سياسية ينال مكتشفها أسنى الجوائز عند السلطة الفرنسية، وهو فهرس وضعته للجزء الثامن من تفسير القرآن، راعتهم أرقامه فظنوا فيها الظنون، على أنني أخبرت الباحث فيه بأنه فهرس لكتاب في التفسير . . . فقال يمكن أن يكون كتب في أثنائه شيء

سياسي(!!) .

ولما طال هذا البحث استأذنت الشرطي في الذهاب إلى دار نسيبي الشيخ حسن الصفدي لأجل العشاء وصلاتي العشاءين وتغيير الثياب ، فأبى وقال إن رئيسه (لبنان بك) أمر أن أبقى ثَمَّ إلى أن يجيء هو من المدينة إلى الميناء .

ثم في أثناء الساعة الثالثة بعد الغروب جاء شرطي (أو قومسير) اسمه (حنا) على ما أتذكر وقال إن لبنان بك أرسله بالنيابة عنه ليأخذني إلى دار الحكومة في المدينة لأجل توقيفي فيها (التوقيف في عرف الحكومة التركية هو الحبس الموقت) فاستأذنته بما استأذنت به الأول فلم يأذن ، وذهبنا إلى المدينة بالترام ، فوضعوني في حجرة من حجر الشرطة نوافذها مكسرة الزجاج وكان فيها مصباح صغير فيه قليل من زيت البترول نفد فانطفأ ولم يجد من في الحجرة من الشرطة غيره ، وكانالماء مقطوعاً عن دار الحكومة وليس في المراحيض ورق للإستنجاء ، فكان التخلي فيها متعذراً على أمثالنا كما كان النوم متعذراً ، لأن هواء الليل في طرابلس يأتي من ناحية الجبل الذي يعلوه الثلج فيكون بارداً جداً كما يكون هواء النهار حاراً بالنسبة إليه ولا سيما في تلك الأيام من فصل الخريف .

ثم جاءنا الشرطة بفانوس كانوا ينقلونه من حجرة إلى أخرى ، ثم قالوا إن الحاكم العسكري قد حضر فأخذوا الفانوس وأصعدوه على نوره إلى حجرته وتركوه له فيها ، وقد بلغني بعد ذلك أن سبب مجيئه ليلاً على خلاف العادة أن بعض المقربين إليه من الوجهاء علموا بمسألة توقيفي فبلغوه ذلك إذ كان يريد النوم وأنذروه أنه إذا بقي هذا الرجل موقوفاً إلى النهار وعلم الناس بذلك فلا يؤمن أن يثوروا ويهجموا على دار الحكومة لإخراجه عنوة وتكون فتنة كبيرة . وقد ظل الحاكم مع ترجمانه ينظران في الأوراق ساعة و 30 دقيقة ثم طلبني وبلغني ترجمانه ما يأتي :

(إنك جئت إلى هنا وكان البوليس السري يتعقبك ، ولما نزلت إلى البحر أخذوا أوراقك فوجد فيها شيء يدل على أنك تشتغل بالسياسة ، وفيها ما يدل أيضاً على أنك رجل مهم غير عادي ، وكان في تلك الأوراق قوانين وقرارات بعض الجمعيات ومكتوبات من بعض المشهورين في سورية والشرق حتى الهند والغرب حتى مراكش فيها إطراء عظيم» فأنا لا أريد أن أوقفك هنا وإذا كنت تريد السفر إلى بيروت فتابع

سفرك إليها وأنا أرسل أوراقك إلى حاكمها الإداري ليرى رأيه فيها .

قلت أحسنت صنعاً فرجالكم في بيروت أجدر بمعرفتي وإنصافي منك ، وإني لأشهر بما تدل عليه الأوراق ، قال إنك لم تزرني لأعرفك .

ثم قال الترجمان للشرطي (أو القومسير) حنا الذي صحبني خذ هذه الأوراق (وكانت قد وضعت في ظرفين كبيرين ختما بالشمع الأحمر ولا يزالان عندي) وهذا المكتوب وأعطوها لبوليس يسافر مع الشيخ إلى بيروت إلى دار الحكومة فيها ، ويجب أن تفهموا هذا البوليس أن يكون رفيقاً بغاية الأدب لا كما كانوا يفهمون من قبل أنهم مسيطرون على من يصحبونه يتحكمون فيه ويهينونه . وأعطاه ورقة أخرى من الحاكم إلى رئيسهم (لبنان) .

ثم صافحت الحاكم ونزلت معه إلى خارج دار الحكومة حيث ركبت عربة وركب معي نسيبي الشيخ حسن وأخي السيد إبراهيم أدهم ، وهما لم يفارقا دار الحكومة منذ جاءا معي ، وركب معنا شرطي يحمل الورق وقصدنا الميناء فألفينا (لبنان) في الطريق عائداً ، فأعطاه الشرطي رقعة الحاكم له فأرجعنا إلى دار الحكومة ولم يرض أن أسافر في البحر ، وأمر حنا بأن يستأجر لي عربة من مالي ويرسلني في البر ، وكان يتكلم بغلظة وخشونة وعظمة الحاكم القاهر المستبد ووكل إلى حنا تنفيذ الأمر وذهب .

وفي أثناء الساعة الثالثة الزوالية بعد نصف الليل أحضرت المركبة – وأجرتها 450 قرشاً مصرياً صحيحاً كما زعموا وليس لي أن أعارض – الشرطي الذي يحمل الورق فأوصاه حنا بما يأتي :

إذا صادفت في الطريق أحداً يريد أخذ الأوراق منك فأطلق عليه الرصاص وإذا أراد أحد أخذ الشيخ منك فأطلق الرصاص على رجل الشيخ (أو قال رجليه) وعلى من يحاول أخذه .

ثم ركب معنا حنا نفسه وجندي مسلح إلى أن تجاوزنا بساتين طرابلس لئلا يكون أحد من الأهالي علم بأمرنا وكمنوا بين الأشجار ليأخذوني عنوة ، وهو يجهل أن مثلي لو كان جانياً لترفع عن الهرب فكيف وهو يعلم أنه ليس في أوراقه ما يمكن أن تعاقبه عليه السلطة الفرنسية مهما يكن ضغطها على المسلمين شديداً في ذلك

الوقت مقاومة للفكرة العربية والتعلق بفيصل ولو عاقبته لما زاده عقابها إلا رفعة قدره ، على أن الشرطي الذي أرسل معي كان مسلماً فلم يكن محتاجاً إلى التوصية بالتأدب معي بل كان من أولياء بيتنا ويتمنى لو يكون في خدمتي طول عمره ، وكان إرساله معي مما أثار عجبه وعجبي فكيف وقد أوصي بتلك الوصية الحمقاء التي كان يتلذذ بمثلها أولئك المتعصبون من أوباش اللبنانيين الذين يعتقدون أن فرنسة حكمتهم في أشراف المسلمين وعلمائهم - بله عامتهم - تقرباً إلى يسوع المسيح والرسل والقديسين فكانوا حجة على فرنسة بأنها إما ظالمة سيئة الإدارة وإما متعصبة سيئة النية ، وسبباً لشدة نفور المسلمين واستيائهم منها وتفضيل الإنكليز عليها وشراً على وطنهم بإلقاء البغضاء والتفريق بين الفريقين الكبيرين من أهله ، كما يعلم مما مر في هذه الرحلة ومن بقية هذا الفصل منها ، على أن هذا كان مفيداً للمسلمين من حيث أنه قوى فيهم نزعة الجنسية العربية وحب الاستقلال ، ومعرفة قيمته كما قوى فيهم روح الدين وأعاد إليهم بعض ما فقدوا من هدايته . وكان جميع المشتغلين بالسياسة من خصوم الاحتلال الفرنسي يسرون بسوء تصرفها وتصرف أعوانها ولا يحبون أن تحسن الإدارة لئلا يميل إليها الجمهور .

ولو كان أمثال (لبنان) وحنا ممن اصطفاهم الفرنسيس من بيوتات لبنان المعروفة أو من الأفراد الذين تربوا تربية ترفع من خسة المنبت ووراثة السوء لما كانوا يعاملون مثلي بهذه المعاملة وإن أُمروا بها أمراً بل كانوا ينصحون للأجنبي الذي يأمرهم به بمثل ما نصح لحاكم طرابلس العسكري من حملوه على خروجه من داره ليلاً ليتلافى بنفسه ما كان أمر به . فأما أبناء البيوتات فإنهم ورثوا الأدب الشرقي في احترام الأسر الشريفة والعشائر المحترمة . وأما أبناء التربية الحسنة فيعرفون قيمة العلم والأدب ويحترمونهم بالطبع فينزهون أنفسهم معهم عن سوء الأدب .

وأما ما كان من أمر هذه الحادثة في بيروت فهو أننا لما وصلنا إليها وكان ذلك بعد المغرب من يوم الأربعاء صادفنا في الطريق إلى دار الحكومة بعض الأصدقاء فسار أحدهم معنا إليهم وانتظر آخرون ما يعود به من الخبر ليبنوا على ما يقع لنا ما يجب أن يعمل لتلافيه إن كان شراً . ولما دخلت دار الحكومة لقيت فيها لدى الباب الشيخ عبد الكريم اليافي نقيب أشراف بيروت من أصدقائنا الأولين «لآل اليافي مودة لآل

بيتنا منذ قرن ونيف على عهد أشهرهم الشيخ عمر اليافي الشاعر الأديب صاحب الديوان المعروف ففي ديوانه بعض القصائد التي مدح بها جد والدي السيد الشيخ محمد الكبير وله فيه قصائد أخرى ومنها تاريخ داره في القلمون وقد نقش على رخامة فوق بابها الكبير في أبيات من قصيدة وبيت التاريخ بل كل من قد حلها أرخ يراها خير دار سنة 1232» وهو موال للسلطة الفرنسية فسألني بعد التحية عما جاء بي إلى دار الحكومة في ذلك الوقت فأخبرتهفأخبر حاكم بيروت أو نائبه بخبري مقروناً بالثناء والتزكية والضمان غير الرسمي ، فرضي بأن أخرج وأكون حراً في بيروت إلى أن ينظروا في هذه الأوراق وينصفوني فيها بشرط أن لا أعمل أعمالاً سياسية مضاداً لهم فيها .



تقريري للمندوب الفرنسي السامي

كان هذا الحدث وسيلة لي إلى كتابة تقرير للمعتمد الفرنسي بدأته بالتذكير بما دار بيني وبينه وشرحت فيه ما كنت أجملته في الحديث معه يوم لقائه من اضطهاد المسلمين بما لم أكن أعلمه يومئذ لقرب العهد بالوصول إلى بيروت ومنها كون النسبة إلى العرب من كبار الذنوب السياسية مع كونه هو وكثير من كبار رجال فرنسة قد صرحوا بأنهم يريدون إحياء الجنسية العربية ولغتها ومدنيتها .

ثم ذكرته فيه بتفضيله الفرنسيس على الإنكليز في معرفة أقدار الناس من أفراد أو شعوب وقفيت على ذلك بإعلامه بأنني كنت في مصر أنتقد سياسة الإنكليز كتابة وخطابة وقولاً في المجالس العامة والخاصة وقدمت لهم في أثناء الحرب وبعدها مذكرات في تخطئة سياستهم في المسألتين العربية والإسلامية حتى التركية ، وآخرها المذكرة التي أرسلتها إلى وزيرهم مستر لويد جورج وأنذرته فيها بعداوة العالم الإسلامي لهم . وأنه قدمت إليهم تقارير كثيرة في أمثال هذه المسائل (علمت هذا من نائب الملك وغيره) وكانوا يعلمون أن لي علاقة ودية بأمراء العرب وزعمائهم وجمعياتهم ، بل عثروا على رسالة تعد تحريضاً للعرب على الأجانب وقيل لهم إنني أنا الذي طبعتها ووزعتها –ومع هذا كله لم يفتشوا لي منزلاً ولا مطبعة ولا أهانوني

بقول ولا عمل ، ولم يقابلني أحد من كبار رجالهم إلا بالاحترام اللائق - فأين ذا مما عاملتني به السلطة الفرنسية في طرابلس؟

وذكرت له بهذه المناسبة أيضاً كلمة عن ذهابي إلى الهند سنة 1912 بدعوة جمعية ندوة العلماء فيها لرياسة المؤتمر الإسلامي ، وأن الإنكليز كانوا كارهين لهذه الدعوة وبلغني في الهند أن جواسيسهم كانت تتبعني كما فعلت وتفعل جواسيس فرنسة بطرابلس وبيروت ولكن لم يتعرض أحد لحريتي الشخصية ولا فتحوا صناديقي ولا فتشوا أوراقي ، وختمت هذه المسألة بقولي له (وليس هذا بكثير على حرية الإنكليز التي قسروا بها من يختبرهم ويختبر غيرهم على تفضيلهم على جميع الشعوب الأوربية في الحرية ومعرفة أقدار الناس) .

قلت بل كان الغريب ما عاملني به أحمد جمال باشا الاتحادي الشهير في بغداد - وكان يومئذ جمال بك - إذ ألممت بها منصرفي من الهند وكنت مجاهراً بالطعن في الاتحاديين والتنفير عنهم وكانت (مجلة العالم الإسلامي) التي يصدرونها في الآستانة تنشر بقلم الشيخ عبد العزيز شاويش أنني أقصد العراق لأجل تأليب العرب وإثارتهم على الدولة ولكن جمال باشا لم يأخذ هذا الكلام قضية مسلمة بل سأل نقيب السادة الأشراف السيد عبد الرحمن المحض الكيلاني (رئيس وزارة بغداد لهذا العهد) وبعض كبار العلماء عني فبالغوا في الثناء (وكان هو يعرف عني شيئاً وكتب إلي قبل سفري ذاك) فأكرمني وزارني ودعاني إلى طعامه . فأين هذه المعاملة من أقسى الاتحاديين الذي اشتهر بلقب السفاح من معاملة الفرنسيس لي في بلدي وأنا لم أفعل شيئاً يخالف القانون ولا يخل بالأمن ولم أدخل في غمرة الأحزاب السياسية الخ .

وختمت المذكرة بسوء تأثير هذه الحادثة في أنفس المسلمين الذين صاروا يتعجبون لما كانوا يسمعون من حسن سيرة فرنسة وسوء سيرة الدولة العثمانية وقد تبين لهم أن الترك أعدل وأرحم وأبعد عن التعصب وأحسن إدارة من الفرنسيس ، فصاروا يسألون عن سبب سوء صيت الترك وحسن صيت الدول الأوربية الخ .



أرسلت المذكرة إلى المندوب (القومسير) السامي فلم ألبث أن دعيت إلى مقره الرسمي (القومسيرية وكان ذلك في 8 نوفمبر) فقابلني فيها (مسيو رودريكص) معاون مدير الأمور السياسية لأنه يحسن العربية وكان هو المترجم بيني وبين المندوب عند تلاقينا منذ شهر فرحب بي أجمل ترحيب ، وبلغني شدة أسف المندوب السامي لوقوع الحادثة وأنه كان يود لو يلقاني ليعتذر لي بنفسه لولا أنه أصيب منذ ثمانية أيام بإسهال تحول إلى دسنطارية وأنه كلفه الاعتذار باسمه وأن يخبرني أن الحاكم العام (مسيو نيجر) سافر أو يسافر إلى طرابلس لأجل هذه الحادثة ليحقق الأمر فيها ويعاقب المسيئين وأنه سيعزل حاكم طرابلس لأجلي . وكلفه أن يخبرني أيضاً بأن الحكومة الفرنسية مستعدة للقيام بكل ما أطلبه من التعويضات المالية والأدبية ، وكرر علي ذلك قائلاً مهما تطلب من التعويض يؤد بكل ارتياح .

قلت إنني لا أطلب تعويضاً مالياً وإنني لم أخسر من المال شيئاً يذكر وأما معاقبة المسيئين من الشرطة فهو لمصلحتكم لأنه يرفع عنكم تهمة تعمد إهانة المسلمين وظلمهم ، وأنا لم أخسر شيئاً من مقامي الأدبي بظلمكم إياي بل ذلك يرفع مقامي في نظر أهل وطني وغيرهم ، إلا أن حاكم طرابلس أمسك عنده أوراق وقفنا فأنا أطلبها للسعي في إنجاز العمل فيها .

قال إذا أنت لم تطلب لنفسك شيئاً فأنا أطلب منك باسم الوطن السوري أن تترك مصر وتقيم هنا وتشتغل بإصلاح بلادك فهي أولى بك لأنها فقيرة من الرجال ونحن في حيرة من هذا الفقر . . . نريد إنشاء مجمع لغوي وأن تكون أنت العضو الأول فيه وفي البلاد مصالح إسلامية خاصة أنت أولى بإصلاحها أو إدارتها ونود أن تكون مستشاراً للحكومة العليا في البلاد لتكون خدمتنا لها على الوجه المرضي للمسلين أصحاب الأغلبية في البلاد وأن إدارة هذه البلاد من أشق الأمور وأصعبها لكثرة الأديان والمذاهب المتعادية فيها (وذكر أكثرها وأطال في استمالتي والثناء علي بلطفه وبشاشته) .

فشكرت له هذه العناية والثناء واعتذرت عن الانتقال من مصر إلى سورية بما لا حاجة إلى الإطالة به .

وكان اتفق في هذه الأثناء أن دعا الحاكم العام للولاية (مسيو نيجر) أكابر وجهاء المسلمين المعارضين لتأليفهم وسما[17] ما ينكرون على السلطة الفرنسية وما ينقمون منها ، فكان أشد ما ذكر له بما نقموا وأنكروا حادثتنا هذه ، تكلم فيها في ذلك الاجتماع وغيره أكبر العلماء مفتي الولاية الشيخ مصطفى نجا والشيخ أحمد عباس وأيدهما كبار الوجهاء المشهورين بالشجاعة الأدبية كالمرحوم أحمد مختار بيهم وأبي علي سلام فأكبروا من شأن صديقهم خادم الإسلام والوطن فحمل ذلك الحاكم على أن يطلبني ليسمع تفصيل الحادثة مني فاتفق أن طلبني مدير الأمن العام في الوقت الذي حده لي كتابة .

جئت دار الحكومة بعد العصر من ذلك اليوم فقابلت مدير الأمن العام أولاً فأعطاني أوراقي وبلغني عن حاكم مدينة بيروت الإداري أنه يجب أن أسافر إلى مصر في أول باخرة تسافر من بيروت إلى الثغور المصرية . ثم دخلت على الحاكم العام فرحب بي واعتذر عن الحادثة متأسفاً لوقوعها وقال إنها بلغته من مصادر مختلفة فأحب أن يعرف الحقيقة مني قبل سفره إلى طرابلس فلخصتها له ، فأعاد التلطف في الاعتذار ووعد بالتحقيق ومعاقبة المسيئين فقلت له : ذلك شأنكم ولكن مدير الأمن العام بلغني الآن أنكم حكمتم علي بالنفي من البلاد ولم يبين لي سبب هذا الحكم القاسي فهل هذا ما وعدتم به من العدل؟ وأنا لا يهمني عقاب أحد بعزل ولا غيره لأجلي ، فإن هذه الإساءة رفعت من قدري في نظر أبناء وطني ، ولكن حاكم طرابلس أرسل إليهم جميع أوراقي ما عدا الأوراق الرسمية المتعلقة بالوقف - ولخصت له خبرها - فأنا لا أطلب إلا استرجاعها لأجل إتمام المعاملة الرسمية في الولاية بها . فظهر الاستياء على وجهه وكتب أمراً بإلغاء حكم النفي معتذراً[18] عنه ، وأما أوراق الوقف فوعد بأن يحضرها معه . ثم ذهب إلى طرابلس وبحث مع

---

(17) كذا في الأصل ولعلها (وسماع) (الوراق)

(18) في الأصل (متعذراً) والتصرف من (الوراق)

حاكمها العسكري في ذلك وبلغني أن هذا قد احتج لنفسه بأن البوليس فعل ما تقتضيه وظيفته إلا إساءة المعاملة ، وأما هو فلما علم بحقيقة الحادثة حولها إلى الولاية ولم يسيء في شيء – وقد صدق في هذا – وبلغني أنه وبخ لبنان وصاحبه حنا وهددهما . وهكذا كان شأن السلطة الفرنسية بسوء اختيار الموظفين ، تقع في المشكلات وتحاول تلافيها فلا تحسنه ، ثم تعود إلى مثل ما اعترفت بقبحه لأنها لم تُزل سببه وعلته . على أن إزالة ذلك ليس بالخطب السهل ، ولا محل لبيان ذلك هنا لأننا لا نكتب لبيان ما نراه لتحسين الإدارة وإنما نكتب خلاصة تاريخية .

تعلق مسلمي الساحل بفيصل وتأثيره



قد كان استغرابي لاغترار المسلمين بالإنكليز وفيصل عظيماً جداً ولا سيما بعد تنفيذ الإنكليز لمعاهدة سنة 1916 باقتسام البلاد العربية بينهم وبين فرنسة ، وأغرب من ذلك استغرابهم لتخطئتي إياهم في ذلك وإعلامهم بما لم يكونوا يعلمون من أمر ثورة الحجاز وحقيقة حال ملكها والأمير فيصل وطمع الإنكليز في السيادة على جميع البلاد العربية ما عدا هذه الحصة التي أعطتها لفرنسة من سورية . وبجزمي بأنها لن تعود إلى منازعتها فيها وانتزاعها منها لتعطينا إياها ، وإنما يجوز بل يرجح أن تأخذها منها في يوم من الأيام ، إذا استقرت قدمها الاستعمارية فيما حولها من البلاد ، وأن تستخدمنا في ذلك كدأبها في ضرب الأمم بعضها ببعض .

كنت أقول في كل مجلس يدور فيه البحث في أمر البلاد أن مثل إنكلترة مع فرنسة في المسألة العربية كمثل جبار غاصب انتزع ضيعة لأسرة غنية من أيديها وأعطى بستاناً أو داراً منها لرجل كان مساعداً له . فأي الرجلين أولى بخصام أصحاب الضيعة؟ الذي اغتصبها أم صاحبه الذي أخذ داراً واحدة[19] أو بستاناً منه ولولاه لم يأخذ شيئاً؟ وهل يليق بالأسرة المالكة للضيعة أن تتعادى وتتنازع في تفضيل أحد الغاصبين على الآخر ، أم الواجب عليهم أن يتفقوا على ما يجب عمله لاسترداد

---

(19) في الأصل (دار واحدة) والتصرف من (الوراق)

المغصوب؟

ثقل على كثير من وجهاء المسلمين قولي هذا من حيث كان مزلزلاً أو مزيلاً لما كانوا يمنون به أنفسهم ويسلون به همومهم ، وزاد ثقله على تلك الأسماع ووقعه في تلك القلوب أن كان يوثق بعلمه ، ولا يتهم في إخلاصه وحسن قصده ، وأنه لا سبيل إلى نقضه أو رده ، فمنهم من كان يقول وكيف العمل ، وإذا لم يعمل لنا فيصل ووالده فمن؟ ومنهم من يسألني بإدلال المودة والصداقة أن أكتم هذا لئلا ييأس الراجون ، ويشمت المخالفون .

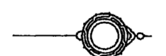
ذلك بأن أعضل أمراضنا الاجتماعية أننا تعودنا التواكل بيننا ، والاتكال على غيرنا ، ولا تزال الأحزاب والجمعيات السياسية في سن الطفولة وقد رسخ خلق التنازع بين أهل الأديان والمذاهب ، وإذ كان النصارى معتزين بالفرنسيس لم ير المسلمون بداً من الاعتزاز بالأمير فيصل وبأنصاره الإنكليز ، وكنت أرى هذا التناظر ضاراً في الحال ، وسيء العاقبة في الاستقبال . وأن الأولى بالفريقين أن يتركوه ويرجعوا إلى أنفسهم فيعطوها حقها ولا يمتهنوها ويجعلوا جل اعتمادهم أو كله على غيرهم ، وأن يعرفوا حق وطنهم عليهم ، وأنه يستحيل أن يعمر ويعتزوا به ما داموا متناظرين متدابرين بسبب اختلاف الأديان والمذاهب ، والاتكال على الأجانب .

وكنت أرى أن إظهار المسلمين لذلك التعلق بفيصل - وإن كان له ما لا أنكر من الباعث الطبيعي - قد زاد في كره أبناء وطنهم النصارى له ولهم ، ونفورهم منه ومنهم ، وحمل الفرنسيس على اتخاذه عدواً مبيناً وتوطين أنفسهم على مقاومة نفوذه في البلاد السورية وفي أوربة معاً ، وإنما كان يمتاز فيصل على وجهاء الوطن السوري في السعي السياسي لاستقلاله بكونه قد عد من قواد الحلفاء وأنصارهم فكلامه أجدر بالقبول لدى حكوماتهم ، فكان من المصلحة أن لا يخص بعضهم بالولاء وبعضهم بالعداء ، وأن لا يجعل أنصاره من المسلمين ما كانوا يظهرون من التعلق به والاحتفال بغدوه ورواحه إغاظة للنصارى المعتزين بفرنسة . وكنت أرى الصواب في هذه المسألة أن لا يغتر المسلمون به ويتكلوا عليه ، وأن لا يخاف النصارى منه ، فصرحت في بعض المقالات التي نشرتها في جريدة الحقيقة للتأليف بين الفريقين على المصالح المشتركة بينهم في البلاد بأن فيصلاً لا ينبغي أن يخيف أحداً من أهل البلاد إذا

كانوا متفقين على القيام بشؤون بلادهم ، لأنه ليس من أهل دولة أجنبية قوية يمكنه أن يستعين بمالها وجندها على جعل سورية تابعة لها إذا هو ولي إمارتها ، بل يكون هو تابعاً لها حتى إذا فرض أن عادت بلاده الأصلية أو حاربتها لا يسعه إلا مجاراتها أو الاستقالة من إمارتها والخروج منها ، وضربت لذلك مثلاً ملك البلاد الرومانية إذا اضطر إلى قتال أبناء جنسه النسبي وهم الألمان اتباعاً لإرادة أمته السياسية ، وقد كان هذا القول مقنعا لخصوم فيصل فلم يرد عليه أحد ، بل لم يكن أكثرهم يعلم أن الأمر كذلك ، بل كانوا يظنون أن إمارة فيصل على سورية وترك فرنسة لها يستلزم إلحاقها بالحجاز رئيس ديني للمسلمين كالبابا عند الكاثوليك ، وقد صرحت في ذلك المقال بتخطئتهم في هذا الاعتقاد أيضاً .

وقد رضي المسلمون بما كتبت في هذا المقال وسرهم عدم انتقاد النصارى له ولو جروا على هذه الخطة قولاً وكتابة وكفوا عن ذلك المسلك الذي سلكوه في شأنه لوقفت المعارضة له من الفرنسيس وأعوانهم عند حد ، ولم تنته إلى ما انتهت إليه ، ولما كان تأثير عاقبة أمره في المسلمين أليماً شديداً كما كان ، ولكن ذلك البيان لم يكرر ولم يعمم فظل السواد الأعظم من النصارى يعتقد إلى اليوم أن فيصلاً كان يريد جعل سورية تابعة للحجاز وأنه كان قادراً على ذلك لو تم له الاستواء عليها ، وكل من الأمرين خطأ . ولم أكن أريد بهذه الخطة تأييد فيصل لذاته أو مشايعة لحزبه وأكثرهم من إخواني وأصدقائي وإن كنت أعلم أنها أمثل ما يؤيد به ، وإنما كنت أقصد أن لا يتعادى أهل وطني بسببه وأن أدلهم على ما تحفظ به مصلحة الوطن إذا أتاح القدر له أن يكون أمير البلاد أو ملكها بنفوذ حلفائه .

وجملة القول أنني كنت أتحرى في كل ما كنت أقوله وأكتبه النصح لجميع أهل وطني مع المحافظة على ما ألزمتني إياه السلطة البريطانية بمصر وجعلته شرطاً في الإذن لي بالسفر وإن كان ظلماً واعتداء على حريتي الشخصية في بلادي التي أنا أولى بالحرية فيها منهم ، ولم أكن أتشيع لسلطة من السلطات التي قسمت البلاد ولا متحاملاً على واحدة منهن تحيزاً لخصيمتها ، ولا مهيجاً على السلطة الاحتلالية .



وإني لأرجو أن يكون الزمان قد أثبت لأهل البلاد على اختلاف أديانهم أن جميع ما قلته في فرنسة وإنكلترة والحجاز هو الحق ، وأن جميع ما اقترحته هو المصلحة ، وإن لم يتذكروا أقوالي ، فمن لم يكن ظهر له ذلك إلى اليوم كله أو بعضه فسيظهر له عن قريب فيعلم السوريون وهم شعب غير مسلح أنه لا قوة لهم إلا بالاتحاد وجمع الكلمة ، وأن الشعوب لا تنال من الحرية والاستقلال ولا من الكرامة والارتقاء مع احتلال أجنبي إلا بقدر قوتها ، وأن دول أوربة وإن بنيت سياستها القديمة في الشرق الأدنى على دعوى حماية المسيحيين وإنصافهم أو إنقاذهم من سلطة المسلمين فهي تتخذ الدين وسيلة إلى مصالحها ولا تبالي بما يعارضها وإن نسف الدين وأهله في اليم نسفاً .

والدليل على ذلك أن الدولة الفرنسية حامية المسيحيين الأولى في الشرق لا دين لها وأنها قد قوضت الآن بنيان القاعدة الأساسية للسياسة الأوروبية في الشرق ، أعني قاعدة التنازع بين الهلال والصليب ، وسبقت حلفاءها إلى الاتفاق مع الترك الوطنيين الأقوياء في الأناضول وصرحت بأن لهم الحق في الاستقلال التام واستعادة ما أخذه الحلفاء المنتصرون منهم ، ورضيت بأن تنجلي لهم عن جميع كليكية ، وعن جزء عظيم الشأن من سورية ، والأمة الفرنسية ترفع صوتها بتأييد حكومتها في سبيل إعادة المودة بينها وبين الإسلام وخليفة المسلمين ، وإذ رأت أن هذا من مصلحتها لم يصدها عن تنفيذه حماية المسيحيين في تلك البلاد ، ولا قاعدة ما أخذ الصليب من الهلال لا يعود إلى الهلال .

وأن الدولة البريطانية ترجح المصلحة على الدين أيضاً ، وهي ذات الصبغة المسيحية الرسمية والملك الحامي للإيمان وواضعة قاعدة الصليب والهلال التي ملأت الدنيا عنفاً وتثريبا على فرنسة لاتفاقها مع مصطفى كمال باشا ناسخة للقاعدة الأوربية المذكورة آنفاً بعد أن كانت متفقاً عليها وتاركة حماية الأقليات المسيحية في كليكية ، فإنها قد كانت سبقت إلى خطبة مودة الكماليين فلم تظفر بها ، وضحت

بالأرمن[20] الذين دفعتهم إلى عداوة دولتهم ، وتركتهم يذوقون جزاء ثوراتهم وعصيانهم ، ولم تقبل أن تكون منتدبة لحمايتهم ، بل لتأمين ما اعترفت به من استقلالهم ، ثم إنها تريد أن تعيد سلطان اليهود القومي إلى مدينة المسيح (عليه السلام) ومهد دينه وهي تعلم أن ذلك يسوء كل مؤمن بالمسيح ، ولا يرضاه حتى من شعبها نفسه إلا يفضل[21] الجنيه عليه وعلى إنجيله وأهل دينه ، وأن كل ما يشكو منه أعداء الحجاز من المسيحيين ويسوءهم من نفوذ أمرائه لأنه مهد الإسلام ولحسبانهم أن سلطة شريف مكة كسلطة البابا فهو من أعمال بريطانيا العظمى ، وإنما الحجاز معبد ليس مقر سلطة ولا يصلح أن يكون كذلك ، وليس فيه قوة جندية ولا مالية يفتح بها سورية أو يحفظ بها نفسه لو حاربته هي أو غيرها . وسيرون هذه الدولة مهتمة بالصلح مع الترك والاعتراف لهم بحق الاستقلال في بلادهم واحترام سلطة الخليفة التركي وإظهار الرغبة في مساعدته كما فعلت فرنسة إذا هي عجزت عن إقناعها مع ايطالية ثانية بالاتفاق معها على الإجهاز على هذا الاستقلال .

وأما أمراء الحجاز فقد ظهر فيهم ما كنا نقوله لأبناء الوطن السوري فيهم ، وهو أنهم لا رجاء فيهم للمسلمين ، ولا خوف منهم على المسيحيين ، لأنهم لا حول لهم ولا قوة بأنفسهم وإنما هم مسخرون لخدمة بريطانيا العظمى ، ينال كل منهم من الحظوة عندها بمقدار خدمته لها وتمكين نفوذها في بلاده وسائر البلاد العربية ، كدأبهم في جميع البلاد التي مدوا إليها أيدي مطامعهم .

فلما كان فيصل أكثر مواتاة لهم جعلوه ملكاً لمستعمرة العراق الجديدة . وكم لديهم من السلاطين والأمراء والألقاب الأخرى في المستعمرات والأملاك التي هي أوسع من العراق استقلالاً ، ونفوذهم فيها أضعف وإن لم يسم انتداباً ، ولو واتاهم أخوه الأمير عبد الله من قبل لسبقه إلى ملك العراق ، وليته إذ لم يقبل لقب الملك في العراق لأنه بغير ملك ، لم يقبل ما دونه في شرق الأردن . ويا ليت . . . ويا ليت . . .

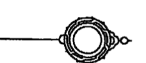
ليت وهل ينفع شيئاً ليتُ ليت شاباً بيع فاشتريتُ .

---

(20) في الأصل (وضحت الأرمن) والتصرف من (الوراق)

(21) كذا في الأصل ولعلها (إلا من يفضل) ــ (الوراق)

فعسى أن يثوب أهل سورية عامة إلى رشدهم من قريب ويغسلوا عنهم ما لحقهم من عار التعصب وعدم الوطنية ويتحدوا اتحاداً يضطر الأجانب إلى احترامهم والرغبة في صداقتهم بدلاً من استعبادهم ، ولا يأبى المسلمون حينئذ أن تكون حكومة لبنان مسيحية مستقلة لا سلطان لغيرها عليها ، وإنا نضمن ذلك لمن شاء بما يقنعه إن شاء الله .



نصيحتي للفرنسيس بتغيير سياستهم في سورية

قلت إنني قد اضطررت بسبب حادثة طرابلس لإطالة المكث في بيروت واشتغلت بمسألة الوقف بعد أن كنت وكلت من يقوم بذلك . وفي أثناء هذه المدة جمعني بعض معارفي بموسيو (مرسيه لوي) وهو يحسن العربية وكان قد زارني بمصر فكان مما ذكره لي أنه يبلغهم عني غلو عظيم في شدة المعارضة والمقاومة لهم ، ولكنهم لا يأخذون الكلام على علاته بل يتروون ويحققون إلى أن يقفوا على الحقيقة . فقلت له : إن عندي قاعدة أجري تطبيق عملي عليها وهي أن الرجل من لا يقول قولاً يحتاج إلى إنكاره وأنني أعدك وعداً مؤكداً بشرفي بأنك لو سألتني عن كل ما نقل إليكم عني لصفقتك في الاعتراف بالصحيح وإنكار ما عداه لتعلموا مقدار غش جواسيسكم ، وإلا فإنني أخبرك إجمالاً بسيرتي في البلاد . إنني لست قائماً بدعوة إلى مقاومتكم ولا إلى تأييد خصمكم ، ولكنني من رجال الاستقلال ومعارضي السلطة الأجنبية ومشهور بهذا فأنا أصرح برأيي ومشربي إذا اقتضت الحال ذلك ولا أنتقدكم بأكثر مما أنتقد به الإنكليز والشريف حسين والشريف فيصل ، وإنني معتقد أن محاولتكم استعمار سورية ليس خيراً لكم ولا لها ، ولو فرض أنني اعتقدت أن استعماركم لها خير لها لما كان لي أن أصرح بهذا الاعتقاد المخالف لما يعلم كل الناس من مشربي وثباتي عليه ، إذ يكون التصريح مظنة ريبة في كونه اعتقاداً عرض . قال هذا كلام صحيح .

ثم شرحت له رأيي في بيان كون اقتسام سورية والعراق بينهم وبين الإنكليز شراً لهم سيكون من عاقبته في عداوة العالم الإسلامي لهما ، وكون غبنهم في هذه

القسمة أعظم من غبن حلفائهم بصغر حصتهم وعسر التصرف في أهلها وما يتوقع من انقلاب النصارى عليهم وقد بدت بوادره ، وأن الخير لهم في حصتهم من سورية أن تكون مستقلة استقلالاً صحيحاً وجعلها صديقة لهم وحينئذ ينتفعون منها باختيار أهلها من غير خسارة فوق ما ينالهم من النفع بسبب السيادة العسكرية فيها ويربحون صداقة الأمة العربية كلها ويأمنون ضرر عداوتها وجعلها آلة بأيدي الإنكليز . وذكرت له أنني نصحت للإنكليز بمثل هذه النصيحة «النصح يقابل الغش والخداع ولا يتضمن استعلاء من الناصح» فمنعهم الغرور والطمع والتعصب الديني من الإصغاء . ولخصت له معنى مذكرتي لرئيس الوزارة البريطانية وقد سبق ذكرها في المنار غير مرة . فأعجبه كلامي واقترح علي أن أكتب مذكرة للجنرال غورو بذلك وهو يترجمها له ليرسلها إلى باريس فامتنعت عن الكتابة وقلت له بلغه أنت ذلك .

بعد هذا ذهبت إلى دمشق إجابة لطلب الأمير فيصل ثم عدت إلى بيروت في أول مارس سنة 1920 لإقناع وجهاء بيروت المنتخبين للمؤتمر السوري بالذهاب إلى دمشق لحضور جلسة المؤتمر التاريخية التي تعلن استقلال سورية وفي 14 مارس جاءني كتاب من (مسيو مرسيه لوي) يقول فيه بعد رسوم الخطاب (إن سعادة الجنرال غورو قد عيّن لكم 5 آذار الساعة 6 إفرنكي مساء ميعاد استقبالكم في السراي) . . . وكان هذا الطلب بسبب مخاطبته إياه بموضوع حديثنا لا بطلب مني ولا علم ، فجئت في الموعد ، فبلغت أن مسيو مرسيه الذي سيترجم بيني وبين الجنرال قد ذهب إلى قنصل أميركة في عمل رسمي أبطأ فيه ، فانتظرناه متوقعين مجيئه في كل دقيقة زهاء ساعة ونيف ، فلما حضر دخلنا حجرة الجنرال فتلقانا أمين سره (السكرتير مسيو روبير دوكيه) وبلغنا بعد التحية أن ميعاد الجنرال ذهب ببطء (مسيو مرسيه) فهو يعتذر عنه باسمه ويحل محله فيما طلبني لأجله إذا كان لدي سعة في الوقت . قلت ليس لدي مانع من البحث . وإنما ذكرت هذه القصة ولم ألخص حديثي معه بدونها للإعلام بأن الجنرال نفسه كان حريصاً على البحث في هذا الموضوع المهم وهو كون استقلال سورية وحريتها خيراً لفرنسة من استعمارها باسم الانتداب . وقد يتعجب كثيرون من نتيجة ما أقصه من حديثنا ويرون فيه دليلاً على تقصير السوريين في السعي المعقول لدى الفرنسيس يأساً منهم ، وأن رضاهم باستقلال سورية ممكن .



مكثت مع مسيو (روبير دوكية) ساعة وأربعين ، دقيقة ، وقد افتتح الكلام بالثناء علي بقوله أنه بلغه أنني من أشهر علماء الإسلام في هذا العصر ومن الخطباء المؤثرين ، والكتاب . . . فتلطفت في الشكر والتنصل ونقل الحديث إلى الموضوع ، فشرعت أولاً في مقدمات اجتماعية ، تتألف منها أقيسة منطقية ، تفهم من سياق الكلام ، وإن لم تذكر بأسلوب تأليف المنتج من الأشكال ، وأذكر المهم من ذلك بالاختصار ، قلت :

1- إن للقوى الأدبية تأثيراً في البشر لا تغني عنه القوى المادية كما يرشد إليه قول المسيح عليه السلام : (ليس بالخبز وحده يعيش الإنسان) ولذلك تجتهد الدول والأمم العليمة بطبائع الاجتماع في إعلان فضائلها وتبذل في ذلك مالاً كثيراً بوسائل كثيرة، كما تجتهد في الدفاع عن نفسها إذا وصفت بشيء من الرذائل ولو بحق ، وقد استفادت هذه الدول والأمم فوائد عظيمة بإقناع الكثير من الناس بأنها هي المقيمة لأركان العدل والحرية والمساواة بين الناس والقائمة بأمر تحرير الشعوب المظلومة من الظلم والاضطهاد خدمة للإنسانية ، ولكن هذه الحرب الأخيرة قد هدمت منذ عقد الهدنة إلى اليوم ما بنته هذه الأمم ودولها في قرن بل قرنين ، ولا سيما انكلترة وفرنسة اللتين ملأتا الدنيا دعوى وفخراً مدة أربع سنين بأنهما حاربتا لتحرير الأمم والشعوب المظلومة وأنهما لا تبغيان فتحاً ولا جر مغنم ولا تحكيم القوة العسكرية في بلد ولا شعب بل القضاء على القوة العسكرية الخ . . فلما انتهت الحرب بظفرهما طفقتا تقتسمان جميع ما تقدران على الاستيلاء عليه بالقوة حتى بلاد حلفائهما وأصدقائهما باعترافهما . . . الخ .

2- إن الانقلاب الإجتماعي الذي أحدثته الحرب في الشرق قد نفخ في جميع الشعوب روح الشعور بحقها في الحرية حتى حفزها لطلب استقلالها بكل ما يملك من الوسائل ، وهذا الشعور إذا دب في الشعوب يتعذر معه دوام استعبادها ، كما جربت دول أوربة في شعوبها ، فإذا لم تقدر الدول الاستعمارية في هذا

الانقلاب حق قدره وتجاري طبيعة العمران بترك سيطرة القوة فإنها ستلاقي عقاباً كبيرة يتعسر أو يتعذر عليها اقتحامها ، ومشاكل عظيمة يصعب حلها الخ .

3- إن أوربة قد هدمت ما كان لها من حسن الصيت والمكانة الأدبية في الشرق بما فعلته في هذه الحرب وبعد الحرب ، فلم يبق فيه أحد يصدق للأوربيين قولاً أو يحسن بهم ظناً أو يراهم للفضل أو العدل أهلاً . بل صار العوام متفقين مع الخواص على أن المدنية الأوربية مادية محضة لا يبالي أهلها بغير التمتع بالشهوات والتحكم في استعباد الضعفاء ، وأنه لا يصد دولها عن الظلم والعدوان وتخريب العمران إلا الضعف والعجز ، وأن كل ما يتبجحون به من دعوى العدل والمساواة والحرية والإنسانية إفك وتزوير ، ورياء وتغرير ، وقد صار أشد الناس نفوراً من الترك في سورية يفضلونهم عليكم عن اعتقاد ، حتى إن بعض التجار وغيرهم من الناس الذين لا يحفلون بالسياسة يسألونني سؤال بحث عن الحقيقة : لماذا كنا نعتقد أن الإفرنج أرقى من الترك وأعدل وأرحم وأبعد عن التعصب الديني والمحاباة مع أن الأم بالضد كما تبين لنا الآن ؟ وكنت أجيبهم ببيان الفرق بين الإدارة في بلاد الدول وفي مستعمراتها وبيان حالة سورية الخاصة في هذا الوقت . . .

4- إن السوريين وإن اختلفت أديانهم ومذاهبهم وتربيتهم ، وبعد بالاستقلال التام عهدهم ، لا يرضون بأن يكونوا تحت سيادة أجنبية عنهم ، أما الأكثرون منهم وهم المسلمون فإنهم لم يكونوا يشعرون في عهد الترك بأنهم خاضعون لسلطة أجنبية إلا في السنين الأخيرة التي ظهرت فيها العصبية الجنسية التركية ، وأما النصارى فجلهم في لبنان الذي كان مستقلاً في إدارته ولم يكن في حكومته غير واحد أو اثنين من الترك في مركز المتصرفية وكان ما يكلفون من الواجبات في الولايات أخف مما يكلف المسلون ، وقد كان الذين يعلقون آمالهم فيكم منهم يظنون أنكم ستؤسسون لهم ملكاً مسيحياً مستقلاً تلتزمون فيه حمايتهم من الخارج وتتركون لهم السيادة والسلطان في الداخل ، فبدا لهم منكم ما لم يكونوا يحتسبون من السيطرة التامة العامة في جميع أنحاء لبنان ، وثقل الضرائب المالية ، فبدأوا يتحولون عنكم حتى إن أحد أهل الاختبار من أنصاركم قال لي : لو خير موارنة

لبنان أنفسهم بين فرنسة والترك لفضل ثمانون في المئة منهم الترك . وسترون من السوريين ما لم يكن يخطر في بالكم من الجهاد في سبيل الاستقلال في مشارق الأرض ومغاربها .

5- إن الأسماء الجديدة التي يخترعها المستعمرون آناً بعد آن لتلطيف وقع سيطرتهم على الشعوب لم تعد تخدع شعباً مهما يكن جاهلاً فكيف ينخدع بها الشعب السوري الذي لا يخفى على زعمائه ولا على أدبائه شيء من أمور العالم وناهيك بالأسماء والأقوال التي تنقضها الأفعال كأفعال حلفائكم الإنكليز باسم الانتداب لمساعدة السوريين على النهوض بأمر استقلالهم المقرر في عهد عصبة الأمم ، فإنكما قبل أن يتم الصلح بينكما وبين أصحاب البلاد بحسب القانون الدولي - وهم الترك - وقبل أن يتقرر الانتداب المتوقف على هذا الصلح تتصرفون في البلاد تصرف المالك للأعيان الموروثة ، وقد زدتم على تصرف الإنكليز في سورية الجنوبية أنكم رفعتم علمكم على المعاهد الرسمية في ولاية بيروت ومتصرفية لبنان واستبدلتم بطوابع البريد الموقتة طوابع حكومتكم ، وهو ما لم تفعلوه في تونس وجعلتم لغتكم رسمية . . .(هذا وما فكيف لو) .

6- إن المعروف لدى جمهور الباحثين من الفرق بين الاستعمار الفرنسي والبريطاني أن جل فائدة فرنسة منه اقتصادية وأما الإنكليز فلهم وراء المنافع الاقتصادية مقاصد أخرى دينية وسياسية هي عندهم أهم من المنافع المالية فهم يطمعون في تنصير المسلمين وجعلهم انجيليين حتى إن رئيس وزارتهم قد استهوته نشوة السرور بفتح القدس فصرح في مجلس الأمة بأن هذه آخر حرب صليبية ، وهو ما كانوا يكتمونه من قبل . فلا عجب بعد هذا إذا أظهرت جميع كنائسهم الابتهاج بهذا الفتح الصليبي الديني ، ثم إنهم يطمعون في سيادة العالم كله ويظنون أنهم قد صاروا على مقربة من الوصول إلى هذه الغاية ، ومن مبادئ ذلك إتمام تأسيس الإمبراطورية الأفريقية من رأس الرجاء الصالح إلى الإسكندرية وجعل الإمبراطورية الآسيوية من حدود الصين إلى البحر الأحمر الذي[22] يرون أنه قد

---

(22) في الأصل (الذين) والتصرف من (الوراق)

صار بحراً بريطانياً صرفاً ، وناهيك بما تقاسونه قبل كل أحد من احتلالهم للقسطنطينية وللسيطرة على البحر الأسود مع البحر الأبيض الذي لهم فيه السيادة العليا ولا تطمع فرنسة بشيء من ذلك .

لأجل هذه المطامع يخاف المسلمون من الإنكليز على دينهم كما يشهد عليهم فيلسوفهم ومؤرخهم الكبير غوستاف لوبون وملكهم ما لا يخافون من الفرنسيس وإن كانوا أشد منهم وطأة في الاستعمار ، ثم إن فرنسة قد خسرت في هذه الحرب من الرجال والأموال ما لم تخسر مثله انكلترة ، وخرب قسم عظيم من بلادها ، وهبطت الثقة بماليتها ، ولم تشاركها انكلترة في هاتين المصيبتين . ففرنسة إذاً أجدر من انكلترة بالشعور بالحاجة إلى عطف الشعوب عليها ، وحصرها في إصلاح ماليتها وتوفير مواردها وتعمير بلادها والتوسل إلى ذلك باستعادة مكانتها الأدبية في العالم ، وإن استيلاءها على سورية واستعمارها إياها ينافي ذلك كله فإنه يحملها نفقات كثيرة ويجعل العالم العربي كله خصماً لها وهي في غنى عن ذلك بما نقترحه عليها .

7- قلت إن الشعوب الشرقية قد استيقظت من رقدتها الاجتماعية ، وتذكرت أنها أمة ، حقها أن تكون حرة لا أمة ، وفي مقدمتها الأمة العربية ذات التاريخ المجيد ، من طريف وتليد ، وزعماء هذه الأمة يقدرون ارتقاء النظام الاجتماعي والاقتصادي والفنون العملية في أوربة قدرها ، ويودون أن يقتبسوا لبلادهم ما تحتاج إليها منها ، ويرون أنه لا بد لهم من الاستعانة بأمة من الأمم الغربية الراقية في العلوم والفنون ، ولكنهم ينفرون من كل دولة لها مطامع استعمارية في بلادهم ويفضلون غيرها عليها وإن لم تعتد على استقلالهم ، والأفضل عندهم من الأمة التي تعترف حكومتها لهم باستقلالهم وحريتهم ، فهم يخطبون ودها ويكافئونها على صداقتها لهم بكل ما يبلغه حولهم وقوتهم من المنافع الاقتصادية والأدبية ، فيفضلون تجارتها ولغتها وفنونها وصناعتها على غيرها ، ويضمنون لها أن تنتفع منهم بالصداقة ، أضعاف ما ترجو بالعدوان الموجب للعداوة ، بل يبثون الدعوة لجعلها صديقة الشرق والعالم الإسلامي كله ، فالشعوب العربية عامة والشعب السوري خاصة من أقدر الشعوب على بث هذه الدعوة وعلى ما يقابلها

ويضادها لما لهم في أنفسهم وفي بلادهم المقدسة من المزايا .

وإنني كنت قد عرضت هذه الصداقة على الدولة البريطانية بمذكرة أرسلتها إلى رئيس وزرائها (مستر لويد جورج) ذكرته فيها بما يهدد دولتهم من الأخطار وعداوة شعوب الشرق والغرب ولا سيما العالم الإسلامي الذي حاولوا هدم ما بقي من بناء استقلاله . وصرحت لهم بأنهم إذا كانوا لا يحفلون بعداوة أمة يتجاوز عدد نفوسها ثلاثمائة مليون وهي المالكة لجل الشرق الأدنى والأوسط بسبب ضعفها ، فليعلموا أنها لن تكون أضعف من ميكروبات الأمراض والأوبئة التي تفتك بالأقوياء ، وبأن صداقة هذه الأمة لا يمكن أن تنال بمثل السياسة التي سلكوها في المسألة العربية ، وإنما السبيل إليها واحدة وهي الاعتراف بالاستقلال المطلق للشعوب الإسلامية الكبرى : العرب والترك والفرس ، ولم أنس تخصيص مصر بالذكر وإن كانت عندي من الأمة العربية ، وبينت له أن دولتهم إن فعلت ذلك بإخلاص فإنها تدرأ عن نفسهاأخطار الشرق وتربح منه أضعاف ما تطمع فيه بالعبث باستقلال شعوبه ومحاولة وضعها تحت سيطرتها . إلى آخر ما فصلته في تلك المذكرة . ولكن لويد جورج لا يزال ثملاً بخمرة الظفر بالدولة الألمانية ، والاستعلاء على جميع الدول الأوربية ، ويتوهم أنه قادر على حل جميع المشكلات بأخاديع الوعود ، ونذر الوعيد ، وضروب التغرير ، وبدر الدنانير ، (وأن صيحة مصر ، لا تزيد على صرخة طفل ، وثورة العراق لا تعدو ثوران هر ، وأن هيجة الهند ، كهيجة دعد وهند ، وغضبة الأفغان ، كغضبة فيروز ومرجان) .

وغرضي الآن أن أعرض على فرنسة ما عرضته على انكلترة قبلها فهي أجدر بقبوله لانتفاء المانع وثبوت المقتضي اللذين ذكرناهما آنفاً ، وليس من المصلحة أن يعارضه الاستمساك باستعمار هذه الحصة التي أعطيتموها من سورية باسم الانتداب على ما فيها من المنغصات والمشكلات . فإذا طبتم نفساً باستقلالها أمكنكم أن تعترفوا باستقلال جميع هذه الشعوب الشرقية وفي مقدمتها العرب والترك وأن تبنوا ذلك على ما كنتم تصرحون به منذ أوقدت نار الحرب إلى أن أطفأت من الرغبة عن الفتح والاستعمار إلى جعل الظفر في الحرب قاضياً على الاستيلاء والاستعلاء بالقوة ، ووسيلة إلى حرية الشعوب وإعطائها حق تقرير مصيرها واختيار شكل

حكومتها وإدارتها ، وحينئذ تنفردون بالسلطة الأدبية في العالم كله التي حاول الدكتور ويلسون أن يجعلها لأمته فباء بالخيبة والخسار بعد أن كان منها قاب قوسين أو أدنى . وأنا أضمن لكم إجماع الأحزاب السورية على أن يكون ربحكم المادي والأدبي من سورية باختيارها ، فوق ما تمنون به أنفسكم بقوة احتلالكم إياها :

ثم إننا دخلنا باب المناقشة في الموضوع بعد أن قال مسيو روبير دوكيه إن هذا مشروع عملي قابل للتنفيذ وليس خيالياً ولكنه يفتقر إلى بحث دقيق بين العقلاء من الفريقين (السوريين والفرنسيين) فإن الإسراع في تنفيذه ولا سيما جلاء الجيش عاجلاً كما تطلبون يعقب مشاكل كثيرة ربما تأتي بخلاف المراد .

وليس لي أن أنقل في هذه الرحلة كل ما قاله فإن الأصول المتبعة عند الكتاب أن يستأذنوا في نشر أمثال هذه المسائل من ينقلون عنهم آراءهم فيها ولاسيما إذا كان لهم صفة رسمية تلحقها تبعة ومسؤولية . وحسبي من تصريحه هذه الكلمة المجملة منه وهو أن استقلال سورية أمر يمكن تنفيذه واعتراف فرنسة به باتفاق يضعه العقلاء من الفريقين ، وقد صرحت له بأن القطع في هذا الأمر من جانب الفرنسيس لا تملكه إلا حكومتهم العليا في باريس فما على مندوبهم السامي في سورية ورجاله إلا أن يمحصوه ثم يرفعوه إلى حكومتهم العليا . وإذا كان مثل مسيو روبير دوكيه يقول باسمه واسم الجنرال غورو الذي هو أمين سره إن هذا المشروع حقيقي لا خيالي فأجدر بمثل مسيو بوانكاريه ومسيو مليران أن يقتنعوا به إذا حاول إقناعهم به من هم أهل لذلك ، ولكن البحث في تمحيص المسألة وقف عند ذلك الحديث فلم يهتم أحد من كبراء أهل بيروت ولا من غيرهم أن يعيدوا الكرة فيبحثوا مع الجنرال غورو في المسألة فيما أعلم . على أنني حدثت كل من رأيته أهلاً للوقوف على ذلك فيه فسر به وقدره قدره على تفاوت الأفكار في اليأس منه والرجاء فيه .

وأما عذري في ترك العودة إلى البحث في ذلك فهو أنني لما عدت من بيروت إلى دمشق اشتغلت مع سائر أعضاء المؤتمر وغيرهم من الأحزاب السياسية في شأن إعلان استقلال البلاد السورية ووضع القانون الأساسي لحكومتها . وفي أثناء ذلك وقعت المشادة والمحادة بين الملك فيصل والجنرال غورو حتى انتهى ذلك بزحف الثاني بجنده على دمشق وإخراج الأول منها . ثم عدت إلى مصر في أول فرصة أمكنتني فيها

السفر كما أذكر بعد ، على أن فرنسة شرعت بعد ذلك في عقد اتفاق بينها وبين حكومة أنقرة التركية ، فتركت للترك كليكية وجزءاً من ولاية حلب السورية ، وتوسلت بذلك إلى بث الدعوة بأنها صديقة الإسلام ونصيرة الخلافة الإسلامية .

جريت فيما كتبت من هذه الرحلة على طريقة بيان أحوال سورية الاجتماعية والأدبية والسياسية في هذا الطور الجديد الذي دخلت فيه بعد الحرب لا على طريقة بيان تنقلي في البلاد بتواريخه وذكر المشاهدات وما يتبعها من الآراء تبعاً له كما اعتاد المؤرخون . وقد كان كل ما كتبته من فصول الرحلة بياناً لما فيه الفائدة مما رأيت وخبرت وجرى لي في الساحل مدة إقامتي فيه متردداً بين بيروت وطرابلس ، وأخرت الكلام على دمشق وما يتبعها عمداً ، وكنت عازماً على إطالة الكلام في شأنها . وقد بدا لي الآن أن أختصر لما كان من التراخي في كتابة الرحلة ونشرها ، ولأنني ذكرت بعض ما حدث في الشام بعد ذلك في بعض المقالات التي قضت الحال بيان بعض حقائق المسألة العربية فيها ، وكان موضعها اللائق بها الرحلة لولا الضرورة فأقول .

الحالة العامة بدمشق في سنتي 1337 و 1338

قد علم من النبذة الثانية من هذه الرحلة التي نشرت في المجلد الحادي والعشرين «المنار ج 23 (1922) ص 235-042» . (ص 438) أن وصولي إلى دمشق كان (في 19 ذي الحجة سنة 1337- 14 سبتمبر سنة 1919) وأنه اتفق أن أعلن عقبه كل من انكلترة وفرنسة أنهما اتفقتا نهائياً على تنفيذ معاهدة (سايكس وبيكو) المعروفة باتفاق سنة 1916 وأن انكلترة ستخرج جنودها من المنطقتين الشرقية والغربية من سورية وتترك الأولى للجيش العربي الحجازي والثانية للجيش الفرنسي ، وأن أهل سورية عامة كانوا يظنون قبل هذا الإعلان أن الدولتين الحليفتين عدلتا عن تنفيذ هذا الاتفاق لما رأوه من تنازع سياستيهما أثناء مجيء اللجنة الأميركية لاستفتاء أهل البلاد . وكنت بينت في تلك النبذة أن الناس أحفوني بالسؤال عن سبب هذا الانقلاب ، وذكرت فيها ملخص جوابي لأهل الرأي منهم ، ولكن المراقبة على المطبوعات بمصر في ذلك العهد منعت نشر ذلك كله وإنما نشر منه بعض المقدمات فكان الكلام أبتر غير مفيد ، ولم أعلم بذلك إلا عند مراجعته الآن وسألخص ما حذف منه في موضعه .

لقد كان الغرور بخديعة الإنكليز للسوريين وغيرهم من العرب في أثناء الحرب بأن استقلالهم سيكون مكفولاً بانتصار الحلفاء[23] في الحرب بما بينهم وبين ملك الحجاز من العهود والحلف ، فلما جلا الترك عن سورية وكان أول من دخلها الأمير فيصل بجنده المؤلف من السوريين والعراقيين والحجازيين اعتقدوا أن الاستقلال قد تم والسلطنة العربية قد تم أمرها ونصب عرشها ، ولم يكن نزع العلم العربي من بيروت غيرها من السواحل ، ولا خطب سايكس وبيكو الخادعة ، ولا استيلاء السلطة العسكرية الفرنسية في الساحل على الإدارة بذاهب بذلك الوهم الخادع . وقد ألمنا بشيء من هذا المعنى في الفصلين السادس والسابع من الرحلة ، ومنه يعلم أن الريب دب دبيبه إلى أهل الساحل ثم انتشر فيهم أولاً بتأثير السلطة الفرنسية المحتلة .

نعم إن الأذكياء في دمشق قد اضطربوا لإعلان الدولتين الاتفاق على تنفيذ اتفاق (سايكس وبيكو) وكانوا قد عرفوا حقيقته ولذلك كثر سؤالهم إياي عن رأيي فيه وهل يعقل أن تنقلب سياسة انكلترة بهذه السرعة فتسمح بسورية لفرنسة . وقد ذكر في النبذة الثانية من جوابي لهم أن السياسة البريطانية لم تتغير في المسألة وليس لعاقل أن يظن أنها تفضل العرب على فرنسة وإنما عرض لفرنسة أمل بأخذ سورية كلها بحجة إجماع السوريين على وحدة البلاد وعدم تقسيمها . وأما بقية الجواب الذي منعت المراقبة نشره يومئذ فهو أن انكلترة لما شعرت بهذا الطمع من فرنسة استعانت بالأمير فيصل وحزبه على نبذ السواد الأعظم من أهل المناطق السورية الثلاثة للانتداب الفرنسي والمساعدة الفرنسية ، وقد تم هذا وظهر باستفتاء اللجنة الأميركية لأهل البلاد . وغرض انكلترة من ذلك أن تعلم فرنسة أنها إذا شذت عن الاتفاق معها وحاولت أخذ فلسطين بحجة اتفاق الأهالي على طلب وحدة البلاد فإنها هي قادرة على حرمانها من كل شيء برأي أهل البلاد الذي جعل له الاعتبار الأول في عهد عصبة الأمم ! فلما رأت فرنسة ذلك قنعت بنصيبها في اتفاق سايكس بيكو حتى بعد تعديله بما هو في مصلحة الإنكليز .

مع هذا كان أهل المنطقة الشرقية عامة وأهل دمشق خاصة يظنون أن استقلال

---

(23) في الأصل (الحلفاء) والتصرف من (الوراق)

منطقتهم مضمون فإن فاتهم إلحاق المنطقتين الأخريين بهم فلن يفوتهم التمتع بالسلطان القومي في منطقتهم . وازداد شعورهم قوة بهذا بعد جلاء الجيش البريطاني وما تلاه من ترك المراقبة على الحكومة وإن كانت لا تزال عسكرية تابعة للقائد العام للجيوش البريطانية .

كانت مظاهر هذا الشعور بالاستقلال ، تبعث في أنفس الشعب السرور وتقوي الآمال فقد صارت دواوين الحكومة ومصالحها عربية والتعليم في المدارس الرسمية كغيرها بالعربية ، وتلاميذ المدارس كانوا يتعلمون أناشيد الاستقلال ، فيترنمون بها صباح مساء ، وكانت البرقيات المبشرات والمسكنات ترد على الحكومة من الأمير فيصل أو من مندوبه ، النائب عنه لدى الحلفاء وفي مؤتمراتهم (أحمد رستم بك حيدر) وكانت الاجتماعات والمظاهرات حرة تنفخ في هذه الأماني روحاً حياً ، كل ذلك كان يبعث السرور في كل نفس لم تستشف شيئاً مما وراءه حتى إن سليم بك شاهين أحد أصحاب المقطم قال لي في بيروت إنني أقمت في دمشق يوماً واحداً فبعث في روح حياة عربية ووطنية جديدة ، ولا أرى هنا إلا أمارات الذل والموت التي تبعث الحزن والأسى .

لقد كنت أعلم ما لا يعلم أهل وطني من نية الحلفاء فيهم وتواطؤهم على بلادهم ، ومن بناء عهودهم على الدجل ووعودهم على الغش ، وأنهم إذا وفوا للملك الحجاز بما وعدوه به ولو على الوجه الذي طلبه منهم فيما يسميه (مقررات النهضة) لم تكن البلاد العربية ولا الحجاز منها إلا مستعبدة تحت نير السلطة الأجنبية ، فلهذا لم أكن أشعر بشيء مما يشعر به الجمهور من السرور المنبعث عن الغرور ، وإنما كنت أعتقد أن الأمة لا يزال يمكنها أن تعمل لاستقلالها عملاً تضطر الطامعين إلى احترامه إذا وجد فيها عدد من الرجال الأكفاء وهذا ما كنت أبديه وأعيده للسائلين ولا سيما من هم مظنة العمل من الأخوان ، حتى بعد أن تم ما سعيت إليه معهم من إعلان الاستقلال ، فإنني لم أكن أعده إلا تقوية لحرية العمل بإخراج الحكومة من مضيق العسكرية التابعة للقيادة البريطانية إلى فضاء الحرية الوطنية ، لتكوين قوة من الجند المنظم ومن العشائر والقبائل التي يمكن تنظيمها لتوطيد الأمن والنظام ، وإقامة الحجة المحترمة لدى الحلفاء على القدرة على الاستقلال ، وهذا ما كنت أبغيه وأسعى

إليه ولم يوجد في رجال الحكومة من هو أهل للنهوض به ، ولذلك كان لساني صامتاً في كل تلك الاحتفالات العظيمة التي أقامتها الحكومة وكذا الشعب ، فلم أخطب في شيء منها على ما كان من الإلحاح علي في كل احتفال بطلب ذلك . وإنني أذكر مسألة صرحت فيها برأيي بعدم الثقة بحالة البلاد قبل إعلان الاستقلال ، وهي :

دعوتي إلى تولي المصالح الشرعية بدمشق



لم أكد أستريح في دمشق من لقاء وفود الزائرين حتى كاشفني الحاكم العسكري العام (علي رضا باشا الركابي) بما يرغبون أن ينيطوه بي من مساعدة الحكومة العربية وهو تولي إصلاح (دوائر الأمور الشرعية) ففي يوم الأحد 26 ذي الحجة (21 سبتمبر) وعدني أن يزورني زيارة خاصة للمذاكرة والاستشارة في شؤون الحكومة وما يطلب من مساعدتي لها وفي اليوم التالي أعاد الكلام معي فيما يبغيه من تقليدي إدارة الأمور الشرعية وهي الأوقاف والمحاكم الشرعية والتعليم الديني والمفتين ، وقال إنه طلبني من الإنكليز خمس مرات وكان يظن أن الامتناع مني فأخبرته بأن الانكليزية[24] لم تخاطبني بذلك البتة وأنه لم يصل إلي منه إلا الكتاب الذي أرسله في ضمن مكتوبات الحكومة لمندوبها التجاري بمصر الدكتور بشير القصار ، وذكرته بما كتبته إليه في الجواب عنه وهو أنني مستعد لمساعدة الحكومة العربية بكل ما أستطيعه بشرط أن لا أتقيد بعمل رسمي ، وذكرت مشربي وتربيتي الصوفية التي بسببها وطنت نفسي على أن لا أقبل وظيفة ولا عملاً للحكومة ولا رتبة ولا وساماً طول عمري . . . ثم قلت له بعد محاورة طويلة : ضع لي مذكرة بالعمل لأرى رأيي فيه .

وفي يوم الخميس (30 ذي الحجة) أخبرني أن المشروع الذي تضعه الحكومة لإدارة الأمور الشرعية يتم يوم السبت الآتي ويقدمه لي ، وأنه كان كلم فيه الأمير فيصلاً قبل سفره إلى أوربة فوافق هو ونائبه الأمير زيد على نوطه بي ، فاعتذرت بمشربي الخاص وبالموانع العامة الأخرى وهي سوء حالة البلاد الداخلية والخارجية وعدم

(24) كذا في الأصل ــــ (الوراق)

استقرار الحالة السياسية . إذ البلاد لا تزال بحسب القانون الدولي تابعة للدولة العثمانية – والمستقبل مجهول – ثم بضعف الحكومة والإمارة وبأن الإصلاح الصحيح يلقى معارضة قوية من أهل الأهواء الذين يرتزقون بهذه المصالح الشرعية فإذا لم يكن للمصلح ركن شديد من قوة الحكومة لا يستطيع عملاً ، فاعترف بذلك وقال إنه هو الحجة التي يستند إليها في وجوب وجود مثلي ، وإنني سأكون حراً في عملي ، وإن الإصلاح الذي تبغيه البلاد مني لا يتم بالقيام به بنفسي لأن الإرشاد بالقول والكتابة لا ينفع إلا إذا وجد رجال أكفاء يقدرون على العمل به وهم غير موجودين (قال) يجب أن تستفيد بلادك من علمك الواسع واختبارك الدقيق مدة إقامتك بمصر بتطور البلاد المصرية وارتقاء الإدارة والنظام فيها . وإن ما نعلمه فيك من الغيرة وحب الإصلاح يحملنا على الاعتقاد بأن لا يخيب أمل وطنك فيك .

وفي يوم السبت (2 المحرم سنة 1338) زارني الأمير زيد في الفندق بعد العصر ودار الكلام بيننا في حالتنا العامة ، فذكرت له ملخص ما أعلم من اتفاق والده مع الإنكليز وأنه ينافي مصلحة العرب . ثم انتقلنا إلى الكلام في سورية فكلمني الأمير في شدة حاجة الحكومة إلى مساعدتي لها فاعتذرت له بمثل ما اعتذرت لعلي رضا باشا فأجاب بمثل جوابه ، ومما قاله أن الأخلاق في الشام ضعيفة جداً فإن أكبر الرجال يرهبه أقل تخويف ويستميله أقل نفع ، فإذا لم ينهض مثلك . . . بالإصحاح فمن؟ . . .

فقلت له إن حجتكم علي وإن كانت عندي ضعيفة من حيث مبالغتكم في حسن الظن بي هي أقوى من حجتي عليكم بالتنصل من العمل ، وإنني على علمي بضعفي لا أرتاب في قوة إخلاصي على الإصلاح لذاته ، ولكن الإصلاح العام يعوزه الأعوان الأكفاء علماً ونزاهة وإخلاصاً وهم قليلون متفرقون ، وسأفاوض من أثق به منهم قولاً وكتابة ثم أبني على ذلك ما يتجدد من الرأي ، ولا أعد الآن بشيء .

وسألني هل أحضر الأسرة وأنقل عملي من مصر إلى الشام؟ فقلت إن قبلت المكث الآن في الشام للمساعدة فلا يمكنني أن أنقل أسرتي لما يقتضيه نقلها من النفقة الكثيرة والخسارة التي لا يسمح بها المكث مؤقت ومركزنا في مصر ثابت لا يمكن التفريط فيه فلا بد من إبقائه على حاله حتى يستقر الأمر في الشام على أساس

ثابت . فأقرني على ذلك وجاءته وهو عندي برقية من أخيه الأمير فيصل يؤكد فيها وجوب السكينة في البلاد ، إذ علموا أن الأهالي في اضطراب من جراء الاتفاق بين الإنكليز والفرنسيين .

وفي هذا اليوم أعطاني علي رضا باشا المذكرة التي وضعها لإدارة الأمور الشرعية وهي خاصة بالإدارة والعاملين فيها - إدارة المدير العام - ومحكمة التمييز الشرعية - ولجنة التوجيه والانتخاب والامتحان والتدقيق والمعاهد والمدارس الدينية - وإدارة الأوقاف العامة - وقلم الرسائل . ويلي ذلك الأمور التالية لهذه الإدارات .

ومن هذه القضية يعلم رأيي في حالة البلاد وحكومتها في سورية على حين كان الوجهاء والمتعلمون يعتقدون أن لها دولة ثابتة يتهافتون على مناصبها ووظائفها . وقد كان التزاحم على إدارة الأمور الشرعية بعد مجيء الأمير فيصل وبعد إعلان الاستقلال أعظم والتزاحم أشد ، وكان كثير من العلماء يختلفون إلي للبحث فيها ، وقد كتبوا لي زهاء أربعين اسماً[25] قالوا إنهم على رأي واحد في أن يكونوا أنصاراً لي ، ولا يذعنون في رياسة الأمور العلمية لغيري ، فكان ذلك مما زادني فيها زهداً ، وعنها بعداً ، وذكرت لهم رأيي ومشربي كما ذكرته للملك فيصل بمناسبة ذكر هذه المسألة . وانتهى الأمر فيها بعد الاستقلال وتأليف الوزارة إلى إحداث وظيفة مدير للعملية ، ليس له شأن في الأوقاف ولا المحاكم الشرعية .

حكومة دمشق العربية



كنت قبل سفري إلى سورية سألت عن حكومتها بعض من جاء منها إلى مصر من السوريين والأجانب الذين يوثق بعلمهم ورأيهم - ومنهم (الجنرال كلينتون) الشهير والدكتور بشير القصار منا - فقالوا إنها ليست كما يجب من كل وجه ، وهي شهادة حسنة لحكومة جديدة ، هذه حقيقة حالها في ذاتها ، ففيها ضعف بالنسبة إلى ما يجب أن تكون عليه كل حكومة في هذا العصر . ولكنها كانت على ما فيها

---

(25) في الأصل (واسماً) والتصرف من (الوراق)

من ضعف وقصور خيراً من حكومتي الاحتلال في المنطقتين الآخريين : الجنوبية (فلسطين) الإنكليزية ، والغربية (لبنان وساحل سورية) الفرنسية .

كانت هذه الحكومة العربية الطفلة أقرب إلى العدل والحرية والمساواة والإصلاح ، وأبعد عن التعصب والمحاباة والإفساد الأدبي والاقتصادي من حكومتي الدولتين اللتين ابتدعتا لنا بدعة الانتداب لإصلاح بلادنا بحجة أننا عاجزون عن النهوض بأمر أنفسنا ، ولقد كانت هذه الحكومة بعد زوال السيطرة البريطانية ولا سيما بعد إعلان الاستقلال خيراً منها قبل ذلك : كانت متوجهة إلى الإصلاح الإداري والعلمي ، وكانت الحرية بجميع أنواعها ولا سيما حرية الاجتماع والخطابة والنشر مما تحسدها عليه سائر البلاد السورية ومصر ، وزال من دمشق ما كانت مشهورة به من المبالغة في الحفاوة والتعظيم للحكام والوجهاء ، وشعر الشعب بحرمته وكرامته ، وقد كان لتواضع فيصل وآدابه الشخصية العالية تأثير عظيم في ذلك .

كان اليهودي الصهيوني يحابى في فلسطين فيقدم على المسلم والمسيحي بغير حق ، وكان الكاثوليكي يحابى في الساحل كذلك ، ولم يكن المسلم يحابى في حكومة الشام ، ولا شكا مسيحي ولا يهودي من الحكومة ولا من الأهالي تعصباً عليه ، ولا ظلماً له من المسلمين ، ولم يكن المسلمون يرجون من الوزراء ورؤساء الحكومة المسلمين ما لا يرجون من الوزراء والرؤساء من النصارى ، وما أبرئ هذه الحكومة من عيب محاباة الكبراء وقبول شفاعتهم في طلاب وظائفها بدءاً وترقية ، وكان أكبر هذا الضعف في الوزراء ، والرؤساء بإزاء الملك فيصل وعشيرته والمقربين منه فإن هؤلاء قد اعتادوا على عهد سلطتهم العسكرية المطلقة أن يتصرفوا في الأعمال والأموال بما شاؤوا وكيف شاؤوا ، فصعب عليهم بعد إعلان الاستقلال أن يتقيدوا بقانون ونظام ، ولم يكن للوزراء من الشجاعة الأدبية والتكافل ما يؤهلهم لتقييدهم وتعويديهم الوقوف عند حدود سلطتهم الرسمية ، إذ كانوا هم قد اعتادوا في عهد الترك أن يميلوا مع أهواء الرؤساء والكبراء ، ومع هذا أمكن لحكومة الاستقلال أن تقيد الملك براتب محدود لم يكن راضياً به على كثرته ، وكان يستهلك راتب كل شهر في أوله أو قبل بدو هلاله ، ويطلب من وزارة المالية سلفة بعد سلفة فلا ينال كل ما يطلب ولا أكثره بسهولة . وقد كان نفوذه في بعض الوزارات أقوى منه في غيرها ، واختلف مع

الوزارة في عدة مسائل من أهمها أنه كان يريد إرسال حملة من الجيش السوري الجديد لقتال ابن سعود إنجاداً لوالده – إذا ثبت ما كان أشيع من عزم الأخوان النجديين على الاستيلاء على المدينة المنورة – فلما كاشف الوزراء بذلك حاروا في أمرهم، وبعد تشار وتدبر قرروا الرد عليه بأنه لا سبيل إلى إرسال حملة من جند الحكومة، ولا إنفاق شيء من مالها في هذا السبيل، وإنما يمكن جمع حملة متطوعة بمال الحجاز، وكان هذا أفضل موقف للوزارة الأتاسية مع الملك فيصل، لشدة اهتمامه بهذا الأمر وتصريحه للأتاسي وغيره بأنه إذا وقع قتال بين والده وبين ابن سعود فإنه يغادر سورية ويذهب بنفسه للقتال، سواء ساعدته حكومة الشام أم لا، ولكن لم يقع ما كان يتوقع ولو وقع فأصر فواتته الوزارة لعجزت عن التنفيذ وكان هذا رأيي إذ شاورتني في الأمر.

لو وجدت في الشام وزارة حازمة بصيرة لأمكنها أن تعمل في البلاد عملاً عظيماً في فرصة الاستقلال وارتفاع السيطرة العسكرية البريطانية عن المنطقة الشرقية.

وقد كان لي أمل كبير في وزارة علي رضا باشا الركابي – لا أدري أكان للصلة الودية بيننا تأثير فيه أم لا – ولا أدري كنه السبب لخيبة هذا الأمل. كان بعض الناس يبالغ لي في الطعن فيه وبعضهم يدافع عنه، ولم أستطع الوقوف على حقيقة رأيه في موقف البلاد السياسي، ولا فيما يجب أن تكون عليه الحكومة، على ما كان من احترامه إياي وحسن اعتقاده الذي هو فوق ما أشرت إليه في الفصل الذي قبل هذا، وإنما كنت أعجب لكلمة سمعتها منه مرة أو مرتين وهي إن استقلالنا مضمون وإنكلترة وفرنسة متفقتان عليه!! وقد اقترحت عليه شيئاً واحداً من الإصلاح، وهو وضع إدارة منظمة للعشائر والقبائل بينت له بعض مسائلها وما يرجى منها، فأظهر لي منتهى الاستحسان لها، وطفق يماطل ويسوف فيها مع إقناعي للملك فيصل وجوب العناية بها، وأمره إياه بتنفيذها، ولم يفعل. وقد كثر بعد الاستقلال المنتقدون له حتى صار أكثر أعضاء المؤتمر وأفراد حزب الجمعية التي ينتمي هو إليها وهو حزب الاستقلال العربي عليه، وانتهى ذلك بانحراف الملك عنه، وعقدت اجتماعات سرية للبحث في إسقاط وزارته حضر بعضها الملك فيصل وتقرر فيها استبدال وزارة قوية بها، فتألفت وزارة هاشم بك الأتاسي ودخل فيها الدكتور عبد

الرحمن شهبندر والمرحوم يوسف بك العظمة وكان الكاتب هو المقترح الأول لإدخالهما في هذه الوزارة . وأما الرئيس فاختاره الملك فيصل ، وقد كان أحد أعضاء لجنة الشورى السرية .

قد استطاع هاشم بك بدماثته ولطفه إرضاء الملك ، ولكنه لم يكن بالرئيس الذي دعاه في هذا الوقت المؤتمر ولا الأحزاب وفي مقدمتها حزب الاستقلال العربي الذي هو منه ، لأن الجميع كانوا يطلبون وزارة دفاعية تصرف جل جهدها في الاستعداد للدفاع عن الاستقلال إذا اعتدي عليه ، أو يكون الاستعداد سبباً لعدم الاعتداء . فلم يلبث أن ضايقه المؤتمر والحزب ، وتوجه رأي الأكثرين إلى وجوب تبديل وزارته وكثر الانتقاد في المؤتمر عليها ، والاقتراحات في أمر استيضاحها عن موقف البلاد ، والاستعداد للدفاع ، وكنت أجتهد في حمل المؤتمر على الأناة والتروي والحزب الغالب يظاهرني ، ولما علم حزب الاستقلال بإنذار الجنرال غورو للملك فيصل اجتمعت الجمعية العامة له في الليلة ال 27 من شوال (13 يوليو) وانتخبت وفداً مؤلفاً من أعضاء اللجنة المركزية وسبعة من غيرهم لإبلاغ الملك فيصل وجوب تبديل الوزارة فإن لم يُجب يكلف هاشم بك أن يستقيل ويقنع الملك بأن يكلف ياسين الهاشمي تأليف وزارة دفاعية . وكان كاتب هذا رئيساً لتلك الجلسة ثم للوفد ، فلما بلغنا الملك ذلك أجاب جواباً جافاً خلاصته أنه لا يعمل برأي جمعية ولا حزب ولا المؤتمر ، وأجبته جواباً أشد من جوابه وأجف أو أجفى ، ولا حاجة الآن إلى تفصيل ذلك ، ثم كلفت رئيس الوزراء الاستقالة باسم الوطن واسم الأخوان فأجاب بالقبول ، قال : ولكن أليس يجب الاتفاق قبل ذلك على من يخلفنا لئلا يكونوا ممن تنكرون منهم ما لا تنكرون منا؟ فأنتم تثقون بوطنيتي ولا تشكون مني إلا الضعف عن النهوض بأعباء الحال الحاضرة ، وربما كان الخلف الذي يرضاه الملك أضعف وغيره موثوق بوطنيته ، وقال الملك لن يولي الهاشمي الوزارة بل اجتهدنا في إقناعه بأن يوليه وزارة الداخلية فأبى .

إنما موضوع كلامي هنا بيان ضعف الوكالة لا ترجمة الملك فيصل ، ولا تاريخ تلك الأيام المفصل . وقد كنت كلمت الأمير زيداً في ذلك إذ خلوت به مرتين في أيام فرصة عيد الفطر - إحداهما في داري والأخرى في البلاط - وكان يشكو من ذلك

مثلنا، فقلتُ له : إن الإصلاح لن يكون إلا بترك الملك التدخل في أعمال الوزارة بنفوذه الشخصي، فاعتذر عن تدخل الملك بأن سببه ضعف الوزارة وعجزها، فقلت له : إنما يجب عليه إصلاحها لا التصرف الشخصي في جزئيات أعمالها الذي يزيدها خللاً : وقد كان الملك فيصل راضياً كل الرضى عن وزارة الأتاسي ولا سيما وزير الخارجية الدكتور عبد الرحمن شهبندر الذي كان من قبل يكرهه ويظن أنه عدو له حتى إنه قال لي يوماً : إنني لما عرفت شهبندر احتقرت جميع أهل الشام، ولكن رضاه في ذلك الوقت، كان سبباً لسخط جمهور الشعب.

وقد أفضى ضعف الحكومة ولينها وطمع الطامعين فيها إلى أن تجرأ الساخطون عليها من الطامعين في المناصب والمواهب الملكية على الطعن فيها، وتأليف الأحزاب لمقاومتها، وكان بعض العلماء والعامة، يكثرون الطعن في وزير المعارف خاصة، ويزعمون أنه يريد إضعاف الدين في المدارس وتعويد البنات فيها على التهتك، وطالما راجعوني قبل إعلان الاستقلال وبعده متوسلين بي إلى السعي معهم لدى الأمير ثم الملك بعزله فكنت أنصح لهم بالتأني وأحسب حساباً لتعود الشعب الافتيات على الحكومة ولا سيما الطامعين منه في أعمالها ومناصبها، وأرى أن السعي لتلافي الخلل وإقناع الحكومة بإصلاح ما ينتقد عليها بحق أحسن عاقبة من أطماعهم فيها. وقد ذكرت رأيي هذا لمدير المعارف ثم وزيرها ليكون على بصيرة من أمره. ولم يقف تأثير ضعف الحكومة في الشعب عند هذا الحد بل أفضى أخيراً [26] بالساخطين والطامعين أن تجرءوا على السعي لهدم الاستقلال والتزلف إلى الأجانب فقوي الحزب الوطني المتهم بموالاة فرنسة وهو الذي كان يرأسه عبد الرحمن باشا اليوسف ،حتى إنه بلغ الحكومة أنهم عزموا على تأليف وفد فيه سبعة من حملة العمائم، وسكنة الأثواب العباعب، يرسلونه إلى باريس لطلب الانتداب الفرنسي على جميع البلاد السورية، ولم تفعل الحكومة شيئاً. وأغرب من هذا أن بعض الموظفين في بلاط الملك سرق دفتر الخزينة الخاصة مرتين ولم يشك أحد علم بذلك في سببه . . . ولم يعاقب بل لم يحاكم بل لم يجر في لبلاط تحقيق بشأنه.

---

(26) في الأصل(خيراً) والتصرف من (الوراق)

وكان بعض الوزراء كيوسف بك العظمة (رحمه الله) يخص وزير الداخلية بالتقصير في إيقاف الأحزاب المعارضة عند حدها فقلت لهم كلا إن هذا يطلب من الوزارة كلها لا من الداخلية وحدها .

أكتفي بهذه الخلاصة من بيان ضعفنا وتعليل عدم نجاحنا ، عسى أن نعتبر به في مستقبل أمرنا ، وأعيد القول بأن حكوماتنا كانت مع هذا خيراً من حكومتي المنطقتين الأخريين من بلادنا أمناً وعدلاً ومساواة وتقدماً في العلم والاقتصاد ، وسأتلكم في الفصل الآتي عن المؤتمر .



المؤتمر السوري العام

انتخب أعضاء هذا المؤتمر في أوائل سنة 1919 من جميع الولايات والمتصرفيات السورية في المناطق الثلاث التي قسمها الحلفاء إليها وكان انتخابهم فيما عدا متصرفية جبل لبنان التي كانت مستقلة في إدارتها الداخلية على طريقة انتخاب مجلس المبعوثين العثماني بل انتخبهم المنتخبون الأولون الذين انتخبوا المبعوثين في الدورة الأخيرة ، وأما جبل لبنان الذي لم يكن ينتخب منه أعضاء لمجلس المبعوثين في الدورة الأخيرة ، فقد انتخب من بعض بلاده - لا كلها - أعضاء للمؤتمر انتخبهم الوجهاء وشيوخ الصلح الذين ينتخبون أعضاء مجلس إدارة لبنان .

وكان الغرض من تأليف هذا المؤتمر المنتخب بطريقة نيابية عن الشعب السوري كله أن يبين رأي الشعب السوري في مصير البلاد وشكل حكومتها وما يفرضه عليها دول الأحلاف من المساعدة . . . وقد اجتمع المؤتمر لأول مرة في دمشق عند مجيء اللجنة الأمريكانية من أوروبة في تلك السنة لاستفتاء الشعب السوري في ذلك . وخبر هذه اللجنة في تأليفها وامتناع دولتي فرنسة وانكلترة من الاشتراك فيها بعد أن كان قد تقرر جعلها مشتركة وطوافها مناطق البلاد واطلاعها على رأي جميع الطبقات والجماعات فيها بالمشافهة وقرار المؤتمر العام الذي قدمه لها في دمشق ، وإجماع الرأي العام في هذه المناطق على طلب الاستقلال التام للبلاد كلها واتحادها ورفض كل مساعدة تنافي هذا الاستقلال ، كل ذلك معروف مشهور قد نشر في جميع الجرائد

السورية في ذلك الوقت ونقلته عنها الجرائد العربية بمصر وأمريكة وغيرها ونوه به كثير من الجرائد الإفرنجية في البلاد المختلفة ، وسبق له ذكر في المنار وليس هو مما يعنينا هنا ، وإنما الذي نريد أن نقوله هو أن الجماعات والأفراد أولي الشأن الذين قابلوا اللجنة الأمريكية في جميع المناطق قد أيدوا المؤتمر السوري العام فكان ذلك من الشهادات المتواترة على ثقة الشعب كله بالمؤتمر وكونه ينطق باسمه ويعبر عن رأيه .

لأجل هذا قرر حزب الاستقلال العربي عند البحث في طريقة إعلان استقلال البلاد أن يكون المؤتمر السوري العام هو الذي يقوم به في العاصمة (دمشق) مستظهراً بعلمائها ورؤسائها الروحيين وكبار رجالها من جميع الطبقات والأحزاب ، وأنه لا حاجة إلى انتخاب جديد - كما اقترح بعضهم - وكذلك كان ، وقد نشرنا خبره مفصلاً في وقته .

ولما اجتمع المؤتمر وأعلن الاستقلال أيده الشعب في جميع المناطق السورية وصارت له بمظاهرة الشعب له صفة الجمعية الوطنية التأسيسية ، وقد كان من رأي الأمير فيصل أن ينفض بعد إعلان الاستقلال ، وكاشف الذين يتولون مراجعته ومذكراته في الأمر من كبار أعضاء الحزب بذلك فلم يوافقه أحد ، وكاد يصر لولا أن قيل له إن هذا الأمر لا يمكن البت فيه إلا بعد اجتماع المؤتمر والاتفاق مع الأكثر من أعضائه وهم من حزبنا على ما يحسن في ذلك ؛ ثم كثر البحث في ذلك بعد اجتماعه وقبل الاتفاق وعلى وضع صيغة إعلان الاستقلال حتى تم الاتفاق على الصيغة التي وضعت في قرار المؤتمر التاريخي الذي أعلن به الاستقلال - وقد نشرناه في المجلد الحادي والعشرين من المنار (ص 441) - وهنا نصها بعد ذكر اختيار فيصل ملكاً .

(وأعلنا انتهاء الحكومة الاحتلالية العسكرية الحاضرة في المناطق الثلاث على أن يقوم مقامها حكومة ملكية نيابية مسؤولة تجاه هذا المجلس (أي المؤتمر) في كل ما يتعلق بأساس استقلال البلاد التام إلى أن تتمكن الحكومة من جمع مجلسها النيابي على أن تدار هذه البلاد على طريقة اللامركزية) .

فإن جعل الحكومة مسؤولة تجاه المجلس كان يراد وضعه مطلقاً فلم يقبل الأمير فيصل بذلك وبعد المراجعة والإصغاء رضي بأن يكون ذلك مقيداً بما يتعلق بأساس استقلال البلاد التام ورضي أكثر الأعضاء بذلك .

وبعد أن تألفت الحكومة وانتظمت جلسات المؤتمر اقترح بعض أعضائه وضع قرار بطلب تقديم الوزارة بيان خطتها للمؤتمر طلباً لاعتماده إياها من حيث هي حكومة نيابة بمقتضى قراره فقبل الاقتراح وتقرر بأغلبية كادت تكون اتفاقاً .

ولما بلغ رئيس الوزارة قرار المؤتمر عرضه على الملك فأنكره وأبى أن تجيب الوزارة الطلب حتى أقنعته بذلك بعد مناظرة حادة حضرها إحسان بك الجابري رئيس أمنائه – وكان فيه ميالاً لرأيي – وسمع بعضها الأمير زيد .

ذلك أنني زرته صباحاً كالعادة فذكرت لي قرار المؤتمر وقال إنه ليس له هذا الحق لأنه ليس مجلساً نيابياً وإنني أمرت الوزارة بعدم إجابة طلبه . فقلت له يا مولاي إن هذا الاقتراح عرض فجأة في المؤتمر ولم يبحث حزبنا فيه ولا علم به قبل عرضه ، وإنني لم أكن من المقرين له ولا العارضين فيه لأنني لا أزال متردداً في الترجيح بين كفاءة الوزارة وكفاءة المؤتمر وناظر إليها بعين النقد والتجربة ، ولكن يجب أن ينفذ قرار المؤتمر بعد أن قرره وبلغه لا يجوز رده البتة .

قال : إنه لا حق (له)[27] في هذا الطلب لأنه ليس مجلساً نيابياً . قلت : بل له هذا الحق لأنه أعظم سلطة من المجلس النيابي ، إنه جمعية وطنية تأسيسية .

قال : إنني أنا الذي أوجدته فلا أعطيه هذا الحق الذي يعرقل عمل الحكومة .

قلت : بل هو الذي أوجدك ، فقد كنت قائداً من قواد الحلفاء تحت قيادة الجنرال أللنبي فجعلك ملكاً لسوريا . نعم إن لك فضلاً بالسماح بجمعه إذ كنت تحكم هذه البلاد حكومة عسكرية باسم الحلفاء ، أما وقد اجتمع باسم الأمة وهي صاحبة السلطان الأعلى بمقتضى أصول الشرع الإسلامي الذي تدين لله به وبمقتضى جميع أصول القوانين العصرية الراقية ، وقد اشترط في تأسيسه لهذه الحكومة التي اختارك ملكاً لها أن تكون مسؤلة تجاهه في كل ما يتعلق بأساس الاستقلال ، وبرنامج الوزارة السياسي يتعلق بأساس الاستقلال مباشرة ، وبرنامجها الإداري يتعلق بحفظ الاستقلال بالتبع أيضاً . فأرجو أن لا تحدث لنا أزمة في أول طريقا . وما تخشاه من عرقلة الحكومة بتدخل المؤتمر وسيطرته عليها فأمره سهل ، فإن أكثرية المجلس من

---

(27) ما بين قوسين زيادة من (الوراق) يقتضيها السياق

حزبنا وأعضاء الوزارة من حزبنا أيضاً ونحن نضمن التوفيق بينهما وعدم فتح هذا الباب الآن . وبعد التأمل في هذا الكلام الذي يعتقد إخلاص قائله وصدقه وعلمه بان المؤتمر لا يسكت عن تنفيذ قراره رضي ، ثم قدمت الوزارة بيانها على الوجه الذي يتفق مع رأي الحزب ونالت الاعتماد المطلوب ثم كان من أمرها بعد ذلك ما ذكرناه من قبل .

والغرض من ذكر هذه الحادثة بيان صفة المؤتمر لا التعريض بميل الملك فيصل إلى الاستبداد ، بل أقول إنني كنت أخاف ما يخاف هو من تحكم المؤتمر في الحكومة وعرقلته لأعمالها وهي في طور التكون ، فإن استبداد الجماعة قد يكون أشد ضرراً من استبداد الأفراد ، والشواهد على هذا معروفة في التاريخ القديم والحديث ، وحسبنا من الحديث استبداد الاتحاديين بالحكومة العثمانية الذي أدى إلى هدم سلطنتها (إمبراطوريتها) العظيمة ، وحب الاستبداد فطري في نفوس البشر خيارهم وشرارهم ، وربما كان بعض الأخيار أمضى فيه وأثبت قدماً من غيرهم ، لعذرهم أنفسهم فيه بما يجدون فيها من حسن النية ، والشرير قد يلوم نفسه عليه إذا كان فيه بقية من الخير ، ولا يصرف الناس عن الاستبداد إلا التقيد بشرع أو قانون وراءه قوة تحافظ على تنفيذه وتراقب المنفذين له ، وهذا معروف ولا يحتاج إلى شرح ، ولما كانت مراقبة الملوك وإيقافهم عند حدود الشرائع والقوانين مع الاعتراف لهم بالسلطة العليا من أشق الأمور بل تكاد تكون متعذرة سلبت الأمم الراقية السلطين منهم وجعلتها للمجالس النيابية وجماعة الوزارة . . . قلت مرة لمستر (متشل إنس) وكيل المالية بمصر في عهد كرومر : أنكم قد ظلمتم الخديوي وقيدتم سلطته حتى لم تتركوا له من النفوذ الفعلي في الحكومة شيئاً : فقال : لكننا تركنا له جميع مظاهر الملك وعظمته ، وهل تريد أن نعطيه ما ليس لملكنا مثله فيستبد في الأعمال ، فوالله لو أن ملكنا استطاع أن يستبد في أمر من الأمور في يومه لما أخره إلى الغد .

ومعقول أن يكون الملك فيصل أجدر من غيره بحب الاستبداد وقد صرح بأنه ندم أن لم يكن استبد في سورية ، ولكن من غرائزه وأخلاقه ما يصده عنه إذا كان طريقه غير معبد له ، وآية لي على ذلك أنه سمع مني ما ذكرت من معارضته فرجع إلى قولي ، ولم ينقص ذلك شيئاً من مودته واحترامه لي ، ولو كان الاستبداد فيه

كرسوخه في كثير ممن نعرف من الأمراء وكان قوي الشكيمة فيه لما استطعت معاشرته والعمل معه بعد ذلك، وكان حقد علي بهذه المعارضة وكاد لي كيداً، إذا لم يستطع إيذائي جهراً، على أنه رأى مني بعد ذلك معارضة أشد وأخشن ولم يكن ذلك بصارف له عن مكاشفتي عند توديعه ليلة خروجه من دمشق بأعمق أسراره التي أكد لي أنه لم يذكرها لأخيه، كما ذكرت من قبل ولعله لولا يقينه الصحيح بإخلاصي للأمة وله وأنني ليس لي أدنى هوى نفسي في ذلك لما بقيت لي عنده هذه المودة، وقلما تجد هذا عند غيره من الملوك والأمراء، بل عند الأفراد والنظراء، بل عند من دونهم؟ ونعود بعد هذا الاستطراد إلى الكلام عن المؤتمر.



المؤتمر والحكومة في سورية

قلت إنني كنت أخاف ما يخاف الملك فيصل من تحكم المؤتمر في الحكومة وعرقلته لأعمالها، وأنني كنت أراقب كلا منهما مراقبة المختبر الشاك في كفاءة الفريقين وفي الترجيح بينهما، وقد تكون وجهة النظر عندي في ذلك مخالفة لوجهة النظر عند الملك فيصل، وقد بينت بالإجمال ما ظهر لي من كفاءة الحكومة والانتقاد عليها بالاعتدال البريء من التحامل والمحاباة.

وأما المؤتمر فقد ظهر أنه ليس أدنى من المستوى الذي فيه الشعب بل هو مثال مطابق له، فقد كان الرأي العام فيه في مسألة الاستقلال التام الناجز ورفض كل سيطرة أجنبية هو رأي الشعب بعينه، بل لم يكن في أدنى مظهر للفئة القليلة في الأمة التي تميل إلى قبول الوصاية الأجنبية المؤقتة، وهل لدى الدول الطامحة إلى ذلك سيطرة مؤقتة إلا عند العجز عن الدائمة؟ وقد يلطفونها بتسميتها مساعدة، نعم قد اتهم أفراد من الأعضاء بأنهم من الحزب الوطني الذي ألفه بعض الأغنياء، ولكن بعض وزراء الحكومة على قلتهم كانوا يصرحون لبعض الناس بأن رأيهم قبول الوصاية ومنهم ساطع بك الحصري وزير المعارف الذي كان أحد رسل الملك فيصل إلى الجنرال غورو وعلاء الدين الدروبي قتيل خربة الغزالة وتقدم ذكر ذلك. بل كانت وطأة المؤتمر شديدة في مقاومة الانتداب في كل من سورية الجنوبية والشمالية ولم يكن هذا

محل خلاف بين حزبيه ولا بين أحد من أفرادها .

وكان فيه العدد الكافي من دارسي علم الحقوق وأصول القوانين ومن ذوي الإلمام بالشريعة الإسلامية ومن الأذكياء المتعلمين في مدارس الدول العثمانية أو بعض المدارس الأجنبية فكان بذلك كفؤ لوضع القانون الأساسي للبلاد وأهلاً لوضع غيرها من القوانين أو تنقيح القوانين العثمانية .

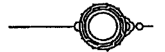
وكان فيه طائفة من المحافظين على القديم من أمور الأمة وتقاليدها ، وطائفة من المولعين بالجديد الأوروبي ، وطائفة من المعتدلين بين جمود أولئك وخفة هؤلاء ، ومن المولعين بالجديد من يودون السير من وراء حدود الدين وأن يستظهروا في ذلك بالقانون بل قاوم كثيرون منهم تقييد الحرية الشخصية بشرط المحافظة على الآداب العامة وكان رأي بعضهم أنه شرط لا حاجة إليه لئلا يتوسل به إلى منع السكر في المقاهي والملاهي واختلاط النساء بالرجال فيها ، ورأى آخرين أنه شرط حسن ولكن لا ينبغي ذكره في القانون الأساسي ، فكان رأي الفريقين أفلج فرجح[28] عليه رأي المخالفين لهم لأن أكثر هؤلاء كان ضعيف الفهم قليل الحزم .

أشرت آنفاً إلى أنه كان في المؤتمر حزبان ، وهما حزب التقدم الذي يمثل حزب الاستقلال العربي وجمعيته وحزب الاعتدال ، ثم انفرد أفراد سموا أنفسهم حزب الاستقلال - أي الاستقلال في الرأي - ولكن الذين لا يتقيدون ببرنامج حزب يؤيدون الأكثر من أفراده إذا قرروه لا يمكن أن يؤلفوا حزباً من أنفسهم . ولو أمكن أن يكون هؤلاء حزباً لكنت منهم قبل أن أكون رئيس المؤتمر فإنني من أشد الناس استمساكاً باستقلالي فيما أراه هو الصواب ، ولكن لم يكن لي مندوحة عن الاشتراك في تأليف حزب التقدم الذي يمثل الجماعة التي أنا مرتبط بمذهبها السياسي وهو استقلال البلاد العربية وقد انتخبت رئيساً لهذا الحزب عند تأسيسه ، وكنت أستعين به على تنفيذ رأيي في المسال الخلافية في اجتماعاته الخاصة فإن لم يتيسر لي إقناع الأكثرين في بعض المسائل ولم يتيسر لهم إقناعي فإنني أنفذ قرارهم عملاً بالنظام ولكنني لا أنصره بالاحتجاج له والدفاع عنه على منبر المؤتمر ولا في مناقشة

(28) في الأصل (فرجع) والتصرف من (الوراق)

الأفراد ، بل كنت أصرح لهم بما أعتقد أنه صواب ، وأقول هذا رأيي وذاك قرار الحزب . وقد استطعت بما لي من المكانة الشخصية عند الأخوان أن أقنعهم بإرجاء البت في بعض المسائل الخلافية إلى أجل ساعدتنا فيه الأيام على الاتفاق فيها .

ولقد دعيت إلى المساعدة على تأليف الحزب الآخر عند الشروع فيه على أن أكون رئيساً له فلم أقبل ، وقد كان الداعي الأول إلى تأليفه كتب أسماء أكثر الذين لا ينتمون إلى حزب الاستقلال العربي ليدعوهم إلى تأليف حزب مخالف له في المؤتمر لئلا ينفرد بالنفوذ فيه كما انفرد بالنفوذ في الحكومة وفي بلاط الملك ، على أن يتقاسموا ليكونن إلباً واحداً على كل ما يقررونه فيما بينهم لا يشذ أحد عن رفع صوته به ، ولم أكن أعرف لهم رأياً جامعاً غير ما ذكرت وهو ما يتعذر عليّ ، على أنه قد دخل في حزبيهم بعض جماعتنا برضى من حزبها بقصد الإصلاح وتفادياً من توسيع مسافة الخلاف ، وقد كان أفراد هذا الحزب وهم الأقلون عدداً أكثر اتفاقاً وتناصراً من الآخرين وهم الأكثرون عدداً وعلماً إلا في المسائل المهمة ومنهم أكثر أهل العلم والرأي والخطباء .



سيرتي في المؤتمر

ولما صرت رئيساً للمؤتمر وجب علي أن أساوي بين الحزبين في كل شيء يتعلق به وفي احترام أفرادهما حتى في خارجه وإعطاء كل ذي حق حقه ، وإيتاء كل ذي فضل فضله ، بل تركت رئاسة حزب التقدم مع المحافظة على نصر الجماعة التي ينتهي إليها ، وقد كان الذين استاءوا من تشديدي عليهم في حفظ نظام الجلسات أو في المنع في بعض الأحيان من الكلام والخطابة أكثرهم من أفراد جماعتنا وأقلهم من الحزب الآخر ، بل ربما كان أكثرهم من أصدقائي وما كلهم من أفراد جماعتنا ولا كل أفراد جماعتنا منهم ، ومن العادات الراسخة في نفسي أن أشتد مع الأصدقاء أيهم أشد حباً وإخلاصاً في الصداقة ما لا أشتد مع غيرهم في الإقناع بالحق والمطالبة بالوقوف عنده ، لأنهم أقرب إلى حسن الظن وأبعد عن الظنة (التهمة) التي قد تبعث على مكابرة الحق ، وكم أغضب علي هذا الخلق من صديق ساءني إغضابه ،

وسرني استعتابه ، وكم وجه إلي من عتب محب لم يتعذر علي إعتابه ، وربما فاتني من ذلك ما أجهله أو أعذر نفسي بحسن النية فيه وإن لم تعلم . وقد اتهمني بعض من صاحبت وواددت من أعضاء المؤتمر وغيرهم بالمحاباة في تنفيذ وظيفة الرئاسة فيهم ، وكانت هذه التهمة باطلة ، فوايم الحق ، إنني كنت دائماً محافظاً على تحري الحق والعدل ، ولكنني لا أبرئ نفسي من التساهل أحياناً مداراة لبعض شديدي الانفعال والغضب أو محبي المشاغبة كراهة أن تكسر فتسوء سمعة المؤتمر ، ومنهم من أغراه ذلك باللجاج بالتمادي حتى اضطررت إلى ما كنت أكره من الإنذار وراء الإنذار ، الذي لا يبيح القانون فيه للرئيس إخراج المنذر من الجلسة بقوة الشرطة .

تمت

ملاحق الكتاب

يوميات رشيد رضا مع الملك فيصل في سورية[29]

في اليوم السابع عشر من شهر جمادى الأولى وهو السابع من أيلول (سبتمبر) فجعت المملكة العراقية الطريفة العتيدة، والأمة العربية العريقة التليدة، بوفاة الشريف فيصل ملك سورية الأول المؤسس بالأمس القريب، فملك العراق الأول المؤسس إلى هذا اليوم العصيب، ابن المرحوم الشريف حسين ملك الحجاز الأول المؤسس من قبله، ووالد الملك غازي الأول الوارث من بعده، فاهتزت لموته البلاد العربية وزلزلت الأمة زلزالاً شديداً، وكان لنعيه رنة عالية في الغرب، رجع صداها الشرق كله بما لم يتفق مثله لملك من كبار الملوك ولا لعظيم من عظماء الفاتحين.

توفي فجأة في مدينة (برن) عاصمة (سويسرة) من أوربة بسكتة عرضت لذلك القلب الخفاق بحب قومه ووطنه، فما سكن بالموت خفقانه، وسكت جيشانه، إلا وخفقت أسلاك البروق الكاتبة والناطقة في الخافقين معلنة نعيه، مكبرة خطبه، معددة مناقبه، مثنية على سياسته، وتلتها صحف العالم تتلو آيات التأبين والرثاء، وتردد شهادات الحمد والثناء، ولا سيما الصحف العربية في مصر والشام والعراق فسائر الآفاق، ولا تزال أنهارها تفيض بذلك إلى الآن.

وقد حُنِّط حيث توفي، وحمل في تابوت إلى إيطالية، فاحتفلت به حكومتها احتفالاً عظيماً، ثم حمل منها ومن كان معه من الآل الوزراء والبطانة والحاشية على طرادة حربية إنكليزية إلى حيفا، حيث كانت تنتظر الوفود من فلسطين وشرق الأردن وسورية ولبنان، فكان يوماً يذكر بيوم الحشر، في ازدحام الأقدام واشتراك الجميع في الكرب، وإكبار الخطب، ووجيف القلوب، وفيض الدموع، وهنالك صلي على جنازته، ثم حمل على طيارة مع بعض من حضر من أهله وخاصته، وتبعتها طيارات

---

(29) وقد نشرها رشيد رضا في أماكن متفرقة من المجلد 34 من المنار، عقب وفاة المغفور له الملك فيصل بن الحسين الهاشمي.

أخرى تقل سائر من كان معه وبعض المشيعين له إلى بغداد ، ولا تسل عما جرى هنالك من استقبال الشعب العراقي لمؤسس ملكه ، وواضع بناء مجده ، وقد عاد إليه جسداً محنطاً بغير روح ، على مثل الطيارات التي حملته من بينهم في هذا الصيف مرتين غادية رائحة وهو يكاد يكون روحاً بغير جسد ، ولو لم يعرف الشعب من جهاده في سبيله إلا عمله في هذا الصيف لكفى ، فإن ما فعلته حكومته وشعبه ، رجاله ونساؤه ، حضره وبدوه؟ ليجل ويكبر عن الوصف والإحاطة .

شهدت بمشهده بغداد ما لم يشهده بلد من البلاد ، كانت كلها مأتماً ممثلاً لمناحة شعب كامل ، كأنه أم رؤوم ثاكل ، رنات نواح وعويل ، في كل دار وسبيل ، وحداد عام شامل لشعب كبير ، لعله لم يعرف له في الدنيا من نظير . لا في حشر الخلائق له ، ولا في الحزن عليه ، ولا في تشييعه ودفنه ، فإن قارئ وصفه في الصحف ليكاد يستصغر ما رثى به بلغاء الشعراء المتقدمين ، أعظم عظماء الممدوحين وكنا نعده من الغلو الخيالي ، والتصوير الشعري .

فارقهم أول مرة بقصد الاستشفاء في سويسرة مما عرى ذلك الجسم الضاوي الهزيل من الضعف وتصلب الشرايين ، فكانت طيارته كأنها تحمل روحاً من علو الهمة وحب القومية ، أو كأن هذا الروح هو الذي يحملها ، فحط رحاله في عمان من شرق الأردن فالقدس فمصر ، وكان يلقى في كل مكان من حفاوة المستقبلين والمودعين ، ما لم يعهد مثله فيما سلف من السنين ، إلا عند دخوله الشام فاتحاً ، ثم عند تتويجه فيها ملكاً ، وصرح له كل من استقبله من العرب الفلسطينيين والسوريين أنه مناط آمالهم في الدفاع عنهم ، والسعي لكشف ما حل من الظلم والهضم والقهر الاستعماري ببلادهم ، فوعدهم خيراً ، بل قدمت إليه عشرات من وثائق التوكيل الرسمي عليها توقيع الجم الغفير من السوريين في ذلك .

وما كاد يستريح من وعثاء السفر في سويسرة حتى حدثت في العراق فتنة خروج الآشوريين على حكومته ، وإيقاد نيران الثورة عليها بمساعدة السلطة العسكرية الفرنسية في مصر لها ، وإظهار الجرائد الإنكليزية في بلاده لمظاهرتهم والدفاع عنهم ، والطعن على حكومة العراق وإنذارها سوء العاقبة على ما تصدت له من تأديبهم .

فكر راجعاً من سويسرة إلى العراق طائراً بذلك الروح القوي القادر ، المتواري في

ذلك الشخص الشخت الضامر، الذي يصارع الخطوب، ولا يشكو الأين واللغوب، حتى كأنه لا يشعر بالكلال والإعياء، فتولى تلافي ثورة الآشوريين بتدبيره الحكيم، ورأيه الحازم السديد، وعاد أدراجه على طيارته من بغداد إلى أوربة، فأقنع أولي الأمر في إنكلترة بما لحكومة العراق من الحق في تأديب هؤلاء الثوار، وبما لهـا هي من مصلحة في تأييدها لها، وفي كف تحامل الجرائد الإنكليزية عليها، وخطلها في تهديد حكومتها، ثم في نصرها عند عرض المسألة على جمعية الأمم.

بعد هذا الجهاد العنيف والكفاح في كارثة العراق التي تصدت فرنسه لإثارتها وإثارة تعصب أوربة الديني بها على استقلاله، لإحباط السعي لاتحاد سورية به، تضاءل جسد فيصل وانحطت قواه البدنية، عن حمل قواه الروحية والعقلية، فأراد أن يستريح ويستسلم لمعالجة الأطباء، وأراد القدر المحتوم أن يخطئ في استراحته ومعالجته، بقدر ما وفق وأصاب في سياسته، فكان توقله في الجبل للرياضة خطأً مضنياً، وتداويه بالحقن غير الموافق لمرضه خطأً مردياً، فقضيا عليه في يوم وليلة قضاء مبرماً، فسبحان الحي الذي لا يموت [وما تدري نفسٌ ماذا تكسب غداً وما تدري نفسٌ بأي أرضٍ تموت] إنا لله وإنا إليه راجعون.

هذه خاتمة جهاد فيصل وخاتمة عمره، قد أظهرت للعالم كله ما لم يكن يعلمه إلا الأفراد من علو همته، وتفانيه في توطيد استقلال دولته، وتمهيد السبيل لتوحيد أمته، وهذا ما تجلى لقومه ووطنه فيه من عمل، وما تجدد لهم به من أمل، عرفه من كان ينكره، وأكبره من كان يستصغره.

وليس من موضوع المنار تلخيص أمثال هذه الأخبار الطولى من الصحف اليومية، فليس المنار بمجلة تاريخ وأخبار، وإنما هي صحيفة ذكرى واعتبار، وعلم وإصلاح ديني واجتماعي، وسيجمع الناس بعض ما نشر في الصحف العربية من تأبين فيصل ورثائه، ووصف مأتمه وعزائه، وتفصيل تاريخه في أسفار لا في سفر واحد.

وستقام له حفلات تأبين ورثاء لذكرى يوم الأربعين وغيره في بغداد وعمان والقدس والشام ومصر وغيرهن من الأمصار، على أن السابقين إلى ذلك لم يتركوا لأنفسهم ولا لغيرهم مقالاً جديداً، فقد غلوا في الشعريات غلواً كبيراً، فماذا عسى أن يقول المقتصد خلقاً وديناً، وأي تأثير يكون لقوله في أمثال هذه الجامع في هذه

الكارثة؟ ألا إنني قد دعيت إلى حضور ما ذكرت من الأمصار وإلى غيرها ، وإرسال شيء يقال فيها ، وإني لمعتذر لما عدا حفلة القاهرة منها ، ولمعترف بعجزي عن وصف هذه الفجيعة بفيصل بالوصف المحيط بها ، ولمرجئ ما أراه من الواجب علي من الاعتبار الإصلاحي بها إلى جزء آخر .

بيد أني أشهد في هذا التأبين الوجيز أن الأمة العربية خسرت بفقد الملك فيصل سياسياً محنكاً لا يناظره فيها نظير ، ولا يقارعه قريع ولا يلز به قرين ، بل تباري به دهاة ساسة الأوربيين وقرومهم المقرمين ، وفقدت زعيماً عصرياً ، وملكاً مدنياً حازماً غير مستبد ، كبيراً غير مستكبر ، متواضعاً عن غير ضعة ، حليماً في غير ضعف ، قد مارس الأيام ، وعجم عود الزمان .

وأختم القول الآن بالواجب أداؤه ، الممتنع إرجاؤه ، وهو تعزية أخوة الفقيد وأسرته الهاشمية عامة ، وجلالة نجله الذي خلفه على عرش العراق الملك غازي الأول ، خاصة فأسأل الله تعالى أن يحسن عزاءه وسلوته عن والده البر الرحيم ، بحسن القيام بما أورثه من الملك والمجد العظيم ، وأن يوفقه فيه للنهوض بأعبائه ، ويجعله خير أهل لما ترجوه بلاده وأمته من سياسته ، بالاعتماد على المجربين من رجال حكومته ، بعد تحري مرضاة الله عز وجل وشكره على نعمته ، وبناء دعائم الإصلاح على أساس شريعته ، فإن الشعب العراقي قد دخل في طور جديد من الحياة الدولية ، ولبلاده سلف عظيم من الدولة العباسية ، التي كانت مؤسسة لأرقى دولة مدنية في عصرها علماً وفناً ، وتشريعاً وقوةً وفتحاً ، وثروةً ونعمةً وعمراناً ، والأمة العربية التي بتوحيدها ووحدتها أوجدتها ، ثم فقدتها بتفرقها وغفلتها ، قد استيقظت بعد رقاد لبثت فيه عدة قرون ، ووجهت عنايتها لتجديد المجد الذي ابتدأه سلفها فأخرجوه من ظلمات العدم إلى نور الوجود ، ولكنها متفرقة في المذاهب الدينية ، مختلفة في الآراء والأفكار العصرية ، متفاوتة في أسبابها من التربية والتعليم ، مبتلاة بما ينافي تأسيس القوة من الترف وحب الزينة والتمتع بالشهوات ، وحولها خصوم لدٌّ وأعداء ما من صداقتهم بد ، وإن في هذا القرآن والسنة المحمدية التي شرف الله بها العرب على جميع الأمم ، لعلاجاً لكل تلك الأدواء ، وإن نجاح العرب في هذا العصر بدون هذا العلاج ضرب من المحال .

الملك فيصل العبرة بحياته ووفاته

رحمه الله تعالى

ولد فيصل بن حسين في مكة المكرمة وربي في طفولته بالبادية كما كان يربى شرفاؤها وكبراؤها من قبل الإسلام ، ويعلم هذا جمهور مسلمي الأرض من سيرة المصطفى عليه الصلاة والسلام ، ثم ربي التربية الثانية في مراهقته وصباه في الآستانة عاصمة آل عثمان ، كأمثاله من أولاد كبار شرفاء مكة المرشحين للإمارة ، وكان غرض الدولة التركية من ذلك معروفاً لجميع الذين يعرفون سياستها في الشعب العربي ولا سيما شرفاء مكة ، ومنها أنها كانت تحول دون تعليم نابتتهم في المدارس المدنية الرسمية وغير الرسمية ، وكان آباؤهم يكفونها أمر تعليمهم في المدارس الدينية لعدم شعورهم بالحاجة إليها ، بل كانوا يترفعون عنه لأن أرفع أمر النابغ فيه أن يكون قاضياً أو مفتياً او مدرساً في مسجد ، فكان قلما يتعلم أحد منهم إلا ما يتفق له في منزل أبيه ، ولن يكون تعليماً أصولياً يتقن به علماً أو فناً يكون به أهلاً للنهوض بعمل عظيم ، أو مرجعاً أو مرشداً وإماماً للعاملين ، ولا لما دون ذلك مما يترفعون عنه من قضاء أو إفتاء أو تعليم .

ولقد مرت القرون وتعاقبت الأجال ولم تخرج لنا هذه الأسرة الهاشمية رجلاً عظيماً في علم نافع ولا عمل رافع ، ولا إصلاح ديني ، ولا اجتماعي ولا سياسي ، وما زالت إمارة الحجاز موروثة فيهم من قبل دولة الترك بقرون ، وما كانت تزداد البلاد في عهدهم إلى خراباً ، ولا أهلها إلا تباباً ، ولو قام فيها مصلح عظيم منهم لكان تأثيره في إحياء مجد الإسلام بالعرب ومجد العرب بالإسلام ما يفوق تأثير سبعين مصلحاً من غيرهم ، لما لهم من المكانة الموروثة في أمتهم ، وإن في سيرة فيصل لمثلاً لهم وعبرة لأولي الألباب من أمتهم .

لم يكن لفيصل قبل الحرب العامة مزية في أسرته ولا قومه تلهج بها الألسنة ، أو تجري بذكرها الأقلام ، أو تشير بها إليه الأكف أو تشخص إليه الأبصار ، إلا ما بلغني من خبر شجاعته وأن أخاه عبد الله فاخر بعض الشجعان وهدده مرة فقال : تراني أنا راعي الهدلة «الهدلة لقب فرس من جيادهم يفخرون بها» تراني أنا أخو فيصل .

وكان من تأثير تربية الآستانة في نفسه أن سياسته كانت تركية محضاً فلم يكن يفكر في أن لأمته العربية وجوداً يجب أن يعنى به . ولقد سمعت من لسانه في أول حديث دار بيني وبينه في بيروت (في 14 جمادى الأولى سنة 1338 - 4 فبراير سنة 1920) أنه كان يرى الخير لوالده وأهل بيته بل لأمته في الإخلاص لدولة الترك ودوام الانتفاع أو قال الترقي بهم ، وأنه إنما تحول عن هذه السياسة لما جاء الشام قبيل الحرب وبعدها ورأى قومه كلهم على خلاف رأيه ، وعلى حد قول الشاعر

وهل أنا إلا من غـــزية إن غـــوت

غـــويت وإن ترشـــد غـــزية أرشـــد

وأنه يومئذ اتفق مع إخواننا في الشام على العمل للقضية العربية وانتظم في جمعيتهم السرية ، ثم كان من عمله في الثورة العربية التي أعلنها والده ما كان به أظهر رجالها ، وحارب الترك مع الإنكليز حرباً كسبته وكسبت العرب ثناء رسمياً له قيمة سياسية عظيمة . ودخل دمشق عقب انسحاب الترك منها دخول الفاتح الظافر ، وسافر بعد ذلك إلى أوربة وشهد مؤتمر الصلح الأكبر ، ودخل في إثر ذلك أبواب السياسة ، ثم بايعته الأمة السورية وجعلته ملكها ، ثم نادت بسقوطه وتحدثت بالهجوم والدمور عليه للفتك به ، فوضع الحرس الحجازي المسلح على بابه ، إذ أذيع فيها قبوله لإنذار الجنرال غورو المخزي ، وزاد السخط عليه بدخوله دمشق في الليلة التي دخلها الجيش الفرنسي محتلاً لها ، مؤملاً أن يرضى ببقائه ملكاً فيها ، ولكنه أخرجه منها ليلاً ، ثم كان من أمر توليه ملك العراق ما كان ، وما لقي فيه من مقاومة وما طرأ عليه من أطوار ، ومازال يرسب ويطفو ، ويسف ويسمو ، حتى صار سياسي الأمة العربية المحنك ، وجذيلها المحكك ، وتجلى فيه من عبقرية الذكاء والحزم ، ونباهة الشأن وإدارة الملك ما انتهى به أمره إلى ما علمنا من ثقة به موطدة ، وآمال بسعيه معلقة ، وأحزان عليه صادقة ، وألسنة بإطرائه ناطقة ، دلت على أن المستقبل الذي أمامه كان عظيماً ، وأنه كان قومياً عام ، ولا وطنياً خاصاً .

كان لفيصل كثير من أخلاق الزعامة والرياسة ، وشمائل السياسة والكياسة ، كالسخاء والنجدة ، والحلم الواسع ، والصبر على المكاره ، وقوة الأمل ، والدهاء والمكر ، وكان جذاباً خلاباً ، عذباً سائغاً ، هيناً ليناً ، سهلاً متواضعاً ، سريع الغضبة سريع

الفيئة ، لا ييأس ولا يوئس مخالطه منه ، وكل أولئك من أخلاق الزعامة والرياسة ، وما كان يخلو من بعض الصفات القاطعات لطريقها ، والمانعات لتحقيقها ، منها مبالغته في المواتاة لكل معاشريه والاستجابة لمطالبهم المتناقضة ، ومساعدتهم على الأعمال المتعارضة ، ومنها أنه كان على شدة صراحته يكاد يتعذر على أقرب الناس إليه أن يعرف كنه سريرته ، ويثق بإصراره على رأيه ، وثباته على ما يبديه له منه . هكذا كان عهدي به في دمشق .

ولولا ما أوتي من المرونة والحلم ، والحرية واللطف ، والاعتبار بالحوادث ، وممارسة الكوارث ، وتربية نفسه بها ، والارتياح إلى إعطاء كل ذي حق حقه فيها ، لكان الخوف عليه أكبر من الرجاء فيه ، وبهذا فضل والده وأخاه الذين سبقاه إلى التفكر في القضية العربية ، والخروج على الدولة العثمانية ، من قبل أن يتاح لهما القيام بإعلان الثورة ، ويفتح لهما باب الرجاء في سيادة الأمة .

ليس من مذهب المنار تدوين وقائع التاريخ ، ولا من مشربه سرد المناقب والمثالب ، وإنما صاحبه قرآني يبحث عن العبرة ، ويجليها في قالب الحكمة والموعظة الحسنة ، وقد علم الذين تتبعوا ما كتبت في المسألة العربية ، والواقفون على الكثير من عملي فيها بالمشاركة أو بالمعاشرة ، أنني اشتغلت مع هؤلاء الثلاثة فيها اشتغال تجربة لهم لوجودهم في الميدان لا اشتغال واثق بهم ، وأن التجارب أسفرت عن خيبة الأمل في كل منهم . واعتقاد أنهم مستسلمون للسياسة البريطانية ، التي أعتقد أنها موجهة إلى القضاء الأبدي على الأمة العربية ، وعلى تجديد مجد الإسلام أيضاً .

ثم تجدد لي أمل في إمكان الانتفاع بدهاء الملك فيصل وحنكته ومركزه العظيم في إنعاش سورية التي تتردى في مهاوي الهلكة بشدة شنآن فرنسة للإسلام ، وسياستها المستعجلة المتهورة في ذلك ، التي لا تقبل هوادة ، ولا يتخلل حملاتها العنيفة فترة ولا هدنة ، ولا تخفف شدتها رأفة ولا رحمة .

تجدد عندي هذا الأمل في العام الماضي وأظهرته هذا العام ، فعلمت أنه جدير بأن يكون رجاء لا تمنياً ، وأن تكون دائرته أوسع من سورية ، وأن مودة فيصل للدولة البريطانية لا تحول دون الانتفاع به فيما ينأى بخطرها الذي يخشاه العرب قليلاً ، أو لا يزيده دنواً ، إذ بلغني أنه قد اشتد شغفه بفكرة الوحدة العربية ، وأنه يدرس كل ما

يزيده علماً بالاستعداد لها مما كتب بلغتها وباللغات الغربية كتاريخ الوحدة الجرمانية والوحدة الطليانية .

ثم علمت علماً صحيحاً أنه موطِّن نفسه على السعي لسورية وفلسطين معاً ، متوسلاً بنفوذه عند الدولة الإنكليزية ، وأنه يعتقد أن وجود الملك عبد العزيز بن السعود في الحجاز رحمة للعرب والجزيرة ، وأنه لا يوجد في الأمة العربية من يقدر على حفظ الأمن فيها ودرء الفتن وتقدم العمران مثله أو غيره ، وأنه يجب الاتفاق والتعاون معه ، على أنه كان يرى مع هذا أنه لا يرجى أن يكون لهذا الرجل الفذ الوحيد في مواهبه من يستطيع من ولده أو غيرهم أن يضطلع هو به ، وقصارى هذه الآراء والأفكار أنه يجب أن يكون هو قطب الرحى للأمة العربية والمؤسس لوحدتها .

الأمير عبد الله

ولعل أخاه الأمير عبد الله لو ابتلى بمثل ما مارسه من خطوب ، تدافعه ما أشرنا إليه من طفو ورسوب ، لمحصت ما في صدره من الشغف بلقب الملك وعظمته الباطلة ، ولو كان هبة تستخدمه بها دولة العدو الغاصبة ، وسكنت بعض ما في قلبه على ابن السعود من الضغن والحفيظة ، ولكن كان من سوء حظه وحظ أمته أن تأمر على بدوٍ جاهلين ، وإن كانوا مسلحين ، وحضرٍ أكثرهم متملقون مسترزقون ، والمجاهدون منهم قليلون مستضعفون ، فلم يلق منهم ما لقي فيصل في الشام ثم في العراق من معارضة ومناهضة ، ومشادة ومحادة ، كانت خيراً له من المواتاة والموادة ، وإنني أبسط ما بلوته بنفسي من خبر الأخوين من مبتدئه إلى منتهاه بالإيجاز .

عرفت الشريف عبد الله في الآستانة سنة 1328 (الموافقة سنة 1910 م) وكان عبيد الله أفندي مبعوث آيدين وصاحب جريدة العرب الخادعة يطعن في والده الشريف حسين أمير مكة المكرمة طعناً مسموماً نافذاً ، ولم يدافع عنه أحد من أبناء الأمة العربية ، وكان مع هذا أطراني في جريدته إطراء ظاهراً وسماني مجدداً ، ثم لما شعر بنجاح مشروع الدعوة والإرشاد الذي دعوت إليه الدولةَ الاتحادية قلب لي ظهر المجن ، واتهمني بالتفريق بين الترك والعرب ، فقامت عليه قيامة الجرائد العربية في

سورية ومصر والمهاجر السورية وفي الآستانة نفسها أيضاً ، فافترصت هذا وقلت للشريف عبد الله : إنني أريد أن أسر إليك حديثاً ، فهشّ لي وأقبل علي ، فقلت له ألا ترى أن هذا التركي المتعصب البذيء يطعن في والدك وهو سيد العرب فلا يلقمه أحد منهم حجراً ، حتى إذا ما قال فيّ كلمة طعن ، مع كلام كثير في الثناء والمدح ، فُوِّقت إليه السهام ، وسددت إلى صدره ألسنة الأقلام ، وأنا دون والدك مقاماً ومنصباً ، فلماذا؟

أليس إخواني العرب يرون أنني أعنى بقومهم ، وأبذل بعض الخدمة لهم؟ وأنهم لا يرون لأحد منكم لقومه عملاً ، ولا يسمعون منكم في مصلحتهم قولاً؟ قال : نعم وإني لأشكر لك مصارحتي بهذه الحرية ، وبهذا فتح باب الكلام بينا في المسألة العربية ، ودعاني إلى طعامه في دارهم في محلة (بيوكدره) على البوسفور وامتدت المودة .

ولما زار مصر سنة 1330 ونزل ضيفاً على الخديوي في قصر عابدين هو وأخوه فيصل زرته وأطلعته على قانون (الجامعة العربية) فابتهج به ورغب الانتظام في سلك الجمعية ، فحلّفتُه يمينها الغليظة الغموس ، وأخذت عليه ميثاقها الشديد ، وأطلعني على ما بعثته به حكومة الدولة إلى والده ، وهو قتال السيد محمد الإدريسي ، فكاشفته برأيي في ضرره فوافقني عليه ، وعاهدني على بذل جهده في إقناع والده به .

ولما عزمت الدولة العثمانية على صِلِيّ نار الحرب مع ألمانيا حسبت للحجاز وسائر الدول العربية حساباً ، وأهم ما يهمها من البلاد العربية الحجاز لأنه عنوان منصب الخلافة الذي كانوا يظنون أنهم يهيجون به العالم الإسلامي على الإنكليز وفرنسة ، فطلبوا من الشريف حسين أن يرسل ولده الشريف عبد الله إلى الآستانة لأجل التحدث معه في أمر مهم ، وكان الشريف عبد الله بمكة المكرمة لتعطيل مجلس المبعوثان وهو مبعوث الحجاز فيه عطلة الصيف ، فبادر والده إلى إرساله فجاء مصر ونزل ضيفاً على قصر عابدين كعادته ، وكانت المودة قد رسخت بيني وبينه فزرته في عابدين ضحوة يوم الجمعة 17 شعبان سنة 1332 الموافق 10 يوليو (تموز) سنة 1914 وكتبت عقب الزيارة في مذكرتي ما نصه :

زرت الشريف عبد الله ضحوة اليوم بقصر عابدين وتكلمنا بالحرية التامة في شؤون الحجاز الأخيرة فذكرت له أموراً ما كان يظن أنني أعرفها كالتحدث في مجلس الوالي وهيب بك باغتيال والده أمير مكة . وكإرسال والده كتاباً إلى الإدريسي وغير ذلك ، وقلت له : إنه بلغني عن والده أنه غير راض عن المنار بتأثير وساوس الدجال النبهاني ، فكذب ذلك بالتأكيد الشديد وقال : هذا كلام الذين يحبون التفريق بيننا ، وأنه رأى والده يقرأ للناس ما كتبه المنار في مسألة بيع الشفاعة «بيع الشفاعة مشروع اخترعه لجمعية الاتحاد والترقي الشيخ عبد العزيز شاويش خلاصته وضع سجلات في المسجد النبوي الشريف يكتب فيها اسم كل من يتبرع بمبلغ من المال لأجل نيل شفاعة النبي (صلى الله عليه وسلم) ويعطى بذلك صكاً ، فقررت الدولة تنفيذه على أن يُنفق منه على تأسيس مدرسة كلية لتعليم المسلمين تعليماً دينيناً سياسياً لمصلحة الدولة والجمعية» ،على أن خبر انحرافه بلغني من أحد أصدقاء والده «كان لنا في الحجاز والآستانة وغيرهما إخوان يخبروننا بكل ما يهمنا في خدمة الأمة ومنه أن الشريف حسيناً مخالف لمشرب المنار السلفي» .

وكتبت في اليوم التالي (السبت 18 شعبان) دخل الشريف في الجامعة العربية وحلف اليمين الكبرى كتبتها له بورقة وقرأها على سبيل الإنشاء كما قال :

أقول : في تفسير هذه المذكرة بالإجمال إنني على اشتغالي الأساسي بالإصلاح الإسلامي العام كنت أسعى مع بعض أحرار العثمانيين من الترك وغيرهم لإصلاح الدولة لعثمانية ، ولما أعلن فيها الدستور تجدد الرجاء لجميع الشعوب العثمانية بحياتها ونهضتها بالدولة وفي الدولة ، فكنت أبث في الشعب العربي العثماني أنه يجب أن يوجه استعداده ليكون عضواً رئيسياً كالترك في الدولة ينهض بها وتنهض به ، ثم ذهبت إلى الآستانة للسعي لدى الدولة فيما تحيا به وبحياة الإسلام ، وتتحد بالعرب أتم الاتحاد ، وبعد معالجة العمل سنةً كاملةً اقتنعت بأن هذه الدولة غير مستعدة للبقاء ، وأن انحلالها بأيدي رجالها من أعضاء جمعية الاتحاد والترقي ضربة لازب ، وأن العرب إذا لم يؤسسوا بأنفسهم لأنفسهم بناء للاستقلال القومي فلا بد من سقوطهم بسقوطها إن لم يسقطوا قبلها بسعيها .

وقد علمت من الآستانة أن زعماء الترك من الاتحاديين وغيرهم معتزمون تتريك

جميع العناصر الداخلة في محيط الدولة بالقوة القاهرة ، وبدؤوا بقتال الألبانيين لمنعهم من استعمال لغتهم ، ويثنُّون بالكرد ويثلثون بالأرمن ، وكذلك يفعلون بسورية والعراق من الولايات العربية ، إلا أن يروا الأربح لهم بيع العراق لإنكلترة وسورية لفرنسة ، وفلسطين لليهود ، كما قرروا بيع طرابلس الغرب وبرقة لإيطالية ، وذلك بالسماح لكل منهم أن يتملكوا ما شاؤا في هذه الولايات بل الممالك ، ويقووا نفوذهم فيها إلى أن تسمح الفرصة باحتلالها العسكري بدون مقاومة مخسرة ، وأما البلاد المسلحة الحربية بالطبع وهي جزيرة العرب فقد قرروا جعل اليمن ونجد إمارتين مستقلتين في إدارتهما الداخلية تحت سيادة دولة الخلافة ، إلا الحجاز فيظل تحت حكمه المباشر ، وتلغى إمارة الشرفاء منه ، ويجعل في الطائف قوة عسكرية عظيمة كافية للسيطرة على الحجاز وغيره من جزيرة العرب ، لموقعه الحربي في الوسط ، وفيه المباني العسكرية الكافية التي أسسها السلطان عبد الحميد لذلك .

وقد جعلوا وهيب بك والياً للحجاز ليمهد السبيل لذلك لأنه من كبار الضباط الشديدي الشنآن - بغض الاحتقار - للعرب وكان صرَّح في خطاب له في وزارة الحربية بأنه يمكنه اكتساح سورية بستة طوابير تركية والقضاء على كل حركة عربية في البلاد ، وقد ذكرت هذا في إحدى مقالاتي التي أنشأتها في الآستانة إذ كنت فيها تحت عنوان الترك والعرب (تركلر ، عربلر) ونشرت باللغتين .

وقد كنت علمت بنبأ جاءني من الآستانة أن الدولة سترسل وهيب بك والياً إلى الحجاز فذكرت ذلك للمندوب العثماني (القومسير) سلمان بك بابان وكان يهتم هنا بتحسين سمعة الدولة وتحسين علاقتها بالعرب ، وقلت له : أيصح في هذا الوقت أن ترسل الدولة هذا المتهور إلى الحجاز وتجعله والياً لها؟ فقال : جانم ، لا تصدق ، هذه من إشاعات أعداء الدولة!! فتأمل .

جمعية الجامعة العربية وقسمها الأول

وأما جمعية الجامعة العربية التي أسسناها بعد عودتي من الآستانة ، فكان الغرض الأول منها أمرين : (أحدهما) السعي لاتحاد حلفي بين أمراء جزيرة العرب

للاتفاق ومنع الشقاق (والثاني) التعاون على عمران البلاد والدفاع عنها ، والتعاون بين الجمعيات العربية في سورية والعراق وغيرهما . . . وهذا نص القسم الأول الذي كان قبل الحرب إذ كانت الجمعية خاصة بالأمراء والزعماء وكلهم من المسلمين .

(أقسم بالله العظيم القهار ، المنتقم الجبار ، العالم بسري وعلانيتي ، القادر على سلبي كل ما أعطاني من المواهب والقوى ، وبكتاب الله المجيد ، أنني أبذل جهدي وما في وسعي لجمع كلمة العرب ، والتأليف بين أمرائهم ، وتأسيس ملك جديد لهم ، بحسب القواعد التي وضعتها لذلك جمعية الجامعة العربية التي أنتظم في سلكها اليوم ، وأنني أسعى لذلك مع أعضاء هذه الجمعية بمنتهى الصدق والإخلاص ، وأنني لا أبخل في سبيل ذلك بمالي ولا بنفسي ، ولا يلفتني عنه هواي وحظي الشخصي ، ولا حظ أحد من أهلي وولدي ، وأنني أحافظ على مقاصد الجمعية وأسرارها بأشد ما أحافظ به على ديني وشرفي وعرضي ، فلا أفشي لها سراً ، ولا أعارض لها عملاً ، ولا أقول قولاً ، ولا أعمل عملاً يخالف مقاصدها أو يحدث فيها خللاً ، أو يوقع فيها فشلاً ، لعلة من العلل ، ولا لسبب من الأسباب . وأنني أقوم بكل عمل يكلفني إياه مركزها العام من مقاصد هذه الجامعة أو وسائلها بحسب استطاعتي ، عليَّ عهد الله وميثاقه لأبرنَّ بقسمي هذا بلا تأويل ولا عذر ولا كفارة ، وإن حنثتُ بشيء مما تضمَّنه أو غدرتُ أو أفشيتُ سراً ، أو قلتُ أو فعلتُ ما يضر هذه الجامعة أو أحداً من العاملين لها ، أو يخلُّ بشيء من أعمالها أو يخلف شيئاً من مقاصدها ، فعليَّ إثمُ من حَقَّرَ اسمَ الله ، ونبذَ كتابَ الله ، وبرئ من الدين والشرف ، ومن ذمة العرب ، وأستحق انتقام الله ولعنته ولعنة الملائكة والناس أجمعين ، وانتقام الجامعة العربية وكل من يغار على ملته وأمته ، وكنتُ من الخائنين والملعونين إلى يوم الدين ، ولله على ما أقول وكيل وشهيد) .

أقول : هذا القسم هو الذي حلفه الشريف عبد الله ، ولا تزال صورته الخطية محفوظة عندي ، ثم إننا غيرنا هذا القسم بعد الحرب تغييراً قليلاً وعندي صورة منه عليها إمضاء بعض من انتظموا فيها معي ، ثم عدلته بالتشاور مع الأعضاء وطبعته هكذا :

(أقسم بالله القهار أنني أبذل جهدي وما تصل إليه استطاعتي من السعي لجعل بلاد العرب المؤلفة من الجزيرة وفلسطين وسوريا ولبنان وما بين النهرين (دجلة والفرات) والعراق مملكةً عربيةً مستقلةً أتمَّ الاستقلال على قاعدة اللامركزية ، وعلى أن تكون حكومتها شوروية نيابية ، ينتخب أعضاء مجالسها من أهل الحل والعقد الذين هم خواص الأمة ومحل ثقتها في الشؤون العلمية والعملية بمقتضى القوانين التي يقررونها عند العمل – وأنني أقاوم بقدر استطاعتي كل ما ينافي هذا الاستقلال وهذا الشكل من الحكومة أو يضعفه من تدخل الأجانب ونفوذهم ، أو استبداد الحكام ، وفساد أنصار الاستبداد من الجماعات أو الأفراد – وأنني أكون ولياً ونصيراً للساعين والعاملين لهذا المقصد من رجال الجامعة العربية وغيرهم بمنتهى الصدق والإخلاص ، لا يثنيني استقلال بعض هذه البلاد عن ذلك السعي التام لاستقلال سائرها – وإنني لا أفشي لفرد من الأفراد ولا لجماعة من الجماعات العاملة لهذه الغاية سراً ، ولا أعمل عملاً يخل بهذا الغرض والقصد ، أو يضر أحداً من العاملين له أو يعرقل عملاً من أعمالهم له .

فإن حنثتُ في يميني هذه لأي سبب وبأي تأويل فأنا بريء من الشرف والإنسانية ، مستحق للعنة الأبدية ، وأن يسجل علي عار الخيانة وذلها في تاريخ أمتي العربية وفي كل تاريخ ، والله خير الشاهدين) .

بعد هذا سافر الشرف إلى الآستانة وعاد منها إلى مصر فبلغها في 22 رمضان الموافق 13 أغسطس ، وعاد معه أخوه الشريف فيصل فقابلته في قصر عابدين وحده يوم وصوله نهاراً ثم ليلاً ، وأخبرني بخلاصة رحلته ، وأن الدولة راوغت وماطلت في إلغاء ولاية الحجاز وجعلها إمارة فقط كما بلغت والده ، وزعمت أنها أرجأت ذلك إلى ما بُعد الحرب الكبرى ، وعلم أنها عازمة على الانضمام إلى ألمانية في الحرب إلا الصدر الأعظم (الأمير سعيد حليم) وتكلمنا في مسألة الخطر على الدولة من دخول الحرب ، وما يجب على الحجاز لوقايته من الخطر إذا هي فعلت . وأخبرني أن جميع قبائل العرب قد خضعت لوالده وعاهدته بعد حادثة وهيب بك الوالي ومحاربة

الإدريسي حتى قبيلة حرب العظيمة ، ولكنه لم يخاطب أحداً من الأعراب المحافظين على سكة الحديد الحجازية لأنهم ينتفعون من الدولة ولا شأن لهم .

وجملة القول أنه ازداد اقتناعاً بوجوب العمل بمقتضى مقاصد الجامعة العربية وبأن والده أخطأ بمحاربة الإدريسي بإغراء الدولة ، وكان هو أخبرني من قبل أن الدولة كلفته ذلك ، أخبرني قبل وقوع الحرب مُنصرفَهُ من الآستانة ، فحذرته من الوقوع في هذه الورطة ، فوعدني بأن يبلغ والده ذلك ويجتهد في إقناعه ، وقد فعل كما أخبرني ولكن والده لم يقبل منه ، والسبب الصحيح لقتال الإدريسي أن الشريف حسيناً كان يريد الاستيلاء على عسير وضمها إلى الحجاز ، ويعلم أنه لا يقدر على الإدريسي بقو الحجاز التي لا يقدر على القتال بها ، فافترص سخط الدولة عليه لإسقاط إمارته بقوتها النظامية مع القوة الحجازية البدوية . وعذرُ ولدِه عبد الله وغيرِه من أولاده استبدادُهُ وشدة عناده معهم كغيرهم ، فكان هذا أكبر مساويه المحبطة لمحاسنه رحمه الله .

رجع عبد الله وفيصل إلى الحجاز ، والأول مقتنع بخطة جمعية الجامعة العربية ، ومنها أن يستعد العرب لاستقلالهم واتقاء سقوطهم بسقوط الدولة العثمانية الذي أمسى في نظرها ضربة لازب ، واتقاء السعي لإسقاطها بثورة لهم عليها ، وكنت أقدر له أمداً لا ينقص عن ثلاثين سنة ، وفيصل مقتنع بوجوب بقاء الارتباط بالترك والتابعية للدولة العثمانية كما أخبرني هو نفسه بعد ، وهذا هو السبب لعدم جمع عبد الله بيني وبينه في مصر ، كما أننا لم نجتمع في الآستانة .

عاد الشريفان إلى والدهما في مكة المكرمة وعبد الله أقرب إلى رأي أبيه من فيصل ، فقد كانا يكرهان الترك وزادتهما سياسة جمعية الاتحاد والترقي كرهاً لها بسوء سيرة وهيب بك في مكة ، وأما الحضر من أهل الحجاز فكانوا على رأي فيصل كما علمت ذلك باختباري الشخصي في أثناء حجي في عهد الثورة ، ولأجل ما كان من الخلاف بين الأخوين في الرأي لم يجمعني الشريف عبد الله بأخيه في مصر ، ولم يطلعه على نبأ جمعية الجامعة العربية .

عادا في آخر رمضان أو في أيام عيد الفطر ، وما جاء عيد النحر إلا وقد أعلن فيه سقوط الدولة في نار الحرب ، وما جاء عيد النحر التالي سنة 1323 إلا وأنا أطوف مع

الشريف حسين طواف الإفاضة في البيت الحرام ، ثم أخطب بين يديه في منى تلك الخطبة السياسية الحكيمة على أساس الجامعة العربية ، وهو يصدقني في كل ما أقول ، ولم يلبث أن قلب الإنكليز رأيه بعد عودتي إلى مصر كما فصلته في المنار ، ولم ألق فيصلاً في الحجاز أيضاً ، وسأذكر في الفصل التالي خبر تلاقينا في بيروت ثم دمشق بعد بيان وجيز للفرق بينه وبين أخيه عبد الله في السياسية مع الإنكليز وأذكر حنث الأمير عبد الله بيمينه للجامعة العربية .

الفرق العظيم بين الشريف عبد الله والشريف فيصل في القضية العربية يتجلى أكمل التجلي بما كان بين مبدإ كل منهما وما بعده من التباين ، فالأول كان السابق إلى التفكر فالكلام فالعمل في القضية وعدواة الترك ، والثاني كان يرى أن الخير لوالده ولبيته ولوطنه (الحجاز) بالذات ، ولأمته بقاء الارتباط بالترك ودولتهم ، ثم كان كل منهما عاملاً في الثورة العربية التي تولى والدهما زعامتها ، ولكنَّ عبد الله قاتل العرب بقتال النجديين في (طربة) فكان عمله هذا أول نكث لعهد الجامعة العربية وحنث بيمينها انتهى بما علمه كل الناس من الشؤم والشر عليه وعلى والده الذي عتله إليه ، وفيصلاً قاتل الترك أولاً ووادَّهم آخراً ، وأبرم عهد الاتفاق هو والملك ابن السعود واعترف بدولته الحجازية النجدية عملاً بعهد جمعية الفتاة العربية التي كان المراد منها أن تكون أحد أركان الجامعة العربية ، وظل مرتبطاً بها وبحزبها إلى آخر أيام حياته حيث كانت هي المنفردة بالعمل في منطقتها ، على مشاقة ومشادة تعددت بينه وبينهم في دمشق بعد توليتهم إياه ملكاً عليها .

ومن مظاهر الفرق بينهما أن هؤلاء العاملين هم الذين سعوا لاستقدام الشريف عبد الله إلى بقعة شرق الأردن بعد احتلال الجنرال غورو بجيشه الفرنسي لدمشق وخروج فيصل منها لأن هذه البقعة ظلت مستقلة غير تابعة لفلسطين ولا لسورية ، وأرادوا أن يجعلوها مركزاً للعمل ، ولم يلبث أن ناوأهم وجعلها بسعيه تابعة للانتداب الإنكليزي في فلسطين ، وجعل نفوذ الإنكليز وحقوق ملكهم فيها أقوى مما هي في كل الممتلكات والمستعمرات البريطانية وكذا الجزائر الإنكليزية نفسها ، وألحق بها بمساعدة أخيه الشريف علي الذي سمِّي ملكاً للحجاز وهو محصور في جدة ، منطقةَ العقبة ومعان الحجازية التي هي أمنع المواقع البحرية البرية في بلاد العرب كلها .

وأما فيصل فجُعل ملكاً على العراق في ظل الانتداب البريطاني ، وقد فتح الإنكليز العراق بالسيف والنار ، فآل الأمر بسعيه وحسن سياسته إلى استقلاله التام ، فما أعظم الفرق بين الشقيقين في النسب ، المشاقين في الرأي والعقل والخلق والعمل .

لقائي الأول لفيصل

أتيح لي في أوائل سنة 1338 هـ الموافق لخريف سنة 1919م أن أغادر مصر وهي في عنفوان ثورتها الوطنية إلى سورية وهي مضطربة فيما ابتليت به من احتلال فرنسة لسواحلها وإنكلترة لداخلها ، ووجود حكومة عربية عسكرية في دمشق وما ألحق بها ، مرتبطة بالاحتلال الإنكليزي فيها ، وما أعطيت جواز السفر لهذه الزيارة إلا بعد سعي طويل لدى السلطة العسكرية البريطانية هنا ، وأخذ العهود والمواثيق الخطية عليّ بأمور منها ألا أخطب خطباً ولا أعقد اجتماعات سياسية فيها .

وبينما كنت في بيروت جاءت الأخبار من أوربة بأن الأمير فيصلاً سيجيء من أوربة قريباً فعقد وجهاء بيروت الاجتماع بعد الاجتماع للاتفاق على ما يعملون لاستقباله والحفاوة به ، وكنت أُدعَى إلى كل ذلك وأحضره . وقد اضطررت في أثناء ذلك السفر إلى طرابلس لعمل خاص بوقف مسجدنا وما لي فيه من الحق المالي ، فسافرت قبل الظهر من يوم السبت 19 من ربيع الآخر الموافق 10 من يناير سنة 1920 وأنبأتنا البرقيات الخاصة يوم الثلاثاء 13 من يناير بأن الأمير يصل إلى بيروت صباح غد ، فعدتُ إلى بيروت مساء ذلك اليوم والمطر شديد متصل مع جماعة من الوجهاء ، في مقدمتهم أوجه الزعماء ، سليل الإفتاء ، سماحة عبد الحميد أفندي كرامي مفتي طرابلس الشام ، الذي أخرجته السلطة الفرنسية بعد ذلك من منصبه عقاباً له على وطنيته ، والتاجر الوطني الغيور عارف أفندي النعماني ، وقد ارتطمت بنا سيارته في الوحل مراراً ، أذكر هذا ولا أنساه على كثرة ما أنسى الأمور العادية وإن كانت شاقة أو سارة ولا أكتب ما أذكره منها ، وقد قطعنا المسافة في ست ساعات وكانت تقطع في ثلاث ، لأن مطاط عجلاتها تقطع وأصلح أربع مرات .

وصل الأمير فيصل إلى بيروت في ضحوة يوم الأربعاء على بارجة فرنسية ، يصحبه ضابط فرنسي يلازمه ، واستقبله على رصيف مرفأ بيروت رئيس أركان الحرب الجنرال غورو المندوب السامي لفرنسة مع ضباطه وفصيلة من العسكر الفرنسي والجزائري ، وقابلته وفود الوطنيين يتقدمهم أعضاء لجنة الاحتفال البيروتية ، وقابلته أنا مع وفد طرابلس في دار الاعتماد العربية وكان يشغلها من قبل حكومة سورية العربية الضاب الشهير يوسف بك العظمة الذي استحكمت المودة بيني وبينه مدة مكثي في بيروت .

وعدت إلى دار الاعتماد في اليوم التالي (الخميس) لأجل أن أقابل الأمير مقابلة خاصة ، فعلمت أنه ذهب إلى زيارة الجنرال غورو ، فقلت ليوسف بك لعظمة رحمه الله : إنني لست من الرجال الذين يرغبون في التشريفات والظهور ، وإنما أنا رجل بحث وعلم وعمل ، فأرجو أن تأخذ لي موعداً من الأمير بلقاء خاص ، فعهد إليَّ بأن أعود الساعة الحادية عشرة ، فعدت وعاد فقابل بعض الوفود المنتظرة ثم خلوت به فأثنى أجمل الثناء ، وأظهر الارتياح التام لهذا اللقاء الذي قال إنه كان يتمناه ، وكاشفني بما جاء لأجله وبأنه سيعود إلى أوروبة عاجلاً بالتفويض الذي يحمله من البلاد . . ودعاني إلى الغداء معه فتغديت وتغدى معنا الضابطان الفرنسيان (كوس وتولا) اللذان لم يفارقاه مدة إقامته في الشام أميراً فملكاً مبايعاً إلى أن فارقها بعد احتلال غورو لدمشق .

ودارت بيني وبينه محاورة طويلة فيما جاء من أوربة لاجله ، ثم ذهب إلى دمشق على أن يعود إلى بيروت بعد أسبوع كما قدر .

ثم عاد إلى بيروت في 13 من جمادى الأولى - 3 من فبراير (شباط) فزرتُه في اليوم التالي وخلوتُ به ساعة كاملة قبل الظهر ، وكان المرحوم يوسف بك العظمة بلغه عني ما ذكرته من قبل ؛ وهو أنني لم أجيء لما يجيء له غيري من المظاهرة وما يسمونه مقابلات التشريفات ، بل للبحث في المصلحة العربية . وكان أول ما بدأته به أنني أريد معرفة خطته في العمل لهذه الأمة ، فإذا اتفقنا في الرأي عاونته واشتغلت معه على قدر ضعفي ، وإلا كنت مضطراً إلى مقاومته وإن لم أكن أميراً . فإنني ناهضت السياسة الحميدية ولم أكن أميراً ، ثم ناهضت السياسة الاتحادية التركية

وهي أدهى وأمر ، وأشد وأضر ، ولم أكن أميراً ، فشكر لي هذه الصراحة ودعاني إلى الذهاب معه إلى دمشق ، فاعتذرت بأن لي عملاً خاصاً في بيروت وطرابلس لا بد لي من إتمامه . ووعدته بأن ألحق به بعده ، فألحَّ علي بأن أذهب معه بحجة أن خدمة الوطن مقدمة على كل شيء ، فقلت : لا تنافي ولا تعارض بين الأمرين ، وإنني سألحق بك بعد يوم أو يومين : قال : أتعدني بذلك؟ قلت : نعم .

ثم دار الحديث بيننا بالحرية التامة ، وكان ذا شغبٍ فدعاني إلى العشاء معه في ذلك اليوم لأجل أن نخلو ونتم الحديث في الليل فأجبت ، وخلوت به إلى الساعة 10 والدقيقة 10 مساء ، وكان مما قاله أن أخاه عبد الله لم يخبره بما دار بينه وبيني في قصر عابدين بمصر لأنه كان يعلم أن سياسته تركية بمعنى أنه كان يرى أن الأولى للعرب دوام الاتفاق مع الترك والارتباط بهم ، ولكنه تحول عن هذه السياسة لما جاء الشام قبل الحرب وبعدها ورأى قومه كلهم على خلاف هذا الرأي على حد قول الشاعر :

وهل أنا إلا من غــــزيَّةَ إن غــــوت

غــويت وإن ترشــد غــزية أرشــدِ

ثم قال : إن عبد الله كان يريد تنفيذ مسألة اتفاق أمراء الجزيرة الذي اقترحته عليه (أي بمقتضى قاعدة جمعية الجامعة العربية) حتى مع ابن السعود عدوهم ولكنه هو كان معارضاً له في ذلك لاعتقاده أن ابن السعود يريد الاستيلاء على الحجاز ، لا يصده عن ذلك عهد ولا اتفاق ، وذكر ملخص عدواة ابن السعود لشرفاء مكة ، فقلت له : لو أطلعكم الشريف عبد الله على تفصيل اقتراحي لاكتفى معارضتكم ، فإنه لا يكل تنفيذ الاتفاق الحلفي إلى وفاء كل أمير واختياره بل يجعله عاجزاً عن الغدر .

ثم بينت له موضوع الحلف وملخص نظامه ، وضرورة عقده ، وضرر عداوة شرفاء الحجاز لابن السعود ، لأن عرب الحجاز أضعف العرب وأشدهم احتياجاً إلى الاتفاق الذي غايته جعل أمراء الحجاز رأس العرب ، لأن مجلس الحلف العام لا يكون إلا في مكة ، وسيكون أميرها هو الرئيس له بالطبع .

فقال حينئذ : إنه مستعد لإقناع والده بذلك وضامن له إذا وجد من ينفذه ويضمن إرضاء ابن السعود ، وههنا تكلمنا في علاقتهم بالإنكليز الآن وفي زمن الحرب ، فإذا هو لا يزال يرجو وفاءهم بما عاهدوه عليه (هكذا كتبت في مذكرتي

عقب الجلسة أي عاهدوه هو) وخروجهم من فلسطين والعراق لتأسيس دولة عربية متحدة ، ورضاهم بالمنافع الاقتصادية التي لا تنافي الاستقلال ، على أن كلامه متناقض فإنه اعترف قبل ذلك بأنه كان مغشوشاً بالإنكليز ، وأن والده هو الذي غشه ، وأنه قد عرف بعد الاختبار كيد الإنكليز للعرب وللإسلام - أو قال عدوانهم - وأن والده أيضا قد رجع عن رأيه في إخلاصهم (وسأذكر في النبذة التالية ما دار بيننا في دمشق) .

أحاديثنا في دمشق

ذكرت أنني وعدت الأمير فيصلاً في بيروت أن ألحق به إلى الشام بعد سفره بيوم أو يومين ، وقد وفيت بوعدي وتركت عملي في بيروت وطرابلس الخاص بمسألة حقي في الوقف السلطاني الذي آل إليّ ببراءة سلطانية ، وكان رجال السلطة الفرنسية مساعدين لي على أخذه فلما مكثت في الشام مع عدوهم فيصل انقلبوا علي .

سافرت من بيروت يوم الأحد 18 جمادى الأولى سنة 1328 - 8 فبراير (شباط) سنة 1920 تحرك بنا القطار من محطتها في (س 7 ق 20) صباحاً ووصل على الشام (س 4 ق 20) مساءً فأدركت صلاتي الظهر والعصر مجموعتين ، وزارني في الليل صديقي الأستاذ الشيخ كامل قصاب وخالد أفندي الحكيم وقالا : إن الجمعية الوطنية تقوم نهار غد بمظاهرة كبيرة في المزة (من ضواحي المدينة) يحضرها الأمير وإنهما سيذهبان بي إلى المزة قبل الظهر ونبقى فيها إلى المساء . والشيخ كامل هو الرئيس المحرك للجمعية ، وكانت صلته وصلة صديقيه خالد أفندي الحكيم والدكتور عبد الرحمن الشهبندر بالأمير غير ودية ، أذكر هذا لأن له شأنا بسيرة الأمير فالملك فيصل رحمه الله تعالى من أولها إلى آخرها . ومنه سعيي للتقريب بينهما .

وقد بدأت الصلة بيني وبينه من ضحوة اليوم الأول لوجودي في الشام إلى ما قبل نصف الليلة التي خرج منها بعد الاحتلال الفرنسي ، فأنا أعتمد فيما أثبته في هذه الفصول على مذكراتي التي كنت أكتبها بعد الجلسات معه .

يوم الاثنين 19 جمادى الأولى 9 فبراير (شباط)

زرته ضحوة هذا اليوم وتكلمنا خلوةً في المسائل الثلاث : السورية والعربية والإسلامية كلاماً إجمالياً وهو مرتاح لذلك ، وقال : إن الأخيرة (أي الإسلامية) لم يسبق له تفكر فيها . وأما الثانية فكان يريد أن يسعى لجمع كلمة زعماء العرب واتفاقهم ما عدا ابن سعود لأنه عدوهم ، وإذ كنت أرى أن اتفاقه معهم ممكن فهو يرى رأيي في الاتفاق كما تكلمنا في بيروت . قال : ولكنني متحير في اختيار الرجل لذي يمكن جمع كلمة العرب على تمثيله للوحدة العربية .

هذا ما كتبته وأزيد عليه أنني قلت له : إن الأمة غير مستعدة للخضوع لزعيم واحد يجمع كلمتها ، وإنني فكرت في هذه المسألة عدة سنين فانتهى بي التفكير إلى وضع نظام الجامعة العربية التي عرف خبرها مما فصلته له في بيروت – أي نظام الحلف بين أمراء الجزيرة وتأييد الجمعيات السياسية في سورية والعراق لذلك – فإن من أصول هذا الحلف أن يكون له مجلس حلفي يجتمع مرة في كل سنة للنظر في المصالح المشتركة ، وأن يكون هو الذي يقرر كل ما يعززه ، ويختلف ذلك باختلاف الزمان والأحوال ، والمعقول أن يكون المكان الذي يختار لهذا المجلس في الغالب هو الحجاز ، فهو يمهد السبيل لاتفاقهم على جعل الشريف أمير مكة المكرمة هو الرئيس المؤقت فالدائم له . وإننا على هذا لم نبلغ والده خبره ولا دعوناه إلا بعد أن بلغناه لجميع أمراء الجزيرة وقبولهم إياه قبولاً مبدئياً مقيداً لا مطلقاً ، ثم بلغته لأخيه الشريف عبد الله فبلغه والده كما تقدم . وقد أظهر لي في مكة قبوله وتأجيل تنفيذه إلى أن يظهر على الترك ويخرجهم من الحجاز ، ولكنه صرح لبعض من يأمن لهم بأنه يوجد اليوم شيء اسمه إمام اليمن وشيء اسمه ابن سعود ، ولا يوجد غداً شيء من هذه الأسماء ، بل تكون البلاد العربية كلها مملكة واحدة خاضعة لملك واحد ، وقد أفشى لي قوله هذا من سمعه منه لأنه كان ممن قَبِلْتُه في الجمعية . وخلاصة ما قلته له أن جمع الكلمة قد يرجى بنظام يتبع ، لا برئيس يطاع .

وبعد فراق الأمير ذهبت إلى المزة مع بعض أعضاء الجمعية الوطنية وكانت الريح شديدة العصف والبرد قارساً والجو تتكاثف فيه السحب ، ولم يلبث الجو أن بدأ ينثر

درر الثلج أو يبث قطنه المنفوش ، فكان هذا سبباً لإحجام الألوف من الأهالي عن الذهاب إلى المزة لحضور المظاهرة ، على أنه قد وافاها كثيرون ، ولا سيما رجال الحكومة والأغنياء أصحاب المركبات المختلفة ، وكانت الخيام مصفوفة في ذلك الميدان الفسيح كالمعسكرات وكلها مفروشة بالطنافس العجمية ، فأوى إليها الناس .

وأما الغرض من هذه المظاهرة فهو أن يرى الأمير فيصل أن الأمة كلها متفقة على طلب الاستقلال المطلق من كل قيد ، لا ترضى بما دونه بديلاً ، وكان الشيخ كامل وأركان الجمعية علموا أن الأمير جاء من أوربة متفقاً مع فرنسة على نوع من الوصاية . وقد كنت كتبت إليه من بيروت ما فهمته من حديث فيصل في هذه المسألة وأنه يعتقد أنه يقدر أن يأخذ من زعماء البلاد تفويضاً الخ .

وبعد أن تم الاجتماع حضر الأمير فيصل ومعه أخوه الأمير زيد ورجال حكومته والأمير نوري شعلان شيخ عرب الرولة ، وكان يكثر التردد عليه ، والأمير محمود الفاغور ، وألقى الأستاذ الشيخ كامل خطبته الحماسية الضافية الذيول ، المتدفقة السيول ، فأجابه الأمير عنها بأنه يؤيد الأمة في طلب الاستقلال المطلق ، وأنه لا يُنال إلا بجيش قوي منظم ، وهذا يتضمن الرد الخفي على الخطبة من غير أن يؤخذ على الأمير شيءٌ تفهم منه الأمة أنه يريد أو يرضى دون ما تريده أو ترضاه .

ثم وضعت موائد الطعام فأكل الأمير والمدعون ولم تقبل نفسي أن آكل شيئاً بل خفت ضرر البرد فعدت إلى البلد (دمشق) مع علي رضا باشا الركابي الحاكم العام في سيارته .

يوم الثلاثاء 20 جمادى الأولى 10 فبراير

كان الأمير فيصل دعاني في أمس الاثنين إلى الغداء معه اليوم لأجل أن نتكلم بعد الغداء في سياسته التي افتتحنا الحديث فيها ، ثم عرض له بعد الغداء شغل فأخر الحديث إلى الليل فسهرت معه وتكلمنا أولاً بحضور أخيه الأمير زيد ، وقد بسطت لهما ما دار بيني وبين والدهما في مكة ، وأهمه إقناعه بترك مسألة الخلافة (كما نشرتها في المنار من قبل ولا حاجة إليها هنا)

ثم تكلمنا في أمور أهمها ثلاثة : (أحدهما) اقتراحي عليه أن يسعى لجلب عزيز علي بك المصري من أسبانية فوافقني على ذلك (والثانية) اختيار من نرسله إلى ابن السعود بعد أن اتفقنا على أن يكتب إليه كل منا كتاباً (والثالث) مسألة ارتيابه في بعض زعماء الحركة العربية وارتيابهم فيه وما في ذلك من الضرر . وكنت عرفت هذا من قبل عودته من أوربة وتلاقينا في بيروت ، وازددت به علماً في دمشق ، ولما رأيت ما أوتيه من اللين والمرونة والاقتناع بالمعقول واغتباطه بأن أعمل معه بالتعاون حاولت أن أوفق بينه وبينهم كما مهدت لهذا في بيروت . فصرحت له في هذه الجلسة بأن الشيخ كاملاً والدكتور شهبندر وخالد أفندي الحكيم من المخلصين في الخدمة الوطنية ويجب أن يكونوا موضع ثقته ، ولم أكتم عنه ما ينتقد على الثلاثة (هذا ما كتبته عقب الجلسة ولكني نسيت الآن ما قلته له في هذا) .

ومما قاله هو لي : أنه يود أن أبقى في الشام للعمل معه وأن أكون الحجر الأساسي في المسألتين الإسلامية والعربية لا العربية فحسب ، وذلك أنني أقنعته بأن هاتين المسألتين متلازمتان فلا يمكن تأسيس الوحدة العربية وإعادة مجد العرب وحضارتهم إلا بالإسلام ولا يمكن إعادة هداية الإسلام وإصلاحه للبشر إلا باللغة العربية والأمة العربية .

وكلمني في نقل إدارة المنار والأسرة من مصر إلى الشام . فقلت له إن هذا ليس من المصلحة الآن ، وهو يقتضي نفقة كبيرة وإضاعة مركز عظيم ثابت ، إلى مركز مضطربٍ حاضرُه ، مجهولٍ مستقبلُه ، ولكني أترك الإدارة والدار والأعمال الخاصة والآل في مصر وأبقى الآن في دمشق إلى أن يتم ما اعتزمنا ثم نرى ما تقتضيه المصلحة بعد ، وأعني بما اعتزمناه جمع المؤتمر العام وإعلان الاستقلال التام ، وكنت أول من اقترح هذا على خواص إخواننا من حزب الاستقلال .

يوم الأربعاء 12 جمادى الأولى 11 فبراير

تفارقنا أمس على أن نعود قبل ظهر اليوم (الأربعاء) للمضي في الحديث الذي ابتدأناه ، وقد عدت في ضحوة النهار وزاره وأنا معه كاتب أميركاني يراسل بعض

الجرائد وسأله عدة أسئلة أحسن الجواب عنها .

ثم شرعنا في الحوار وكان الأمير زيد حاضراً فسألني عن رأي في المذاهب الإسلامية ، فبينت له معنى كلمة المذهب وحكم التقليد والاجتهاد ، وما يدخل فيه وما لا يجوز فيه . سألني هل يمكن إزالة الخلاف الديني وتوحيد المذاهب؟ قلت : إن الخلاف طبيعي لا يمكن إزالته ، وإنما الواجب إزالة ضرره ، ولا سيما التعادي في التفرق الذي ذمه القرآن ونهى عنه وتوعد عليه ، وذكرتُ له الآيات فيه ، وبينتُ له طريقة تلافيه ، وسهولته إذا وجدت حكومة رشيدة تنفذ رأي المصلحين فيه .إعلان استقلال سوريا .

كان جل اشتغالنا في دمشق وأهمه في الأسبوع الأول من جمادى الآخرة أو الأسبوع الأخير من فبراير (شباط) سنة 1920 محصوراً في الاستعداد لإعلان استقلال سوريا المتحدة ، فلم يدر بيني وبين فيصل أحاديث خاصة في غير هذا فأكتبها بعد إرسال وفده إلى مصر فالحجاز ، ولقد كنت على ما أعلم أول من اقترح على الإخوان في دمشق ، ثم على المرحوم يوسف بك العظمة في بيروت ، أن تعلن سوريا استقلالها التام المطلق ، وتجعل دول الحلفاء معها أمام أمر واقع – كما يقال – ولما عاد الأمير فيصل من أوربا ليقيم أسبوعاً واحداً يأخذ فيه تفويض البلاد إياه أو توكيلها له في المسألة السورية ، وأبى عليه الزعماء وجمهور الإخوان هذا التوكيل ، رأوا أن خير ما يشغله أو يصرفه عن العودة إلى أوربا للاتفاق مع فرنسا وإنكلترا على شكل الانتداب الذي رضيه – أن يقنعوه بإعلان الاستقلال ونصبه ملكاً على البلاد ، فاقتنع ظاناً أن ما يرون أنه هو الصارف له عن ذلك هو أقوى ما يمكنه منه ، وهو يرى أنه لا مندوحة عنه .

وكان أول عمل لحزب الاستقلال بالاتفاق مع الأمير دعوة أعضاء المؤتمر العام إلى دمشق ، ثم وضع الأساس الذي يبنى عليه الاستقلال ، فعقدوا لهذا عدة جلسات في دار علي رضا باشا الركابي ودار رفيق بك التميمي وغيرها ، كنت أحضرها إلى أن قرروا بموافقة الأمير أن أذهب إلى بيروت لإقناع زعمائها والمجيء بهم إلى دمشق لأنهم كانوا قد امتنعوا عن إجابة الدعوة ، فسافرت إلى بيروت في أول مارس ، ولم أتمكن من جمع كلمتهم المتفرقة إلا في مدة أسبوع كامل ، كانت آخر ليلة منه آخر جلسة

لنا معهم في دار الاعتماد التي يشغلها باسم حكومة الشام يوسف بك العظمة ، وقد كتبت عنها في مذكرتي ما يلي :

يوم الأحد 7 مارس / 1920 (16 جمادى الآخرة)

اجتمع مندوبو بيروت البارحة بدار الاعتماد وتذاكروا في مسألة السفر فاختلفوا ، وكان رأي الأكثرين عدم السفر حتى يجيء من الشام نبأ رسمي بتحديد جلسة المؤتمر المنتظرة ، ورأي أبي علي سلام السفر ، فوافقته وأصررنا فاقتنعوا وسافرنا صباح اليوم .

وصلنا إلى الشام الساعة 4 و35 ق مساء ، فوجدنا المؤتمر مجتمعاً فصليت الظهر والعصر جمع تأخير وحضرت الجلسة ، فوجدت البحث دائراً على خطاب المؤتمر إلى الأمير فيصل ، فطلبت أن يقرأ علينا كتابه إلى المؤتمر - وكان قد قُرئ - فأعيدت قراءته ، واقترحت شيئاً من التعديل والإصلاح في جواب المؤتمر له فقبل .

ثم قُرئ في الجلسة قرار المؤتمر (ونوقش فيه) وعهد إليَّ أخيراً تصحيح عبارته . انتهى ما كتبته بعد الجلسة من تلك الليلة لأجل الذكرى . وهذا القرار حرر في أثناء غيبتي في بيروت بعد تلك الجلسات التي عقدت للبحث في موضوعه وأشرت إليها آنفاً .

وقد اقترح بعض أعضاء المؤتمر من غير المسلمين في هذه الجلسة أن ينص في قرار المؤتمر على أن حكومة سورية المتحدة لا دينية (لاييك) ووافقه بعض المسلمين الجغرافيين ، وعارضه آخرون مقترحين أن ينص فيه على أنها حكومة إسلامية عربية أو دينها الرسمي الإسلام . واحتدم الجدال فلم أر مخرجاً من هذه الفتنة إلا اقتراح السكوت عن هذه المسألة . ومما قلته إن إعلان كونها لا دينية يَفهم منه جميعُ المسلمين أنها حكومة كفر وتعطيلٍ لا تتقيد بحلال ولا حرام ، ومن لوازم ذلك أنها غير شرعية فلا تجب طاعتها ولا إقرارها بل يجب إسقاطها عند الإمكان ، فالأولى السكوت عن ذلك ، فوافق الأكثرون على هذا الرأي والاكتفاء باشتراط أن يكون دين ملكها الرسمي هو الإسلام فتقرر ذلك وإنني بهذه المناسبة أذكر ما كتبته في مذكرتي عن الجلسات الثلاث الأخيرة التي حضرتها قبل سفري إلى بيروت لما فيها من تفصيل هذه المسألة والعبرة بل العبر الكثيرة فيما يسمونه الحالة الروحية في ذلك

المؤتمر بل في سوريا كلها ، وهذا نصها :

يوم السبت 8 جمادى الآخرة 28 فبراير

دعاني الإخوان إلى جلسة بدار رفيق التميمي للمذاكرة فيما يبنى عليه إعلان الاستقلال ، فقرأ عزت (أفندي دروزة) كاتب المؤتمر شيئاً كتبه في معنى ما كنا بيناه في جلسة عند توفيق (بك الناطور) ، ولكنه ترك فيها أهم ما اقترحته عليهم في تلك الجلسة ، وهو بناء التقرير على قاعدة كون الاستقلال السياسي حقاً طبيعياً للشعوب ، كما أن الحرية الشخصية حق طبيعي للأفراد ، وقاعدة قيام العرب من السوريين وغيرهم بثورة على حكومتهم التركية ونجاحهم فيها ، وذكر النص المؤيد لذلك من القانون الدولي ، وقاعدة اعتراف مؤتمر الصلح العام لبلادنا بالاستقلال وإيداعه في المادة 22 من عهد عصبة الأمم ، الخ .

نعم إنه ذكر فيما كتبه اسم الثورة ولكن بغير هذه الصورة والقوة ، فقال رفيق التميمي إن هذه الصورة حسنة ولكنها تشبه المقالة ، قلت : (المراد الموضوع لا الأسلوب) .

وسألت عوني بك عبد الهادي عما كلفته إياه وأمره الأمير به بناء على اقتراحي ، من استخراج الشهادات الرسمية من قبل الدولة البريطانية للجيش العربي ، فإذا هو لم يأت إلا بعبارة اللورد كرزون منها .

يوم الأحد 9 جمادى الآخرة 29 فبراير شباط

اجتمعنا البارحة بالإخوان في دار الركابي (باشا) وتناقشنا في عدة مسائل مما يتعلق بقرار إعلان الاستقلال ، وتأليف حكومة جديدة ملكها فيصل ودينها الإسلام ، منها مسألة العلم السوري ، ومن يعلن الاستقلال؟ الأمير أم المؤتمر؟ وغير ذلك مما سبق البحث فيه في جلستين سابقتين ، وكان ترجح أن يكون لسوريا علم مستقل غير علم الحجاز المرفوع الآن في الشام وملحقاتها ، وتقرر هذا ولكن لم يتقرر شكل العلم ، ثم إن بعضهم قال في هذه الجلسة إن الأمير فيصلاً لم يقبل ذلك

بحال ، وقال : إنه يسوء والده الملك جداً ، ولكنه يقبل أن يوضع في العلم الحجازي علامة لسوريا كصورة نجم في المثلث الأحمر أو في غيره ، واختلف الرأي في تبديله أو إبقائه مع علامة فيه؟ فتقرر الثاني بأغلبية ضعيفة هي واحد أو اثنان .

يوم الاثنين أول مارس قبل سفري إلى بيروت

اجتمعنا بالإخوان ليلة الاثنين البارحة بدار الركابي (باشا) للمذاكرة في المسائل التي تتعلق بالاستقلال أيضاً . وكان أهم ما ألقي فيها من البحث : هل يكون للحكومة (شيخ إسلام) أو وزير للأمور الشرعية أم لا؟ وعلى الأول هل يكون من أعضاء مجلس الوكلاء أو الوزراء أم لا؟ فقال بعضهم بالسلب (أي لا حاجة إلى وزير ديني أو إسلامي)! وبعضهم بالحاجة إلى رئيس ترجع إليه أمور المحاكم الشرعية والأوقاف ، ثم طلبوا مني بيان رأيي في الموضوع ، فتكلمت من وجوه :

(1) مكان العرب من الإسلام وإمامة المسلمين الذين يقتبسون دينهم ويعبدون ربهم بلغتنا ، ويحجون إلى بلادنا ناسكين وزائرين .

(2) كون هذا الأمر قوة أدبية وسياسية واقتصادية لنا ، لا يمكننا الاستفادة منه إلا إذا كان لحكومتنا صفة إسلامية .

(3) ما استفاده الترك من انتحالهم لمنصب الخلافة وجعل دين حكومتهم الإسلام من عطف مئات الملايين من مسلمين الأقطار عليهم وانتصارهم لهم إلى الآن وكون هذا من أسباب بقاء ملكهم على اختلاله إلى اليوم «هذه المسألة يمكن كغيرها بسطها بمقال طويل يفند فيه خطأ متأخري الترك الذين ألغوا منصب الخلافة تقرباً إلى أوربا ، وزعمهم أن الإسلام وخلافته لم تفدهم بل أضرتهم ، وأن الحجة البالغة على هذا عدم ثورة العالم الإسلامي على الحلفاء في الحرب الأخيرة ، فهذا جهل طالما بيناه في المنار ويمكن الزيادة فيه» .

(4) كون العرب في الجزيرة وغيرها لا يمكن جمع كلمتهم وتكوين وحدتهم إلا بدعوة دينية (كما حققه ابن خلدون من قبل) ولا يمكن لسورية أن تبقى مملكة مستقلة إلا باتحادها مع غيرها من البلاد العربية المتصلة بها .

(5) كون السواد الأعظم من العرب مسلمين يغارون على الإسلام اعتقاداً وإيماناً ، فإذا جعلنا حكومة سورية مجردة من الصفة الإسلامية يوشك أن يقلبوها بدعوة دينية في أول فرصة .

(6) ما تقرر في علم أصول القوانين من كون القانون لا يكون صالحاً للأمة إلا إذا كان مراعىً فيه عقائدها وعاداتها وتاريخها . وعلى هذا يجب أن تكون الشريعة هي المستمد الأعظم للقوانين التي تحتاج إليها على فرض عدم تدين حكومتنا بالإسلام ، وعدِّها أئمةَ الفقه كعلماء القوانين ، فإذن لابد لنا من وزير شرعيٍّ ومن رجال آخرين من علماء الشرع لهذه الحكومة .

(7) كون شريعتنا صالحة لهذا الزمان كغيره ، وليس فيها ما ينافي المدنية ، إذا لم تتقيد بمذهب الحنفية أو غيره . وذكرت أمثلة في ذلك وقواعد شرعية ، فاعتمدوا رأيي وقرروه .

هذا ما كتبته من خلاصة تلك الجلسة الطويلة في ذلك الوقت القصير وقت السفر . ولكن ما تقرر بعد سفري لم يبن عليه ، ولم يمنع أن يقترح بعضهم أن يكتب في نص قرار الاستقلال جعل الحكومة السورية لا دينية وقد ظهر بعد ذلك من العبر في المؤتمر نفسه ما قد نبينه عند سنوح الفرصة له ، وأغربه ما نجم من رؤوس الإلحاد والإباحة في أثناء المناقشة في القانون الأساسي للدولة السورية .

هذا وإن ما كان من الجلسات الخاصة بيني وبين الملك فيصل بعد إعلان الاستقلال قد انحصر في صباح يومي الجمعة والأحد إذ لا تعقد فيهما جلسات المؤتمر ، وقد نفذ ما كنا قررناه من إرسال وفد إلى ابن السعود بكتاب منه وكتاب مني ،[30] ثم تجددت أمور اختلف فيها رأيي مع رأيه وسألخص ما أراه مفيداً من ذلك

---

(30) أخذ الكثيرون على رشيد رضا استخدامه مثل هذه العبارات التي أظهر فيها نفسه ثاني الملك فيصل في سورية ، من ذلك ما كتبه الدكتور سعيد طليع في جريدة القبلة رداً على مقال لرشيد رضا بعنوان (الحقائق الجلية في المسألة العربية) المنشور في المجلد 22 صفحة 442 حتى 480 في يونيو 1921 .
وقد نشر رشيد رضا رد الدكتور طليع في المجلد 22 صفحة 705 وصفحة 791 أثناء رده على ساطع الحصري ما تعقب به مقاله (الحقائق الجلية)

المؤتمر والملك والحكومة إن الرأي الذي كان مستقراً في ذهن الملك فيصل أن ينفض المؤتمر السوري بعد إعلانه للاستقلال ، وأن تؤلف لجنة تضع مشروع القانون الأساسي وقانون انتخاب المجلس النيابي ، وبعد إتمامهما تشرع البلاد في انتخاب النواب ، ولكن إخواننا أعضاء حزب الاستقلال العاملين لم يوافقوه على هذا الرأي ، بل أجمعوا على بقاء المؤتمر وقيامه بعمله إلى أن يتمه وينتخب المجلس النيابي ويجتمع ، وما كان فيصل ليخالفهم فيما يتفقون عليه ، بل كان يواتي أفراد الأذكياء منهم الذين يكثرون لقاءه في أمور يتعارضون فيها كالعصابات .

فكان من ذلك وقوع ما ساء صديقته إنكلترا في فلسطين فوق ما يسوء فرنسا في سوريا ولبنان ، على كونه متفقاً مع حكومة فرنسا على قواعد علاقته معها في سوريا ، وما عاد من باريس إلى سوريا إلا ليحمل منها التفويض الذي يخوله حق إمضائها كما تقدم ، وقد قبل إعلان الاستقلال والمبايعة معتقداً أنه يكون أقدر على الاتفاق معها – وهو ملك – فكان مُصراً على رأيه في العودة إلى فرنسا بعد إرضاء أهل الرأي بذلك ، وكان رأيي ورأي الشيخ كامل قصاب تقييده في ذلك بما لا يرضيه ، وسأعود إلى الكلام في هذه المسألة تقرر بقاء المؤتمر وأن يتولى وضع القانون الأساسي للدولة السورية ، وكان أول اختلاف في الرأي حدث بيني وبين الملك فيصل وحكومته أن المؤتمر قرر أن تقدم له الوزارة بياناً بالسياسة التي تجري عليها وتطلب منه اعتمادها ، فعرض رئيسها علي رضا باشا الركابي الأمر على جلالته فغضب وقال : إنه ليس للمؤتمر حق في هذا الطلب وأنه لا يأذن للحكومة أن تكون تحت سيطرة مؤتمر أكثر أعضائه شبان أغرار لا رأي لهم ولا شأن ورأيت أن المؤتمر مصر على تنفيذ قراره ، وأن الملك مصر على رفضه ، وأن هذا أول شقاق في حكومتنا الجديدة يجب تلافيه لما يخشى من قبح أحدوثته ، وسوء عاقبته ، فزرت جلالته زيارة خاصة لأجل إقناعه بذلك فكان أول ما حدثني به : ما رأيك فيما قرره المؤتمر في مسألة الوزارة؟

قلت : فوجئنا بهذا الاقتراح في الجلسة مفاجأة فكرهته لأن مثله يجب التمهيد له بالبحث وإجالة قداح الرأي فيه فإنه ذو وجهين : إما جعل الوزارة مستبدة ، لا يحاسبها على عملها محاسب في حكومة جديدة ليس لها تقاليد راسخة ، وإما سيطرة مجلس كمؤتمرنا أكثر أعضائه من الشبان الأغرار الذين تغلب عليهم الحماسة

وحكم الشعور ، وكنت أميل إلى تأجيل الاقتراح لأجل تمحيص حزبنا له فلم أوفق لذلك لأن الأكثرين قبلوه بمنتهى الارتياح ، وحسبوه من الضروريات ، وامتنعت من التصويت له بدون بحث سابق حتى إن بعضهم أمسكوا بيدي عند أخذ الرأي لأجل رفعها فأبيت .

قال : وما رأيك فيه الآن؟

قلت : رأيي أنه لا يمكن الرجوع عنه بعد وقوعه فلابد من تنفيذه

قال : أنا لا أقبل أن أعطي هذه السلطة لهذا المؤتمر ، إنه ليس بمجلس نيابي

قلت : بل هو أكبر من مجلس نيابي (وفي هذه الأثناء كان قد حضر إحسان بك الجابري رئيس الأمناء فقال له وهو واقف : إن هذا المؤتمر يا مولاي جمعية تأسيسية)

قال الملك : إنه لا شأن له وأنا الذي أوجدته

قلت حينئذ : بل هو الذي أوجدك ، إنك كنت قبله قائد جيش الشرق التابع للورد أللنبي القائد العام للجيش الإنكليزي فجعلك هذا المؤتمر ملكاً لسوريا ، وإننا لا ننكر أن لك فضلاً عظيماً بمساعدة حزب الاستقلال العربي على جمع المؤتمر ولكن المؤتمر قد اجتمع وأثبت أنه ممثل للشعب السوري وموضع ثقته ، وأيده زعماء البلاد من علماء الدين والرؤساء الروحيين والزعماء والوجهاء ، ونيط به إعلان استقلال سوريا الطبيعية التام الملق وجعلها حكومة ملكية نيابية ، وشرع في وضع قانون أساسي لها بموجبه يكون لها مجلس نيابي منتخب فهو الآن مجلس تأسيسي تشريعي يجب أن يكون له الإشراف على هذه الحكومة إلى أن يتم عمله ، ويكون للبلاد مجلس نيابي يحل محله . فهل يصح أن يغمط حقه وأن يقع الشقاق بينه وبين الحكومة من أول وهلة ، فنكون مضغة في الأفواه ، وحجة للأجانب على أنفسنا بأننا لا نصلح للاستقلال؟ هذا ما لا ترضاه يا مولاي بعد هذا قنع جلالته وأذن لرئيس الوزارة علي رضا باشا الركابي بكتابة البيان المطلوب وإلقائه في المؤتمر ففعل .

تنظيم قوى العشائر والقبائل السورية

ذكرت في النبذة السادسة من هذه الترجمة أنني اقترحت على الإخوان وجوب

إعلان استقلال سوريا ليكون الحلفاء أو الإنكليز والفرنسيس فيها أمام ما يسمونه (بالأمر الواقع) في وقت كانوا لا يزالون فيه مختلفين في تقسيم البلاد العربية وتحديد نصيب كل منهم فيها .

وكنت أعتقد أنه إذا لم يكن للبلاد قوة دفاع تعتمد عليها في حفظ الاستقلال فإنه لا يكون لهذا الأمر الواقع قيمة عندهم ، ولا يحسبون لأهلها أدنى حساب في أمرهم ، وإن من المتعذر أن تؤسس البلاد قوة عسكرية يؤبه لها في الدفاع عنها ، وإنما غاية الممكن من هذه الناحية أن تكون لها قوة تكفي لحفظ الأمن الداخلي وتنفيذ النظام فيها ، وتكميل مظهر الدولة ، وأبهة الملك في نظر دهماء الأمة .

وأما الدفاع الممكن للاعتداء الخارجي الذي يعتمد به ، فهو ما يسمى الوطني أو الأهلي ، وهو يتوقف على تنظيم جميع قوى القبائل والعشائر المنتشرة فيها من الصحراء إلى ساحل البحر .

فأما قبائل أعراب البادية من هؤلاء فكلهم مسلحون ، ولكن بأسهم بينهم شديد ، فهم لا يفتئون يتقاتلون لأدنى الأسباب ، وليس لهم مرجع وحدةٍ ولا وازع قوةٍ في ردهم وصدرهم ، وكان من الممكن أن يفيئوا إلى وزارع الحكومة السورية المستقلة ويدينوا لملكها ، وقد رأينا شيوخهم قبل الاستقلال وبعده يكثرون الاختلاف إلى باب الأمير فالملك فيصل ولاسيما الشيخ نوري الشعلان وهو شيخ قبائل الرولة أقوى قبائل صحراء الشام وأعزهم نفراً .

وأما العشائر المقيمون في داخل البلاد وأكثرهم متحضرة ، فلا تجمعهم عقيدة ولا نسب ، ولا رابطة تربية ولا مصلحة ، ولكنهم أدنى إلى النظام وطاعة الحكومة الوطنية من أعراب البادية ، ومنهم الدروز والنصيرية من باطنية الشيعة ، والدنادشة والجراكسة من مذاهب السنة ، ويمكن توجيههم كلهم إلى دفع العدوان الأجنبي عن وطنهم المشترك ، ويكون سائر الأهالي عوناً ومدداً لهم .

اقترحت على جلالة الملك فيصل وضع نظام لقوة كل قبيلة وكل عشيرة في موضعها ، يقرر فيه ما يحتاج كل منهما من السلاح والذخيرة والنفقة ، لتشكيل العصابات عند الحاجة إلى الدفاع وجعلها تابعة لهيئة من الضباط السوريين أركان الحرب ، وتخصيص مبلغ من المال لذلك ، وما كان هذا المبلغ ليزيد في أول الأمر عما

كان يبذله في سبيل العصابات السرية التي كان ضرها أكبر من نفعها ، فاستحسن المشروع كما كان يستحسن غيره مما يعرض عليه ، ولكنه لم يعطه حقه من الإكبار والاهتمام ، والسبب الخفي لهذا أنه كان يعتقد أن مستقبل سوريا رهين بالاتفاق مع فرنسا على الوجه الذي تقرر بينه وبين وزيرها كلمنصو ، وأحالني فيه على رئيس الوزارة صديقي علي باشا الركابي فكان رجائي في إكباره له أكبر من رجائي في الملك الذي كنت راضياً منه بقبوله ، فأظهر الوزير لي من الاستحسان ما كنت أحب ، ولكنه كان يسوف في تنفيذه بكثرة الشواغل بتأسيس الحكومة والخلاف بينها وبين المؤتمر حتى انتهى ذلك .

كنت أكلم كلاً من جلالة الملك ودولة الوزير في ذلك منفرداً فيعد ، حتى إذا التقيت بهما مجتمعين رجوت الملك أن يصدر أمره الرسمي للوزير بتنفيذه فأمر ، فسألت الوزير بعد أيام عما فعل ، فقال إنه قرر تخصيص مبلغ شهري قدره خمسة وعشرون جنيهاً ليكون راتباً لمدير المكتب الذي ينظر في تنفيذ المشروع .

فساءني في هذا الجواب ، وقلت له : إن الأمر أكبر من هذا المكتب ومديره وراتب مديره ، إنه يجب أولاً أن تؤلف له لجنة من أعلى الضباط الوطنيين معرفةً وهمةً لينظروا في المشروع مع بعض أهل الرأي ، ويجب عليهم أن يدرسوا كل ما كتب في اللغة التركية واللغات الأجنبية في نظام العصابات البلقانية وعشائر الأفغان التي نظمها الأمير عبد الرحمن خان وغيرها ، ليضعوا نظامهم في ضوء ساطع ، ويقدروا له الميزانية المؤقتة للتنظيم ، والمال الاحتياطي الذي يتوقف عليه العمل إذا هوجمت البلاد ، واقتضت الحال إضرام نار الدفاع في جميع الأغوار والأنجاد ، ولا أعتقد أن المشروع سينفذ إلا إذا ألفت هذه اللجنة وحضرت جلساتها بنفسي ، فوعد بالنظر في ذلك ولكنه لم ينظر ، فعلمت أنه يرضيني بالكلام ، ويجعل راتب الإدارة الجديدة معاشاً لأحد صنائعه ، فزال ما كان عندي من الأمل فيه ، وهو كل ما كنت أرجوه منه .

والظاهر أنه لم يكن يعتقد بضرورته أو بفائدته ، ولكن الثورة السورية التي حدثت بعد قد أثبتت لنا أن هذا المشروع لو تم لنلنا به ما نريد .

إسقاط وزارة علي رضا باشا الركابي

ثم كان من سيرة الركابي باشا أن سخط الملك فيصل عليه من ناحية ، وسخط عليه أكثر رجال حزب الاستقلال العربي من ناحية أخرى ، وعزم الملك على إسقاط وزارته وقد كتبت في مذكرتي يوم الأحد 6 شعبان 25 أبريل (نيسان) ما نصه :

اشتد سخط الملك فيصل من هذا الوزير لسوء تصرفه ولما أحدثه من الشقاق في حزب الاستقلال العربي وجمعيته ، وعزم على إسقاط وزارته لإخراجه وبعض وزرائها الضعاف الرأي والعزيمة ، فأمر بتأليف لجنة سرية للنظر في تأليف وزارة جديدة ، والركابي لا يزال يجلني ويبالغ في احترامي ، وأسوأ ما ساءني منه مراوغته في مشروعي الأهم وهو تأليف إدارة للعشائر والقبائل وليس لي غرض شخصي أرجوه منه .

وكتبت في يوم الاثنين 7 شعبان 26 أبريل في هذا الموضوع :

(سمرنا البارحة عند إحسان بك الجابري مع الملك فيصل سمراً مفيداً لا ينسى ، السمّار : القَيل (أعني الملك) وساطع بك الحصري ، وهاشم بك الأتاسي ، وعزت دروزة ، وعثمان سلطان ، وسعد الله الجابري وصاحب الدار (إحسان بك) وقد تحقق زوال ثقة الملك بوازرة الركابي .)

وأقول الآن : كان موضوع ذلك السمر بيان حال وزارة الركابي ، وما يشكى منها ، وما يجب من استبدال غيرها بها ، وما تجب مراعاته في ذلك ، وإذ كانت الجلسة سرية لم أكتب شيئاً عما دار فيها ولا فيما بعدها لئلا تسقط ذكرتي مني أو تسرق كما سرق دفتر مذكرات الملك فيطلع أحد عليها ، وإنما كنت أذكر أسماء السامرين وأعبر عن الملك بالقيل (بفتح فسكون) .

وقد سمرنا الليلة التي بعدها في دار ساطع الحصري وكان في السمّار زيادة عمن ذكرت من حاضري ما قبلها ، عبد الرحمن بك اليوسف ، ويوسف بك العظمة ، ويحيى بك حياتي الضابط المشهور ، ولم يحضرها جلالة الملك .

وقد اقترحت في جلسة بعدها عند إحسان بك أن يدخل في الوزارة الجديدة ، الدكتور عبد الرحمن شهبندر ، واستحسنت أن يكون يوسف بك رئيساً لها إذا كنا

نريد أن تكون وزارة دفاع قوية - وكان قد رشح بالاتفاق - فقال الملك إنه يحب يوسف بك ويثق به ، ولكنه لا يرى أن يكون رئيساً للوزارة في سنّه هذه فيكفي أن يكون وزيراً للحربية .

تشكيل هاشم بك للوزارة وانتخابي لرياسة المؤتمر

ولم يبد الملك لنا رأيه في الرئيس حتى إذا ما انتهينا من رأينا في الأعضاء فاجأنا بإصدار أمره الرسمي لصديقنا هاشم بك الأتاسي بتشكيل الوزارة ففعل ، واعتقدنا أن المرجح له عنده رويتّه وأناتُه تجاه حماسة العظمة وشهبندر ، وما يرجو من مواتاته له ، وعين الدكتور عبد الرحمن شهبندر وزيراً للخارجية ، ويوسف بك العظمة وزيراً للحربية ، فكان كل منهما أشد مواتاة لجلالته من هاشم بك .

كان رضا بك الصلح وزير الداخلية في وزارة الركابي أقدم أصدقائي فيها ، توثقت عرى الصداقة بيني وبينه في الآستانة سنة 1328 (1909)[31] فلهذا ولما له من المكانة في بيروت ساءني أن يظن أن خروجه كان برأيي ، فالحق أنني لم أقترح إخراجه وما يمكنني أن أدافع عنه ولا عن علي رضا باشا الركابي .

وقد ترتب على تشكيل هاشم بك الأتاسي للوزارة أن انتخبني المؤتمر السوري رئيساً له في 16 شعبان 5 مايو/1920 .

يوم الجمعة 25 شعبان 14 مايو سنة 1920

قابلت ضحوة هذا اليوم الملك فيصلاً بداره فأخبرني أن والده وافق على ما اقترحناه من تنفيذ مشروع (الوحدة العربية) والاتفاق مع ابن سعود مع المحافظة على شرفه وفوضه بذلك . قال : فيمكننا الآن إرسال وفد علني إلى ابن سعود وقد عقد والذي اتفاقاً مع إمام اليمن ثم قال : إنه جاءه من مصر أن الإدريسي (أي السيد محمداً الكبير) أرسل إليّ كتاباً مع رجل اسمه السيد محمد السقاف ، وسيصل إلى

(31) في الأصل (1312 هـ 1909م والتصويب من (الوراق)

هنا حاملاً له في هذين اليومين (قال) وإنه يمكن عقد اجتماع في هذا العام في طابة .

وأخبرته بمسألة استقدام ضيفنا وصاحبه (ضيفنا لقب أطلقناه بمصر على صاحب حجازي لنا يشتغل بالسياسة ، وكنت استأذنت الملك بطلبه إلى الشام فأذن) .

ثم تكلمنا في مسألة العشائر وهي تكاد تتم إن شاء الله تعالى .

هذا ما كتبته في مذكرتي في ذلك اليوم بعد فراق الملك فيصل وأعني بكلمتي الأخيرة أنني لم أترك مسألة السعي لتنظيم عشائر سوريا وقبائلها بعد سقوط وزارة الركابي باشا لأنني رأيت الملك فيصلاً لا يزال يظهر لي عنايته بها . ووعد يومئذ بتنفيذها .

وأقول الآن : إن كل ما ذكرت هنا من الأخبار لم يصح منه شيء ، وأما الآراء فكان الملك فيصل ثابتاً على وجوب سعينا إلى (الوحدة العربية) والتوسل بما يعتقد من اتصال المودة بيني وبين ابن السعود على إدخاله فيها وأنها لا تتم بدونه ، وكان موافقاً لي على أن والده هو العقبة الأولى في هذه السبيل ، فإذا ذللت واقتحمت كانت عقبة ابن سعود أهون منها .

مكاتبة أمراء العرب في مؤتمر الوحدة العربية
يوم الأحد 5 رمضان 23 مايو

أرسلت قبل نصف الليلة البارحة إلى الملك فيصل الكتاب الذي طلبه مني لإرساله إلى ابن سعود ، وقابلته ضحوة اليوم بداره الخاصة ، وتكلمنا في المسألة العربية وإمكان جمع مؤتمر من زعماء العرب في المدينة المنورة أو أي مكان يختارونه ، وقال إن والده يوافق على ذلك ، وتكلمنا في مسألة سوريا أيضاً ومسألة سفره إلى أوربا وعدم ارتياح الناس إلى هذا السفر وسببه ، ومما قلته له (وهو فصل الخطاب) إن المسألة يمكن اختصارها بكلمة واحدة وهي : هل يكون حكم البلاد لنا ونحن نستخدم من الأوربيين من ترى المصلحة في استخدامه؟ أم يكون لهم ويستخدمون منا آلات لإدارته؟

وأقول الآن قد بينت فيما تقدم أن الرجل لم يتغير رأيه بعد إعلان الاستقلال عما كان قبله من وجوب اتفاقه مع فرنسا على طريقة الحكم في سوريا ، وأن الوسيلة

للملك أن تفوض إليه البلاد عقد هذا الاتفاق ، وقد كان يطلب هذا التفويض من الزعماء وكان من أركانهم الأستاذ الشيخ محمد كامل قصاب رئيس الجمعية الوطنية وهو معارض شديد ، وكان الدكتور شهبندر من أقوى أنصاره ثم اطمأن الملك لموافقته له بعد أن صار وزيراً ، وقد صار في البلاد مؤتمر عام له شأن ، وكان يذاكرني في هذه المسألة منذ اجتمعنا في بيروت عند عودته من أوربا كما تقدم بعده إياي من أصحاب الرأي (الناضج كما كان يقول) ومن أصحاب المكانة في حزب الاستقلال العربي ، وقد صار لي صفة أخرى وهي رياسة المؤتمر الرسمي ، ولم يتغير رأيي في المسألة كما أنه لم يتغير رأيه ، والواقع الآن في سوريا يؤيد رأيي ، وسأعود إلى هذه المسألة .

يوم الجمعة 10 رمضان 28 مايو

قابلت الملك فيصلاً بداره صباح اليوم وكنت أرسلت إليه البارحة صورة كتابي الأول إلى ابن سعود ليرسله مع الثاني الذي أعطيته إياه في 5 رمضان (كذا في الأصل الذي في المذكرة) فأخبرني أنه أمر إحسان بك أن يكلفني صورة كتاب له (أي لابن سعود من قبله هو) وكتاب آخر يرسل إلى سائر أمراء العرب في الكويت والمحمرة وغيرهما ، وأنه كان كتب كلمات مختصرة في ذلك وتعب فلم يتمها ، والمراد منها بيان فكرته الأساسية أبني عليها .

ثم لقيت إحسان بك وأخذت منه الورقة (التي كتبها الملك) وكتبت الصورتين ليلاً وأعطيته إياهما وحفظت ورقة الملك عندي وهي في لفظها ومعناها . . .

يوم الأحد 12 رمضان 30 مايو

أفطرت اليوم والوزراء وأعضاء المؤتمر مع الملك فيصل فأجلست في المائدة عن يمينه والشريف جميل عن يساره ورئيس الوزراء أمامه وسائر الوزراء عن اليمين واليسار في صدر المكان ، وجعل لأعضاء المؤتمر مائدتان طويلتان على الجانبين . وقد أسرَّ إليَّ الملك في أثناء الطعام بأن الوفد سافر بالكتب وهو مؤلف من العصيمي وآخرين أحدهما

سليمان الدخيل .

ثم كتبت بعدما تقدّم في يوم آخر قريب (ثم تبين لي أن هذا غير صحيح)؟

قضية وطنية لها علاقة بترجمة الملك

يوم الأحد 26 رمضان 13 يونيو

ظهر الخلاف في النصف الثاني من هذا الشهر بين أعضاء حزب الاستقلال وجمعيته وقد اجتمع في دار الدكتور أحمد قدري زهاء أربعين عضواً من أعضاء الجمعية ودارت المذاكرة تحت رياستي في إصلاحها ، فاتفق الجميع على وجوب إلغاء امتياز الأعضاء المؤسسين وعلى طلب جميع من في العاصمة منهم ومن غيرهم لتقرير هذا في انتخاب مجلس إدارة (أو تأسيس) من الهيئة العامة عدده ثلاثون أو أكثر وهو ينتخب من أفراده لجنة مركزية أو تنفيذية من سبعة أعضاء وسيكون هذا الاجتماع في الليلة القابلة .

الخلاف في حزب الاستقلال العربي وجمعيته

يوم الاثنين 27 رمضان 14 يونيو

اجتمع البارحة الإخوان في دار الدكتور قدري اجتماعهم الثاني تحت رياستي وبعد طول المذاكرة استقر الرأي على كتابة بلاغ يمضيه جميع من حضر وغيرهم ممن على رأيهم يقدم إلى اللجنة المركزية يطالبونها فيه بدعوة جميع الأعضاء في ٧ شوال للمذاكرة في الإصلاح المطلوب الذي اقترح من قبل ، وينذرونها أنها إذا لم تفعل فإن الموقعين يفعلون ذلك بحق الأكثرية ، وقد فعلوا . وكتب نسختان من القرار ليقدم أحدهما ويحفظ الآخر .

يوم الثلاثاء 28 رمضان 15 يونيو

قرر أعضاء المؤتمر اليوم بأن تعطل الجلسات من نهار غد لأجل عيد الفطر إلى نهاية

الأسبوع الذي بعده وتعود يوم السبت 26 حزيران (يونيو) وبعد الجلسة العامة جمعت ديوان الرياسة للنظر في أعماله المتأخرة لعدم اجتماعه من مدة طويلة كنت أدعو الأعضاء فلا تحصل الأكثرية

وعند العصر تقريباً قابلت الملك بداره بمناسبة عزمه على السفر قبل المغرب إلى حلب ، فتكلمنا في مسألة سفره ، فأخبرني بأنه يريد إرسال قوة عسكرية إلى حدود سورية الشمالية بمناسبة الهدنة بين الترك والفرنسيس في كليكية ، وبأن في هذا شيئاً من الخلاف بينه وبين الوزراء .

الوفد الوطني لأوربا والملك فيصل

ثم تكلمنا في مسألة الوفد (الذي يسافر إلى أوربا) فقال بمناسبة وجوب إرسال وفد وطني غير وفد الحكومة (وهو ما اقترحه بعض الإخوان والزعماء) أن هذا مما يجب على الأحزاب والجمعيات ، ولكن كل شيء يطلب منه ولا سيما المال ، وهو لا يستطيع ذلك وقد ضيق عليه في ميزانية البلاط!! قال : كل شيء يطلب من فيصل ، في الأمة رجال كثير غير فيصل ، ليست عبارة عن رجل واحد

قلت : نعم لها رجال كثيرون ولكن ليس لها إلا رأس واحد

قال : صحيح ، أنا أساعد من يذهب من قبل الوطن ولكن ليس عليَّ النفقة كلها ، ولم أكن أسمع منه مثل هذه الشكوى بل كان يظهر لي أنه يأخذ على عاتقه مساعدة العمل للوحدة العربية وللجامعة الإسلامية أيضاً !!

وأحمد الله أنني أبعد الناس عن مساعدته في شيء ما ، حتى إنه عرض علي تقديم شيء من فرش الدار ، بل قال إن فرش الدار كله عليه ، فاحتلت في دفع ذلك عني .

هذا ما كتبته بعد فراقه ووداعه في ذلك اليوم ، وأفسره هنا بأنني كنت أشعر منه بأنه يريد إكرامي بمساعدة مالية ويرى مني أمارات الإباء إذا عرَّض بذلك ، ولما استقرت قدمي في الشام للعمل في المؤتمر ، قال لي مراراً إنه لا يليق بمقامك البقاء في الفندق فيجب أن تأخذ داراً تقيم فيها . عليك الدار وعلينا فرشها فاستأجرت داراً

واسعة واستحضرت فرشها التام من طرابلس فلم يدر بذلك إلا والدار مفروشة .

يوم الخميس 30 رمضان 17 يونيو

كلمني الدكتور عبد الرحمن شهبندر في وزارة الخارجية بشأن الوفد الذي يذهب إلى أوربا وقال إنه يجب أن نتفق على تحديد المطالب التي يلتزمها . وبعد بحث وجيز اتفقنا على الاجتماع ليلة السبت في دار جميل بك مردم مستشار الخارجية ويطلب الشيخ كامل قصاب للحضور معنا ، وأكد لي الوزير ما كنت سمعته عن الأمير زيد من عدم قبوله رياسة هذا الوفد . قلت للوزير لماذا؟ قال لأنه لا يريد حمل هذه المسؤولية ، ووزير الخارجية يريد أخذ تفويض من الزعماء ورؤساء الأحزاب ولا يتكلم باسم الحكومة فقط .

يوم الجمعة أول شوال 18 يونيو

كنا قررنا أن يجتمع ديوان رياسة المؤتمر (بعد تعطيل الجلسات لأجل العيد) أمس فجاء الشيخ عبد القادر الخطيب مبكراً فتكلمت معه في الخلل والاضطراب الذي حصل أخيراً في المؤتمر فشوه سمعته الحسنة ، وفي وجوب التعاون على تلافيه ، ولما جاء عزت أفندي دروزة (السكرتير) وصلاح الدين أفندي (من الأعضاء) قال الخطيب (في وجوههما) أن أعضاء إدارة المؤتمر مقصرون في حقوق الرئيس إذ تركوه ولم يساعدوه على حفظ النظام حسب القانون فاعتذر عزة أفندي دروزة (عن نفسه) بأنه ترك القعود حول الرئيس لأجل البحث في مواد القانون . فذكرهم الخطيب بما كان من معاونتهم للرئيس السابق هاشم بك الأتاسي .

ولما اجتمع ديوان الرياسة أول مرة بعد العيد وكان ذلك في 6 شوال (23 يونيو) صرح صلاح الدين أفندي بأن أعضاء الإدارة قصروا في معاضدة الرئيس عمداً لأنه من العلماء! وقد كتبت كلمة صلاح الدين أفندي الحرة في أعلا صفحة مذكرتي من ذلك اليوم وذكرتها هنا لمناسبتها لما قبلها .

وأقول الآن إن عزة أفندي دروزه من أركان حزبنا وكان يلازم كرسي رئيس المؤتمر ويقوم معه بأهم أعمال حفظ النظام وغيرها ، ولكنه صار يتركني وينزل من مكانه في منصة الرياسة بالقرب مني ويجلس مع الأعضاء ، وأما الشيخ عبد القادر الخطيب فكان معارضاً لحزبنا من جهة ، وكان بيني وبينه غاية التباين في الأفكار والإصلاح الديني ، وإنما أظهر نصري في هذه المسألة أو إنكارها علناً لأنه كان يعتقد أن الأفندية من حزبنا قد عز عليهم أن يكون رئيس المؤتمر عالماً دينياً معمماً ، وأحبوا أو أرادوا أن يظهر عجزه عن القيام بجميع حقوق الرياسة ، فليعتبر المسلم بهذا ففيه عبر كثيرة ولا أزيد عليه في هذا الاستطراد شيئاً!!!!

أحاديث عيد الفطر في دمشق

يوم السبت 2 شوال سنة 1338 الموافق 19 يونيه (حزيران) سنة 1920

اجتمعنا في الليلة البارحة في دار جميل مردم بك ،على موعد سابق) : أنا وصاحب الدار وناظر الخارجية (الدكتور عبد الرحمن شهبندر) وناظر الحربية (يوسف بك العظمة) والشيخ كامل قصاب (رئيس اللجنة الوطنية) وخالد أفندي الحكيم ، وقد تأخرت عن الموعد لكثرة زائري العيد حتى بعد العشاء ، وموضوع الاجتماع المفاوضة في الوفد الذي يرسل إلى أوربة لأجل القضية السورية .

سأل وزير الخارجية عن القاعدة التي يبنى عليها الوفد مطالبه؟

قلت : لا قاعدة عندنا إلا قرار المؤتمر السوري

قال الوزير : تعني الاستقلال التام الناجز ووحدة سوري بدخول فلسطين ولبنان فيها على أن يكون للبنان الخيار في شكل إدارته بدون تدخل أجنبي؟

قلت : نعم ووافقني الأستاذ الشيخ كامل

قال الوزير : إن معنى هذا رفض قرار مؤتمر (سان ريمو)

قال الأستاذ الشيخ كامل : فليكن ،

قال : إذاً لا حاجة إلى السفر

وبعد بحث (دار بين الحاضرين كلهم) قال وزير الحربية : إنه بلغه عن ثقة أن مؤتمر

سان ريمو لم يقرر في شأننا شيئاً قطعياً .

قال وزير الخارجية : أنا لا أعتد بهذه الإشاعات ، عندنا شيء قطعي هو بلاغ اللورد أللنبي عن حكومته أن المؤتمر قرر الاعتراف باستقلال سورية والعراق على قاعدة الانتداب وأن فرنسا انتدبت لسورية وإنكلترا للعراق وفلسطين ، فإما أن نرفض القرار ولا حاجة حينئذ للوفد ، وإما أن نعترف به ، ونبحث معهم في معنى الانتداب ، ونطلب ألا يمس سلطاننا القومي .

قلت : بل يحتج الوفد على القرار بمخالفته للمادة 22 من معاهدة فرسايل ، ويبنى مطالبه على هذه المادة ، وفصلت ذلك ثم انصرفنا على عزم العودة إلى البحث في جلسة أخرى (انظر مذكرة بعد غد) .

يوم الاثنين 4 شوال 21 يونيو

اجتمعت البارحة برئيس الوزارة (هاشم بك الأتاسي) وصباح اليوم بالملك فيصل ، وهو الاجتماع الأول بعد عودته من حلب ، وتكلمنا في مسألة الوهابية .

حديث مع سمو الأمير زيد في مسألتين

(1) ضعف الحكومة السورية وتدخل الملك فيصل

لما زارني زيد زيارة العيد تكلم معي في مسألة إدارة الحكومة السورية ، فذكرت له بعض ما يجب لتلافي ضعفها ، فدعاني إلى الغداء معه أمس (وكان الحديث قبله ثاني يوم العيد) لنتوسع في الكلام على انفراد فأجبت . وكان مما اعترف به فساد كثير من رجال البلاط (حاشية الملك) وقال إنه يجب تنظيفه من مثل الشيخ (ف . خ) واعتذر عن تدخل الملك في الأعمال لضعف الحكومة وعجزها .

قلت : إن الواجب عليه إصلاحها لا التصرف الشخصي الذي يزيدها خللا «كان

الحديث بيني وبين الأمير زيد في ضعف الحكومة واستبداد الملك فيصل فيها طويلاً صريحاً ملأني إعجاباً بحريته وذكائه ، وقليل ما كتبته يشير إلى كثيره» .

(2) مسألة العداء بين الهاشميين وابن سعود

واخبرني (الأمير) بعودة الرسول (. . . شلاش) الذي ذهب بكتابي وكتاب الملك إلى ابن سعود وقال إن ابن الرشيد يود الاتفاق مع شرفاء مكة ، وإن ابن سعود مراوغ ، أو ما هذا معناه أو مؤداه .

ثم إن رئيس الأمناء (إحسان بك الجابري) أطلعني في المساء - أي أمس (3 شوال) على كتاب ابن سعود للملك فيصل ، وهو ودي ، وعلى ملحق سياسي له بغير إمضاء ولا ختم (كعادته) ينحى فيه باللائمة على الملك حسين ويقول أنه لا يود الاتفاق . ولكن الملك فيصلاً يتوقع زحف الوهابية على الحجاز وطلب من الوزارة جيشاً سورياً لحماية المدينة منهم ، وإلا ترك الملك وذهب لقتالهم مع أبيه .

الوحدة العربية
إيضاح لمسألتها بيني وبين الملك فيصل

إنني على قلة عنايتي بكتابة المذكرات ، قد كتبت منها أهم ما ورد بيني وبين الملك فيصل لأجل الرجوع إليه إذا استمر التعاون بيننا على العمل للقضيتين : قضية الوحدة العربية ، وقضية الجامعة الإسلامية اللتين لا تقوم إحداهما إلا بالأخرى ، ولم أقصد بكتابتها أن يتكون مادة لكتابة تاريخ لهما ، لأن وقتي لا يتسع لذلك مع ما أقصده من الإصلاح الإسلامي العام ، ومما أزيده من الإيضاح على ما كتبت في هذه المذكرة أن الملك فيصلاً فتح جواب ابن سعود الذي أرسله إلي مع الرسول (شلاش) الذي حمل الكتابين إليه مع إبقاء ظرفه سليماً وأرسله إلي ملصقاً ، ولكن ضعف صمغ الظرف عند فتحه بعرضه على بخار الماء ، فعلمت أنه فتح قبل إرساله إليّ ، ولكنني تجاهلت ذلك ، وهو جواب عن كتابي الأول الذي كتبته في 27 جمادى

الآخرة سنة 1338 وأرسل في أوائل رجب ، لا الكتاب الثاني الذي كتبته في اليوم الثالث من رمضان ، وأخبرني الملك على مائدة الإفطار مساء 12 منه أنه أرسله مع الوفد الذي كان قرر إرساله إلى الأمير ابن سعود ، وذكرته في مذكرة ذلك اليوم وإنه تبين لي بعد أنه لم يرسله ، وما أدري متى أرسله بعد ذلك ، وكان الكتاب الأول مطولاً ، ذكرته فيه بما كنت كتبته إليه عن مشروعي للوحدة العربية ، وأرسلته مفصلاً إلى إمام اليمن ، ومجملاً إلى سموه ، وإلى السيد محمد الإدريسي الكبير ، وبما حال من التواصل بيننا في أثناء الحرب العامة إذ أرسلت إليه رسولاً ليعرض له رأيي فيها وفي القضية العربية الكبرى .

ثم قلت فيه : (وأكتفي الآن بجنوحكم للسلم مع الحجاز وقبولكم دعوة الوحدة العربية على القاعدة التي بيناها في هذا الكتاب . . . ومتى جاءني خطكم مصرحاً بهذا وجاء خط ملك الحجاز لولده الأمير فيصل بمثله نشرع في وضع قواعد الاتفاق العربي العام الخ .

وذكرت فيه أنني مرسلٌ إياه مع الأستاذ الشيخ محمد بهجة البيطار (وهو خير ثقة من أهل العلم والصلاح هنا فثقوا فيما يبلغكم عني ويبلغني عنكم ، وإن كان غير متمرس بالسياسة على أنني لقنته ما لا بد له من العلم به من الأحوال الحاضرة)

وقد سافر رسولي الأستاذ البيطار مع رسول الملك رمضان شلاش ، ولكنه عرض له عند حدود الحجاز ما أعجزه عن مواصلة السفر إلى نجد ، فأعطى كتابي لرفيقه وأرسلته الحكومة إلى المدينة المنورة ومنها عاد إلى دمشق .

وقد كان جواب الأمير ابن سعود لي ثناءً علي وإطراءً فوق المعهود من أسلوب ابن سعود في كتبه ورسائله ، لحكمة ظاهرة ، وفيه استحسان للدعوة إلى الاتفاق والاتحاد بالإجمال ، وأنه يحتاج إلى الدرس وأنه سيخبرني بما يتراءى له من التفصيل ، وهو مختوم بخاتمة المعروف ، وفيه ملحق وجيز بخطه دون ختمه قال فيه (أيها الأستاذ الأكرم : جميع ما ذكرتم في كتابكم حق ومعقول ، ولكن ليس بخاف على سيادتكم أن الأقوال واحدة والأفعال مختلفة ، كل تابع هواه) ثم ذكر أن رسولي لو وصل إليه لعرف كل ما في ضميره ، وأنه يستحسن أن أرسل إليه رسولاً عاقلاً ديناً بصفة تاجر من طريق بمبي (الهند) ليعرفه جميع ما في الخاطر ، وقد أعطيته للملك فيصل مع

ملحقه لاعتقادي أنه قرأهما قبلي ، ولولا هذا لكان مقتضى الأمانة والمصلحة أن أكتم الملحق عنه مع بقاء السعي والتوسل للثقة بينهما . ومما يدل على أنه كان قرأه أنه لم يطل النظر فيه بل أعاده إلي بدون تريث ولا بطء ، وقد اشتد سخطه بعد عودة الرسول من نجد على ابن سعود وخوفه من زحفه على الحجاز وانقطع بحثنا في مسألة الوحدة العربية أياماً .

وأما كتابي الثاني في أوائل رمضان لسموه فهو مبني على قبول املك حسين للاتفاق معه ، الذي عرضه عليه ولده الملك فيصل بالاتفاق معي ، وقد كتبته بعد وصول جوابه عن الأول كما علم مما تقدم ، وأما طلب الملك فيصل من الوزارة أن تجهز جيشاً سورياً لقتال ابن سعود كما يوجب عليه والده فقد أجابته الوزارة عنه جواباً سلبياً وأن كل ما تسمح به هو أن يتطوع من شاء من السوريين لهذا المساعدة ، بشرط أن تكون نفقتهم على حكومة الحجاز ، وأن تكون حكومة سورية على الحياد ، ولكن أخطأ الظن ولم يزحف ابن سعود بالجيش الوهابي على الحجاز في ذلك العهد وعدنا إلى سعينا للوحدة العربية إلى أن أنذره الجنرال غورو بالزحف على سورية . وأذكر هنا آخر كلمة لي في مذكراتي بدمشق في هذه المسألة بعد تمهيد وجيز وهو :

كان اقترح علي الملك فيصل أن أكتب له القواعد أو الأسس التي ارتأيت أن تبنى عليها دعوة أمراء جزيرة العرب للمحالفة لأجل المناقشة فيها قبل تبييضها وكتابة الدعوة ، فكتبتها ، ولما عرضت فكرة الخوف من زحف الوهابية على الحجاز امتنعت من إطلاعه عليها ، حتى إذا انجلى ذلك العارض عرضتها عليه ، فقال دعها لي حتى أتأمل فيها . وبعد أن تأمل فيها مراراً قال لي إنني موافق عليها كلها لم أستطع زيادة كلمة فيها ولا نقص كلمة منها ، وهاك الكلمة الوجيزة التي كتبتها في مذكرتي عنها :

يوم الأحد 17 شوال 4 يوليو (تموز)

أطلعت الملك فيصل على البرنامج الذي رأيت جعله أساساً لدعوة أمراء جزيرة العرب للاتفاق والحلاف فأعجبه جداً ، بل أعجب به جداً ، وقال : أنا أوافق عليه أنا وإخوتي علي وعبد الله وزيد وكل ذي كلمة وفهم في مكة ، ولا يمكن أن يغلب

سيدنا (يعني والده) علينا كلنا ويرفضه ، بل نتعهد بقبوله إياه ، وتواعدنا على المذاكرة التفصيلية فيه غداً ، ووعدني بأن لا يطلع عليه أحداً قط ولا إحسان الجابري ، ولكنني في ضحوة اليوم التالي (الاثنين) حلّفتُ إحسان بك يمين جمعية الجامعة العربية وكتبت فيه أنه سألني بعد القسم هل يحنث باليمين من يوافق على احتلال الأجانب بعض البلاد لإنقاذ البعض الآخر؟ قلت : نعم .

(وثم صارت ثقتي بإحسان بك أقوى من ثقتي بجلالته في مسألة الوحدة العربية لأنها عند إحسان مطلقة وعند فيصل مقيدة بمصلحته ومصلحة والده) .

عود إلى مسألة الوفد السوري
يوم الثلاثاء 5 شوال 22 يونيو

اتفقت أمس مع وزير الخارجية بعد كلام في مهمة الوفد السوري الذي سيسافر إلى أوربة على الاجتماع ليلاً في دار مستشارها جميل مردم بك لبسط الحديث وتقرير ما نراه ، فاجتمعنا البارحة وكان ثالثنا (غير صاحب الدار) وزير الحربية يوسف بك العظمة ، ورابعنا وزير المعارف ساطع بك الحصرى ، وخامسنا خالد أفندي الحكيم ، ولم يبلغ الشيخ كامل موعد الاجتماع .

وبعد البحث اتفقوا على رأيي الذي كررته ، وهو أن تكون قاعدة مطالب الوفد قرار المؤتمر السوري والاحتجاج على قرار مؤتمر سان ريمو لمخالفته للمادة 22 من معاهدة فرسايل ، والبحث في معنى المساعدة الاستشارية المقررة في تلك المادة ، واشتراطه أن لا تمس الاستقلال التام ، وأن يكون الرأي فيها للامة ، وأن لا يقر الوفد على شيء نهائي ، بل يحمل ما يتقرر إلى البلاد ويعرضه على مؤتمرها النيابي (كذا ولعل المراد مجلسها النيابي إذ كان مقرراً) ليقرره أو يرفضه أو يطلب تعديله .

حالة الحكومة السورية وملكها وشعبها
يوم الأربعاء 6 شوال 22 يونيو

تكلمت في جلسة ليلة الثلاثاء مع بعض الوزراء في مسألة الاجتماعات السرية

التي يعقدها بعض وجهاء دمشق ومعمميها الموالين لفرنسة وزعماؤهم رضا باشا الركابي والشيخ عبد المحسن الأسطواني والشيخ محمود أبو الشامات والشيخ أسعد الصاحب والشيخ أديب تقي الدين والشيخ عبد القادر الخطيب والشيخ عبد الحميد العطار و . . . وقد بلغ الحكومة أنهم قرروا إرسال وفد إلى فرنسة ليطلب انتدابها لجميع سورية ، وألقى الحاضرون التبعة في إهمال ما يجب من تربيتهم على ناظر الداخلية (رضا بك الصلح) فقلت : إن مثل هذا العمل يجب أن يكون بقرار مجلس الوزراء لا بأمر وزير الداخلية وحده ، لأنه يتعلق بالسياسة والإدارة العامة ولا يعد من الوقائع الموضعية .

واليوم زارني وزير الداخلية وأخبرني بضغط زملائه عليه ، وأنه رفع استقالته إلى الملك وطلب مني تعضيده ، فدل هذا على أنه يود أن لا يقبل الملك استقالته ليكون مركز الوزارة قوياً أمام يوسف بك العظمة وزير الحربية وأعوانه كوزير المعارف ورئيسهم ، وسبب هذا الشقاق أن رضا بك الصلح يرى أنه أحق برياسة الوزارة ، ويميل إلى كبراء الشام المؤسسين للحزب الوطني (لأنه أرستقراطي مثلهم) ولا يوافق زملاءه المخالفين على الضغط عليهم ، ولا مساعدة العصابات في جبال عامل ولا في غيره ، وهو المصيب في هذه المسألة ، فإن العصابات الموضعية تخرب البلاد بأيديها وأيدي السلطة الفرنسية ، وتسفك الدماء بدون نتيجة مفيدة ، وإنما يعقل الاستعانة بالعصابات إن وقعت بشرط أن تكون عامة (لا موضعية) كما قلت للملك فيصل ولغيره مراراً ، وقد طلبوا منه (أي وزير الداخلية) عزل رئيس البلدية الذي طعنت فيه اللجنة الوطنية وغيرها قولاً وكتابةً فلم يقبل فاشتدوا بينه وبين المسلمين (كذا) من أعضاء الوزارة فاستقال ، وسأسعى لعدم قبول استقالته .

يوم الجمعة 8 شوال 25 يونيو

كلمت رئيس أمناء الملك إحسان بك الجابري في مسألة استقالة رضا بك الصلح فوافقني على السعي لعدم قبولها ، وقال إنها لا تزال في جيبه لم يقدمها لجلالة الملك لعل رضا بك يستردها . «كان بيني وبين رضا بك الصلح رحمة الله تعالى صداقة ومودة شخصية ، وكنت أحب المحافظة عليه في الوزارة لمكانة أسرته وتمثيله لبيروت في

حكومة سورية ، وأما وجهاء دمشق المشار إليهم فلم يكن بيني وبين أحد منهم مودة ولا عداوة إلا علي رضا باشا الركابي كنا صديقين وقد ذكرنا ما وقع بيننا من الفتور في قلب المودة» .

آخر ما كتبته عن عملي مع الملك فيصل

كان آخر ما كتبته عن عملي مع الملك فيصل الخاص بالوحدة العربية أنني أطلعته على البرنامج الذي وضعته لها فقبله كله وجزم بقبول إخوته الثلاثة له وأن يكونوا إلباً واحداً على والدهم ليقبله ، وأننا اتفقنا على عقد جلسات خاصة بيني وبينه للمباحثة في وسيلة تنفيذه ، وأن نكتم ذلك عن كل أحد (قال جلالته) حتى إحسان بك الجابري – أي رئيس أمنائه – على أن إحسان بك حلف لي يمين جمعية الجامعة العربية في اليوم التالي لهذا الاتفاق (أي 8 شال سنة 1338 الموافق 6 يوليو (تموز) سنة 1920) فصار عندي أميناً على كل عمل يعمل للأمة العربية ولكن هذا لا يبيح لي أن أفشي له ما هو خاص بالملك فيصل إلا بإذنه .

وأقول هنا إن فيصلاً كان مخلصاً معي في السعي للوحدة العربية لأنه أعقل من والده وإخوته الذين اختبرهم ابن السعود ويئس من إخلاصهم ومن صدقهم كما كتب لي في الملحق الذي كتبه بخطه ووضعه في كتابه واطلع عليه فيصل كما تقدم ففهم منه أنه لا يصدقه هو أيضاً فعذره ولم يرجع عن رأيه في السعي معي للاتفاق معه قبل كل أحد .

ثم عرض في هذا الشهر (يوليو) ما شغلنا عن عقد هذه الجلسات وهو تصدي فرنسة للعدوان على استقلال البلاد وسلوك الملك فيصل ووزارته مسلكاً غير مرضي للمؤتمر العام ولا لحزب الاستقلال الذي هو حزبه المعلن للاستقلال ولنصبه ملكاً للبلاد ، وكان الشعب كله مع مؤتمره ومع الحزب والجمعية الوطنية ، ولهذا تحول عن الملك فيصل حتى يصح أن يقال إنه لم يبق معه إلا أفراد من الموظفين الرسميين عنده ومن المتهمين بالاتصال به لأجل المنافع الشخصية .

وقد بينت من قبل أنه لم يكن لي حظ من المكث في الشام وراء سعيي للاتفاق

معه على الوحدة العربية إلا إقناعه وإقناع حكومته بمشروع تنظيم قوى العشائر السورية والقبائل العربية السورية للدفاع الوطني وأن هذا لم يتم لي وقد كتبت في صفحة المفكرة الإجمالية لشهر يونيو (حزيران) أربع مسائل :

(الأولى) منها هذا نصها : لم أر في الشام عملاً إصلاحياً قط ، لا في الحكومة ولا في الأهالي ، فالحكومة ضعيفة يغلب على أفرادها ما طبعتهم عليه الإدارة التركية من المداراة والجري على ما تعودوا والخضوع للملك وإن كان كفيصل سهل القياد ، ولو كان الوزراء على شيء من الابتكار وحب الإصلاح لعملوا عملاً عظيماً واستعانوا عليه بفيصل .

و(المسألة الثانية) في وصف إرادة فيصل وإدارته وحاله في حلمه وغضبه وسيرته مع الأمة والحكومة والحزب والجمعية ومعيشته الخاصة ونفقاته بين نفوذ إحسان بك الجابري وصفوة باشا العوا ، وليس شرحها من مشرب المنار .

و(المسألة الثالثة) في وزارة هاشم بك الأتاسي الذي وصفته فيها بالطيب القلب الحيي وذكرت مكانته عند الملك فيصل وخصصت بالذكر من أعضاء وزارته الدكتور شهبندر ويوسف العظمة العضوين الجديدين اللذين كنا اقترحنا إدخالهما في هذه الوزارة في جلساتنا الخاصة مع الملك فيصل لما نرجو فيهما من قوة الشباب التي يعتدل بها ضعف الشيوخ ، وجملة ما قلته فيها أن الآمال قد خابت فيها .

و(المسألة الرابعة) في الأستاذ الشيخ كامل قصاب رئيس الجمعية الوطنية الذي كان في الشام أنشط عامل مستقل برأيه ، واثق بنفوذه ، غير مبال بمن يخالفه ، ولكنه أشد من فيصل في هذا؟

ومما كتبته من المذكرات الخاصة باختلال بطانة الملك فيصل وظهارته في يوم السبت 10 يوليو ما نصه :

سرقة دفتر يومية خزينة البلاط

علمت أن أمين صندوق البلاط الملكي (محمود الحلبي) سرق دفتر يومية البلاط وأن فيه قيوداً لما كان يبذله لإعانة العصابات وأمثال ذلك من النفقات الجنونية . وأن

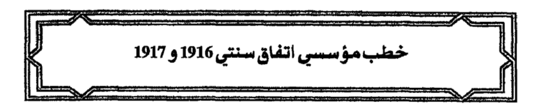
صفوة باشا العوا ناظر الخزينة الخاصة أراد أن يحقق وبدأ باستنطاق من هنالك ليلة الجمعة السابقة التي سرق فيها الدفتر (أي 2 يوليو) فحال إحسان بك الجابري رئيس الأمناء دون استمرار التحقيق وفرَّ الجاني ولم يبحث عنه أحد ، ولا يختلف اثنان في أنه أعطى الدفتر للفرنسيين وقد سرق مثل هذا الدفتر قبل الآن عندما كان صفوة باشا في مكة المكرمة كما أخبرني هوَ نفسه .

هذا ما كتبته بنصه في 23 شوال 10 يوليو (1920) والذي أتذكره أن الدفتر سرق من جيب الملك فيصل ، ولقد كان هذا الدفتر أكبر حجج الجنرال غورو في إنذاره الطاغي المرهق الذي أنذر به الملك فيصلاً زحفه على الشام ، وكنت أسمع أخبار بذل فيصل المال للعصابات التي تخرج على السلطة الفرنسية وتقاتلها في حدود لبنان ، وكذا على الإنكليز في حدود فلسطين ، وأسمع أن بعض شبابنا من أعضاء الجمعية والحزب كانوا من سماسرة هذه الأعمال الصبيانية ، فلا أكلمه ولا أكلم أحداً منهم في شيء من ذلك لاعتقادي أنه من العبث ولهذا لم يكن عندي رجاء في شيء من أمر هذه الدولة إلا ما حاولته مع فيصل من السعي للوحدة العربية مع أمراء الجزيرة وزعمائها وإقناع والده بذلك قبل كل شيء لأنه يتوقف عليه كل شيء ، وإلا مشروع توحيد العشائر والقبائل الذي يئست منه قبل اليأس من هذا؟

ولو نفذوه لما كان استيلاء الجنرال غورو على دمشق بما علم الناس من السهولة بل لأمكن للبلاد أن تقاوم زمناً طويلاً كما علم بعد ذلك من الثورة التي خسر الفرنسيس فيها ألوفا كثيرة من القتلى وملايين كثيرة من الفرنكات ، ولكان يرجى أن تدخل بالمطاولة في طور جديد ينتهي بخير مما انتهت به ثورة العراق على أن فيصلاً قد استفاد من أغلاطه الكثيرة في سورية فوائده عظيمة أفادته في سياسة العراق فوائد جزيلة ، وبلغني أنه كان يعترف بهذا ، وسيعلم المطلع على ما نجمله من خاتمته المؤسفة في دمشق شيئاً من مرونته العجيبة وصبره ، وعجز اليأس أن يطرق باب قلبه وقد حال القدر دون أن يفي رشيد رضا بوعده ، فاخترمته المنية بعد إصداره الجزء الأول من المجلد 35 الصادر في 1/ يوليو/ 1935 وكان آخر ما حرره من التفسير تفسير الآية 101 من سورة يوسف [ربِّ قد آتيتني مِنَ المُلكِ وعلَّمتَني من تأويلِ الأحاديث فاطرَ السمواتِ والأرضِ أنت وليي في الدنيا والآخرة توفَّني مسلماً وألحقني بالصالحين] .

وللسيد رشيد رضا الكثير من التقارير السياسية التي تخص موضوع هذه الرحلة يمكن للباحثين الرجوع إليها في المنار وأهمها (الحقائق الجلية في المسألة العربية) المنشور في المجلد 22 من المنار صفحة 442 حتى 480 و(مستقبل سورية وسائر البلاد العربية) المنشور في الصفحات (33 و91 و197 و250 و434 من المجلد 21) .

وتضمن نشر اتفاقية سايكس بيكو وصدى ذلك في الصحف العالمية وموقف الأحرار العرب منه ، وبيان احتجاج الأحزاب والجمعيات السورية ، وخطب الملك فيصل في بعض تلك المناسبات ، وبيان إعلان استقلال سورية ، وبيان إعلان استقلال العراق واتحاده بسورية ، رأينا من المناسب أن نختم هذا الكتاب بمقتطفات من هذا التقرير وهي خطب سايكس وبيكو في دمشق وحلب وإحدى افتتاحيات التايمس حول الدولة العربية القادمة» .



خطب مؤسسي اتفاق سنتي 1916 و 1917

خطبة موسيو بيكو في دمشق

ألقى موسي بيكو معتمد فرنسا السامي في سورية هذه الخطبة في حفلة أعدت له ولزميله السير مارك سيكس في النادي العربي بدمشق ونشرت جرائدها ترجمتها فنقلها المقطم في عدد 23 ربيع الآخر – 25 يناير (ك 2) الماضي عن (المقتبس) الدمشقية هذا نصها :

أيها السادة

لم أكن انتظر بعد أن قضيت أياماً عديدةً وساعاتٍ كثيرةً في السفر على متون القطارات والسيارات أن أصل إلى دمشق فأشهد هذه الحفلة الجميلة التي ضمّت خير الرجال والشبان ، بيد أني لم أستغرب هذا الأمر من صديقي السر مارك سايكس الذي عودني أن يفاجئني بهكذا حفلات مستغنماً هذه الفرصة التي سنحت لأهنئ الحكومة العربية بما نالته من الاستقلال الذي جاهدت الأمة العربية وقاتلت في سبيله .

انضمت الحكومة العربية إلى الحلفاء زمن الحرب ، وقاتلت معهم لكونها عرفت قدسية المبدأ الذي يقاتلون عنه ، فهي بعملها هذا تستحق الشكر ، وإنني باسم فرنسة أشكر الأمة العربية والحكومة العربية لجهادهما .

انتهى دور الحرب ، ودخلنا في دور جديد ، دور العمل والاجتهاد ، ولا أظن أن الدور الجديد يقل في خطورة شأنه عن دور الحرب ، خصوصاً وأن أعداءنا وأعداءكم لا يزالون موجودين ، فلذلك يجب أن نكون متفقين متحدين .

أخذت برقيةً بالأمس من فرنسة جاء فيها أن الأمير فيصل قابل المسيو كلمنصو مقابلة طويلة انتهت باتفاقهما على جميع المبادئ والآراء ولم يوجد بينهما أثر من آثار الاختلاف .

اتحدنا زمن الحرب وعملنا معاً للوصول إلى النتيجة ، فلذلك يجب أن لا يكون اتحادنا وقتياً بل ثابتاً وطيداً لتنال الأمة العربية ثمرةَ أتعابها وتقطعَ مع دول الحلفاء العقبات ويكون مبدأ تمدنها ورقيها .

إننا نرى في الزمن الحاضر زمن المذاكرات الصلحية كثيراً من الأعداء ونصادفهم أينما حللنا وذهبنا .

إن هؤلاء الأعداء أتراك يعملون للمصلحة التركية ، ولقد شاهدناهم يعملون أعظم الأعمال في أوربة ضدي أنا والسير مارك سايكس .

شاهدناهم في دار نظارة الخارجية يقولون للفرنسويين لا تؤمنوا للعرب ولا تصدقوهم ولا تنتظروا منهم أن يؤلفوا حكومة ، وسمعناهم يقولون للإنكليز لا تتفقوا مع الفرنسويين ولا تمدوا يدكم إليهم ولا تساعدوا العرب – فلذلك يجب أن نعرف هؤلاء الدساسين فيما يتكلمون به .

قال أحد الخطباء إننا الآن في دور جديد وعلينا واجبات جمة . لقد صدق أيها السادة ، فإن الأمم التي كافحت مع العرب للوصول إلى هذه النتيجة نتيجة الظفر القطعي قد ولد فيها فكر جديد وشعور جديد لم يكونا لها من قبل ، ذلك الشعور شعور الاستقلال والحرية للأمم .

يجب أن تقاوموا كل من يخالف هذا المبدأ إن كان تاجراً يعمل لرواج سلعته أو صحافياً يشتغل لترويج صحيفته ، وأن تدكوا كل المصاعب والعقبات التي تحول دون اتفاق الشعوب العربية أي كل من ينطق بالعربية لأن الأديان لا تكون مانعة للاتحاد ولا تسمعوا للمفسدين الذين يحاولون تفريق وحدتكم وكلمتكم .

إن فرنسا لم تخض غمار هذه الحرب لصد عادية الألمان عن بلادها فقط ، بل لتأييد مبدأ الحرية والاستقلال ولترى كل أمة تعيش متمتعة بالاستقلال وأن يكون لها الحق باختيار طريقة الحكم الذي تريده .

التحابُّ مطلوب وخصوصاً بين الأمم التي حاربت جنباً لجنب ، وإن فرنسا لا تميل قط إلى الرجل الذي يأتيها ويقول لها إني أحبك أكثر من وطني لأنه منافق لا يعرف أن يحب ، فترده وتقول له اذهب وحب وطنك أولاً ، وإن أعظم سرور لفرنسا هو أن ترى الأمة العربية متحدة متفقة والحكومة العربية مستقلة وإنها أي فرنسا مستعدة

لمساعدتها . وإذا كلفت أوربا فرنسا أن تساعد الحكومة العربية فهي مستعدة لإيفائها بإخلاص ، ويسرنا أن نرى الحكومة والأمة العربية ناجحة نامية بإذن الله)

خطبة السير مارك سايكس في دمشق

وألقى السير مرك سيكس في تلك الحفلة نفسها وقد نقل المقطم ترجمتها في عدد 25 ربيع الآخر 27 يناير عن جريدة البلاغ البيروتية الغراء وهو يا سعادة الحاكم ويا حضرات المجتمعين : سأتكلم بصعوبة هذه الليلة فقد سمعت أمرين أوقعاني في الاضطراب فالأمر الأول أنني سمعت أحد الخطباء يقص على حضراتكم تاريخ حياتي ويظهر أنه حفظ شيئاً منه حتى خشيت أن يتكلم عن سيئاتي ولكنني أقول بكل ارتياح إن معلوماته كانت قاصرة من هذه الجهة . والأمر الذي أحرج مركزي ذكره أنني طفت البلاد العربية التي تبلغ مساحتها 7000 ميل ولا أقدر أن أخطبكم باللغة العربية . ووصفني خطيب آخر بالبطل الساكت وهذا الوصف جيد ومطابق جداً إذا كان موجهاً لقائد عسكري ولا يكون مطابقاً إذا نعت به أحد السياسيين . لأن السياسي متكلم بالطبع .

لا أفيد الشرق بهذا الكلام وإنني أريد أن ألقي عليكم أمراً هذه الليلة :

إن يومكم هذا مشهود إذ سيفتح فيه مؤتمر الصلح (على ما أظن) الذي ستقرر فيه أعمال مهمة ، وتدبر فيه شؤون الكون لمدة قرنين .

منذ أربع سنين والحرب العامة تبتلع كبار العالم ومشاهيرهم ، وإننا نخون عهد إخواننا الذين ذهبوا ضحيتها – ولا أظنهم يقلون عن 5 – 6 ملايين – إذا لم نعمل بتؤدة ، لا فرق عندي في المحلات والأماكن التي لقوا بها حتفهم فالنتيجة واحدة وهي مفارقتهم هذا العالم سواء قضى الفرنسوي بفرنسا أو قضى البريطاني في فلندا أو في العراق أو في هذه البلاد بلادكم . أو قضى ذلك البحري الذي كان يقطع أجواز البحار وهو أعزل من السلاح يحمل الميرة إلى المحاربين في أنحاء المعمورة – في البر أو البحر ، أو من رجالكم الذين جاهدوا في سبيلكم ، أو كانوا من النساء والأولاد الذين أخرجوا من ديارهم في المدينة المنورة وأرمينية منفيين وقتلوا في الصحراء . فإن كل

واحد من هؤلاء مات بسبب واحد ولغاية واحدة . وعلينا أن نعتقد أن هؤلاء الأبرياء لم يكونوا سوى ضحية القصد الذي ماتوا في سبيله وهو أن الشعوب المظلومة تجدد أيامها وأن العالم ينال سلاماً عاماً دائماً - تلك هي الغاية العظمى التي ماتوا لأجلها . ولنأت الآن إلى تشريح أقسام هذه الغاية ومنها ما هو أمامنا .

هذه مدينتكم دمشق التي كانت مطلع التمدن في الزمن الماضي ، أصبحت متأخرة خربة وبعبارة أخرى متقهقرة ، وهذا المكان ربما كان ملك أحد أولئك الأقوام الذين ضحوا بأنفسهم . وإذا نظرنا إلى هذه البلاد نظرة عامة لا نرى سوى خرائب ونشاهد آثار الحكم الجائر خلال 400 سنة تحكم فيها الأتراك . وإذا أمعنا النظر أكثر من ذلك نجد شيئاً آخر لم يتمكن التركي نفسه من تخريبه .

إن هذا الميل الطبيعي إلى الاتجار والاستثمار الذي بني تدمر ، والشجاعة والحكمة اللتين اتصف بهما العرب ، وتلك الصفات صفات الشجاعة والإقدام التي كانت ملازمة لخالد بن الوليد لا تزال للجندي العربي ، وإن الرجولية والشهامة التي اتصف بها صلاح الدين لا تزال للعرب .

إن الميل إلى الشعور والآداب الذي أوجد الشعر القديم وكان الباعث على وضع كتب التصوير والنقوش التي تعلمناها نحن منكم لا تزال موجودة عندكم ، وإن الميل إلى العلم الذي شيدت أركانه في بغداد وقرطبة والذي نقلناه نحن الأوربيين عنكم لا يزال لكم .

إن الطبيعة قد وهبتكم هذه الهبات التي فطرتم عليها فلا التركي ولا العفريت ولا الشيطان يستطيع نزعها منكم .

والآن أنتقل إلى الأمر الآخر . إن هذه الهبات موجودة لديكم أولا وآخراً ، فإن العرب هم الذين أفاضوا روح التمدن على العالم كله ، ونشروا ضياء العلم الساطع ، ولكن ويا لسوء الحظ إن زمن النور الذي انبثق من جانب العرب كان قصير المدى .

دققوا في التاريخ واسألوا أسفاره تخبركم أن الممالك العربية كانت قصيرة الأعمار لم يمتد زمن ملكها طويلاً ، فلم يسد الهاشميون ولا الأمويون ولا العباسيون أكثر من قرن أو قرنين ، وتأملوا أن هارون الرشيد ذلك الخليفة الذي مات حاكماً لجميع البلدان ، قد أباد ولداه ذلك الملك العظيم ، فعليكم أن تحاذروا الوقوع في مثل هذا

الأمر ، ولا تدعوا نهضتكم تكون قصيرة العمر .

إن تمدنكم السابق كان مثل ينبوع ماء عذب تفجر في الصحراء فوق أرض رملية صخرية فلم يمض عليه قليل حتى أنبت أزهاراً ونباتات ثم علت الغزالة فأحرقت تلك الأزهار وعادت تلك القفار إلى حالها وهذا كان خطؤكم العظيم .

في رايتكم شارة سوداء فلتكن هذه الشارة رمزاً يذكركم بالماضي ويحذركم من الوقوع فيه ويدعوكم للاجتماع والاتحاد ، فكفاكم 400 سنة قضيتموها في الظلم والاستبداد . لقد مضى هذا الدور والحمد لله ، فقابلوا المستقبل بثبات وعزم وشجاعة وانظروا إلى باطن الأرض وتأملوا واستخرجوا كنوزها ومخبئاتها انظروا إلى القرى ، انظروا إلى كثرة وفيات الأطفال ، انظروا إلى هذه الطرقات الخربة ، انظروا إلى هذه العاصمة العظيمة وإلى أية حال وصلت من الخرائب مع أنها ربما كانت أغنى مدينة في العالم .

إذا أحببتم إحياء هذه الأراضي فهي تحتاج إلى جميع قواكم وقوانا نحن الحلفاء أيضا لنحيا حياة طيبة سعيدة طويلة لا قصيرة تتجاوز المائة أو المائتين أو الثلاثمائة قرن (كذا ولعل أصله سنة) وأرجوكم بعد ذلك أن تضعوا ثقتكم في أمر واحد هذا الأمر هو الفكر الجديد الذي انتشر في أوربا اعلموا جيداً أن السياسة الأوربية قد تغيرت نحو الشرق وأن السياسة السرية والاستعدادات الحربية التي قادت أوروبا إلى هذه الحرب الطاحنة قد ذهب زمنها ، وأنه توجد روح جديدة تنتشر في تمدين الأمم الذين حاربوا لاستقلالهم .

وأرجو منكم قبل الجلوس أن تفكروا جيداً في مستقبل أبنائكم الذين لم يولدوا بعد ، وفي أجدادكم الذين ماتوا من قبل والسلام عليكم .

خطبتا بيكو وسايكس في حلب

زار علي رضا باشا الركابي الحاكم العسكري للشام والمسيو جورج بيكو مندوب فرنسا والسر مارك سايكس مندوب إنكلترا مدينة حلب فأقام نادي العرب حفلةً إكراماً لمسيو جورج بيكو ممثل حكومة فرنسا حضرها الشريف ناصر والحاكم العسكري

العام ورجال الحكومة العربية وكثير من ممثلي دول الحلفاء وجم من العلماء والأدباء والرؤساء الروحيين والأعيان ، فابتدأ الكلام رئيس النادي مرحباً بالقوم وتلاه أحمد أفندي الأبري فألقى خطاباً بديعاً ثم خطب بالافرنسية يوسف أفندي سركيس ، ونهض بعده مسيو جورج بيكو وألقى خطاب بالافرنسية عربه أمين أفندي غريب وهذه خلاصته «منقول عن عدد 28 ربيع الآخر الماضي 30 يناير (ك2) من جريدة الأهرام» .

خطبة موسيو بيكو

حضرة الحاكم العام وأيها السادة

أشكركم كثيرا لأنكم سمحتم لي اليوم بأن آتي وأحمل سلام فرنسا الظافرة إلى ممثلي الحكومة العربية العظيمة ، إذ ليس لنا بهجة في هذا الظفر أعظم من رؤية مثل هذا المحفل ، فهو بداية عمل كريم نتج عن الحرب هو انتهاء الاستبداد التركي وتقرير الحرية لشعب عظيم يديره رجال عظام .

كلٌ يعلم ما هي الأسباب التي جعلت هذه الحرب حرباً خاصة بفرنسا ، إذ قد كان منذ سبع وأربعين سنة في جنبنا جرح غير مندمل وكان لابد لنا من الانتقام ، ولكن كنا نتجنب الحروب لشدة هولها على الإنسانية فلما جاء اليوم الذي تجمعت به القوى البربرية في العالم اضطررنا إلى مخالفة قوى التمدن إبقاء عليه من الشر المحدق به فانضمت إلينا إنكلترا ثم العرب ثم إيطاليا ثم أمريكا ، وبغية كل منهم الوصول إلى يوم يأمن فيه كل شعب على حريته واستقلاله (تصفيق حاد) .

لا شيء يرضي فرنسة ويسرها كرؤيتها حكومة نشأت بالأمس وأخذت تتقدم وترتقي يوماً بعد يوم في هذه الأماكن المحررة من الاستعباد ، وغدا مع تمام الصلح لابد أن يزول الحكم العسكري الذي ترونه اليوم مع مناطقه الحاضرة التي اقتضتها ضرورات الحرب فيطل عليكم نور يوم جديد وعظيم ، فليوحد العرب جميعاً كلمتهم ومساعيهم من حلب إلى أقاصي الصحراء ولينبذوا كل شقاق مهما اختلفت عقائدهم أو عاداتهم وليبذلوا ما بوسعهم من الإقدام أمام هذه الغاية المنشودة .

حاربت فرنسا أربع سنوات توصلاً للنتيجة التي نراها الآن ، ولها الطالع الأسعد بأن ترى الحكومة العربية شديدة الأزر محترمة من الجميع وتحل بالاتفاق المتبادل جميع المسائل التي يشكلها عمران سورية وحرية اتصالها بالبحر لأن اتصالها بالبحر ضروري ولابد لها منه (؟) ولكن يجب عليكم يا رجال سوريا ومستقبلها البراق أن توحدوا كلمتكم لتبلغوا هذا النجاح إذ أنكم محاطون بالأعداء الذين رأيتهم أنا والسير مارك سايكس حيث كنا نجهر بحقوقكم أمام أوربا فكانوا يتذرعون لإحباط مساعينا متلبسين بزي الأصدقاء فما أبوا إلا بالفشل إذ صممت الحليفتان على الاعتراف بحكومة عربية مستقلة)

خطبة السير مارك سيكس بحلب

ونهض بعده السير مارك سايكس فقال :

«أيها السادة الكرام والمسيو جورج بيكو المحترم ، أتكلم اليوم وأنا مرتاح الضمير إذ حزت الانتخاب في مجلس الأمة فأصبحت قادراً على إتمام العمل الذي زاولته من أجلكم .

طرق مسامعكم الآن ما قاله المسيو جورج بيكو وأزيده تأكيداً أنه قل أن يشتغل إنسان كما اشتغل هو في معاونة المبدأ العربي وقد ظهرت نتائجه جلية .

تذكرن ما هي الأيام السوداء التي اضطررنا لاجتياز مراحلها ، فان الأيام السعيدة التي نحن فيها الآن لا تنسينا مكاره تلك الأيام ومتاعبها التي كان يشاطرني مضضها المسيو بيكو الذي لم يقنط قط من نجاح المبدأ العربي رغم ما كنا نلاقيه من العراقيل الجمة ، وأهولُ بها من عراقيل ، لأن العدو إذ ذاك ألمانيا وجيشها الجرار الذي هو أكثر جيوش العالم انتظاماً .

كانت بريطانيا سيدة البحار وما كان يخطر على بالها ما كانت تدبره لها عدوتها ألمانيا من المكايد البحرية ألا وهي الغواصات .

إن العدو الذي كنا نصادمه هو ذاك القادر ذو العظمة والجبروت (ألمانيا) فمن ذا الذي يستطيع أن يقول سواء كان إنكليزياً أو عربياً أو فرنسياً أو إيطالياً أو أمريكياً أنا

الذي أنزلت ألمانيا من حالق عظمتها وضربت خنزوانة كبريائها . لا يستطيع أحد أن يدعى هذه الدعوى ، وإنه لم يقهرها إلا الله وحده . إن القدرة الإلهة التي منحتنا هبة النصر العظيمة تأمرنا بالمحافظة عليها والانتباه كيف يقتضي أن يستفيد منها لأننا إذا أسأنا استعمالها فهي تستردها منا والآن أريد أن أقدم كلمة على سبيل النصيحة لكافة الحاضرين هنا ممن يتكلم العربية وهي قصيدة (إذا) .

وعندها أنشد قصيدةً لأحد شعراء الإنكليز عنوانها (إذا) ضمت من الحكم الرائعة ما أصاخ له الجمهور وقابله بالاستحسان . وعقب ذلك نهض توفيق أفندي شامية وألقى خطاباً بديعاً وانفضت الحفلة والجذل باد على أسرة الجميع) ما في الأهرام .

الدولة العربية القادمة

هذا عنوان مقالة افتتاحية للتيمس في 7 فبراير عربناها فيما يلي:

(شهد فيصل الأمير الحجازي جلسة المؤتمر في باريس أمس وبسط قضية أمته ويندر أن يكون بين المواضيع التاريخية ما يجهله الجمهور (في بريطانيا) جهله لتاريخ العرب وما قد يكون لهم من الشأن كأمة في المستقبل . وقد كان السر مرك سيكس أعظم رجال الدولة البريطانية اهتماماً بوصف البواعث التي حملت البريطانيين على تعضيد العرب في حربهم الطويلة مع الترك .

إن الإمبراطورية العربية القديمة التي كانت تمتد في أوج عزها من بغداد إلى قرطبة (المقطم : كذا في الأصل والصواب أنها كانت تمتد من بلاد فارس إلى قرطبة) كانت أفضل حكومة قامت بين انحطاط الإمبراطورية الرومانية ونشوء أوربا الحديثة ، ولعلها كانت أمتن جسر للحضارة في العصور الوسطى ، وكان منشأ هذه الإمبراطورية في الحجاز الذي تكلم عنه الأمير فيصل باسمه في باريس أمس ، وكان للإمبراطورية العربية تهذيب وحضارة خاصان بها خلافا للسلطنة العثمانية . ومما اختلفت به عن السلطنة العثمانية أيضا أنها عرفت كيف تنتفع أعظم انتفاع بجميع العناصر التي اتصلت بها حتى لقد دعي عصر عظمتها وعزها العصر الذهبي للشعب اليهودي . والحقيقة أن وجوه الشبه بين العرب واليهود لا تقتصر على ما بينهما من القرابة وصلة

الرحم ، بل تتناول ما بينهما من الشبه العظيم في تاريخهما . فقد أضاع اليهود قوميتهم بالنزاع الشديد الذي وقع بينهم وبين الإمبراطورية الرومانية ، فحل العرب محل اليهود وصاروا قادة الأفكار بين الشعوب السامية ، ثم سقط العرب فريسة للمغول الذين غزوا بلادهم ، واستولى الترك على الميراث الذي ورثه العرب من اليهود . وقد كان الأنبياء اليهود أنبياء عرباً ، وعند الشعبين كثير من الأخبار والأقاصيص التقليدية التي يشتركان فيها ، وبينهما شبه كثير في تاريخهما ، فقد فقدا قوميتهما وانفصل الواحد عن الآخر بتابعيتهما السياسية للبلاد التي اختارها للإقامة فيها .

والمأمول أن يعالج المؤتمر مشكلة التصرف في أملاك تركيا التي أخذت منها وبعدها وحدة كاملة ، فهنالك العرب كما تقدم ، ويليهم اليهود وآمالهم القومية في فلسطين ، وبعدهم الأرمن . فمستقبل الشرق يتوقف كثيراً على ما يكون من الاتفاق بين هذه الأجناس الثلاثة التي سيكون لها أوطان قومية في القريب العاجل ، ومصير كل منها يهم الآخرين ، فإذا أبدل الحكم العثماني الذي حافظ ولو في الظاهر على وحدة تلك الأنحاء مع أنه لم يفعل شيئاً لترقيتها مادياً أو أدبياً أو عقلياً – إذا أبدل هذا الحكم بمنافسات ومناظرات محلية كان هذا الإبدال مصابا .

إن المرء يتطلع إلى جامعة عربية تمتد من دمشق إلى بغداد ولها منافذ تجارية إلى البحر المتوسط والبحار الشرقية . وقد لا تكون إمبراطورية واحدة متجانسة ولكن يمكن أن تكون ولايات متحدة وتكون هنالك دولة (أجنبية) منتدبة ويرجح أن هذه الإمبراطورية الجديدة تستعين كثيراً بمقدرة يهود فلسطين كما استعانت إمبراطورية العرب القديمة بيهود أفريقية وأسبانيا فيجد اليهود بذلك لمقدرتهم مجالاً جغرافياً أوسع من فلسطين التي هي ليست سوى بلد صغير وحينئذ تتحد أعمال الشعبين في إنهاض الشرق من كبوته .

ويشترط لبلوغ هذا الغرض شرطان جوهريان الأول أن تنال اليهودية ميراثها التام في فلسطين فلا يكون في الدنيا مسألة اسمها (فلسطين الشهيدة) والثاني أن يتملص يهود فلسطين من نفوذ الأعمال المالية عليهم فلا ينصرفوا إلى اغتراف موارد الشرق المادية بل يتخذوا لأنفسهم ضرباً من الحضارة الصحيحة من البلاد نفسها ويوجهوا

همهم إلى إنشاء تهذيب حقيقي خاص بها يطابق المبادئ السامية الإنسانية التي
وضعتها جمعية الأمم وتحقيق هذه الأمنية يهم العرب كما يهم اليهود تقريبا) .

المحتويات



رحلتان قام بهما محمد رشيد رضا الى سورية، الأولى سنة 1908 بعد إعلان الدستور العثماني، والثانية سنة 1919 في بداية الانتداب الفرنسي، آثرنا أن يضمهما مجلد واحد يرصد التحولات الكبرى التي عصفت بالمنطقة خلال الحرب العالمية الأولى وسقوط الامبراطورية العثمانية وتفككها. إن المكانة العلمية السامية التي اتسم بها هذا العالم الأديب تزيد من أهمية هاتين الرحلتين. فهو يعد من كبار أئمة المسلمين والمصلحين الاجتماعيين في النصف الأول من القرن العشرين كسلفه المفكر الرائد عبد الرحمن الكواكبي.

قدّر لرشيد رضا في رحلته الأولى أن يشهد الآثار التي تركها إعلان الدستور العثماني على الحياة السورية، وفي رحلته الثانية أن يكون المؤرخ اليومي لوقائع دخول الجنرال غورو دمشق وإقصاء فيصل عنها وما جرى من أحداث وردت مفصلة في رحلته. وكان الشيخ يومئذ [illegible] كمسؤول أول عن بلاد الشام، ويقترح على فيصل تعيين [illegible] أحلك الظروف يقصده المسؤولون للاستشارة. وعا[illegible] والصراحة، فحين اختلف فيصل مع أعضاء المؤتمر ال[illegible] أنا الذي أوجدته - يقصد المؤتمر - فرد عليه رشيد رضا قائلاً: [illegible] فقد كنت قائداً من قواد الحلفاء تحت قيادة الجنرا[illegible] المؤتمر ملكاً لسورية.

المؤسسة العربية للدراسات والنشر





